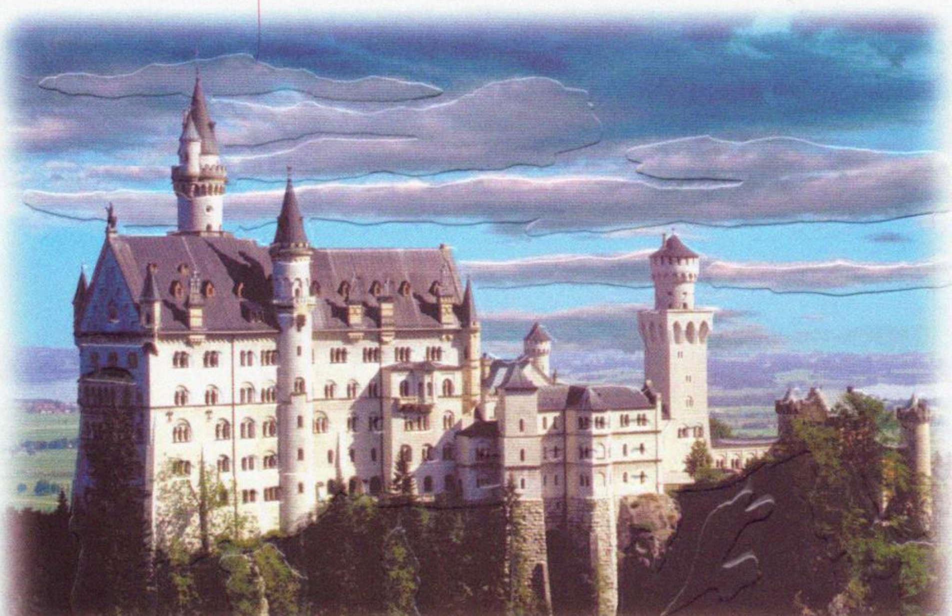
النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي



مُسَافِر إلى فَرَانْكفُورْت

٧١

Agatha Christie

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

أغاثا
كريستي

مُسَافِر إلى فرَانْكفُورْت

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٧٠ بعنوان
Passenger to Frankfurt

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الأولى

٢٠٠٥

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣ دبي ٢٨٢٦٠٠٥
الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ قطر ٤٨٦٢١٢١ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

مُسَافِر إلى فرَانْكفُورْت

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٠

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال
للترجمة والنشر
AJIAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلفة

إن أول سؤال يوجَّه إلى المؤلف (شخصياً أو من خلال الرسائل) هو: من أين تحصل على أفكارك؟

ويشعر المرء بإغراء كبير يدفعه لأن يجيب السائل إجابة من قَبيل: إنني أتسوّق دائماً من متاجر «هارودز»، أو: «أحاول العثور عليها في متاجر الجملة»...

أما إذا أعجبك مظهر سائلك فإنك تلين وتذهب إلى أبعد من هذا بقليل فتقول: إذا ما خطرت لك فكرة معينة جذابة وشعرتَ أن باستطاعتك عمل شيء منها فإنك تجيلها في فكرك، ثم تعركها وتعجنها حتى تعطيها شكلها النهائي، ثم تبدأ في كتابتها بالطبع.

والواقع أن هذا العمل ليس بتلك السهولة والمتعة التي يتخيلها أكثر الناس؛ فهو يغدو عملاً صعباً، وربما اخترتَ أن تحفظ الفكرة كلها وتخبّئها لكي تستخدمها فيما بعد، بعد سنة أو سنتين مثلاً.

وربما ظهر بعد ذلك سؤال ثان يقول بلهجة تقريرية: أظن أنك تأخذ معظم شخصياتك من الحياة الواقعية؟

وسرعان ما يأتي النفي المستنكِر لذلك الرأي البشع: لا؛ أنا

لا آخذها من الحياة الواقعية بل أخترعُها. إنها شخصيات خاصة بي، لا بد وأن تكون شخصياتي أنا؛ تفعل ما أريدها أن تفعله وتكون كما أريدها أن تكون. تصبح حية أمامي، وتمتلك -أحياناً- أفكارها الخاصة، ولكن ذلك لا يكون إلا لأنني أنا التي جعلت تلك الشخصيات تصبح حقيقية.

وهكذا فقد أنشأ المؤلفُ الأفكارَ والشخصيات، فتأتي الآن الضرورة الثالثة: خلفية الأحداث.

أول ضرورتين جاءتا من مصادر داخلية، أما هذه الثالثة فلا تأتي إلا من مصادر خارجية؛ لا بد أن تكون هناك... موجودة تنتظر. أنت لا تخترع الخلفية لأنها موجودة أصلاً، إنها حقيقية.

ربما ذهبتَ في رحلة نهرية عبر النيل ذات يوم على سبيل المثال. إنك تذكر تفصيلات تلك الرحلة كلها، وهي -تماماً- الخلفية التي تريدها لهذه القصة المعينة. وربما تناولت وجبة في مقهى في تشيلسي ذات يوم وكانت تجري مشاجرة، وترى فتاة وقد انتزعت قبضةً من شعر فتاة أخرى... إنها بداية رائعة للقصة التي ستكتبها فيما بعد. وقد تسافر في قطار الشرق السريع... أية متعة ستكون لو جعلت هذا القطار موقعاً لحبكة تفكر فيها! وربما تذهب لشرب الشاي مع صديقة، وعندما تصل يغلق أخوها كتاباً كان يقرؤه ويلقيه جانباً وهو يقول: "لا بأس، لكن لماذا لم يسألوا إيفانز؟"... وهكذا تقرر فوراً أن تضع لروايتك التي ستكتبها قريباً عنواناً يقول: «لماذا لم يسألوا إيفانز؟». إنك لا تعرف حتى الآن مَن سيكون إيفانز هذا، لكنْ لا يهم؛ إيفانز سيأتي في الوقت المناسب إلاّ أن العنوان قد حُسِم أمره!

وهكذا فإنك -بمعنى من المعاني- لا تخترع خلفيات كتبك، فهي تقع خارج عقلك؛ إنها موجودة حولك وما عليك إلا أن تمدّ يدك وتختار منها ما تشاء: قطاراً، مستشفى، فندقاً في لندن، شاطئاً على البحر الكاريبي، قرية من قرى الريف، حفلة، مدرسة بنات... إلى آخر ذلك.

غير أن أمراً واحداً فقط ينطبق ويجري على مسألة الخلفيات تلك: إذ ينبغي أن تكون موجودة... إنها أناس حقيقيون وأماكن حقيقية، مسرحٌ محدّد في الزمان والمكان. فإذا كان الحدث في الوقت الحاضر فكيف ستحصل على معلومات كاملة تُضاف إلى ما تشاهده عيناك أو تسمعه أذناك؟

الجواب بسيط للغاية. إنه ما تقدمه لك الصحافة كل يوم، تقدمه لك في صحيفتك التي تقرؤها كل صباح في الصفحة الأولى. ما الذي يجري في العالم اليوم؟ ما الذي يقوله الناس أو يفعلونه؟ انظر إلى أي صحيفة في إنكلترا عام ١٩٧٠، انظر إلى الصفحة الأولى كل يوم ولمدة شهر واحد، دوّن ملاحظات، صنّف وفكّر.

كل يوم جريمة قتل: فتاة تُخنَق، عجوز تُقتَل وتجرَّد من مدّخراتها الزهيدة، شبّان وصبية يعتدي بعضهم على بعض، مبان وأكشاك هاتف تحطم أو تخرَّب، تهريب مخدّرات، سرقة واعتداء، أطفال يُخطَفون وجثث أطفال يُعثَر عليها قريباً من منازلهم...

أيمكن أن تكون هذه إنكلترا؟ هل هي هكذا حقاً؟! يشعر المرء أنها لا يمكن أن تكون إنكلترا... أو ليس بعد، ولكن هذا ممكن. ويستيقظ الخوف؛ خوف مما قد يحدث. وهو ليس خوفاً نابعاً -في

جزء كبير منه- ممّا يحدث حقاً، ولكنه نابع مما قد يكمن خلف هذه الأحداث من أسباب، وهي أسباب بعضها معروف وبعضها مجهول رغم أنه محسوس.

وهذا لا يحدث في بلدنا فقط؛ فهناك أخبار تحتل مساحات أقل في صفحات أخرى من الصحيفة، تقدّم أخباراً من أوروبا، من آسيا، من الأمريكتين... ومن كل أنحاء العالم: اختطاف طائرات، اختطاف أشخاص، عنف، أعمال شغب، كراهية، فوضى...

كل ذلك ينمو ويشتدّ، وكله يبدو وكأنه يقود إلى عبادة التدمير وإلى المتعة في القسوة والوحشية!

ومع ذلك يعرف المرء -من خلال خبرته الشخصية- مقدار الخير الموجود في عالمنا هذا؛ المحبة وطيبة القلب والشفقة، مساعدة الجار للجار وأعمال العون التي يبذلها الأولاد والبنات... إذن لماذا هذا الجو الغريب للأخبار اليومية، للأشياء التي تحدث، والتي هي حقائق فعلية؟

عليك إن أردت كتابة قصة في عامنا هذا (١٩٧٠) أن تنسجم مع خلفيتك؛ فإن كانت الخلفية خيالية فلا بد للقصة من قبول خلفيتها لتكون -هي أيضاً- قصة خيالية خارجة عن المألوف، ينبغي للخلفية ولمسرح الأحداث أن يتضمنا الوقائع الغريبة للحياة اليومية.

هل يمكن للمرء أن يتخيل وجود قضايا خيالية؟ حملة سرية من أجل السلطة مثلاً؟ هل يمكن لرغبة جنونية في التدمير أن تبني

عالماً جديداً؟ هل يمكن للمرء أن يذهب خطوة أبعد قليلاً فيقترح إنقاذاً للعالم بأساليب خيالية تبدو مستحيلة؟

لا شيء مستحيل؛ هذا ما تعلمناه من العلم.

* * *

إن هذه القصة خيالية في جوهرها، وهي لا تزعم أنها أكثر من ذلك. لكن معظم الأشياء التي تحدث فيها تحدث فعلاً (أو تُنبئ بإمكانية حدوثها) في عالم اليوم.

إنها ليست قصة مستحيلة... بل هي خيالية فقط.

أغاثا كريستي

الكتاب الأول

رحلة معترَضَة

الفصل الأول
مسافر إلى فرانكفورت

"الرجاء تثبيت أحزمة الأمان".

لم يلقَ النداء استجابة سريعة من ركاب الطائرة مختلفي المشارب؛ فقد ساد إحساس عام بأن من غير الممكن أن يكونوا قد وصلوا إلى جنيف بعد. تأفّفَ الناعسون وتذمروا وتثاءبوا، أما أولئك الذين غطّوا في نوم عميق فقد توجّبَ على المضيفة المسؤولة أن توقظهم برفق وهي تقول: أحزمة مقاعدكم من فضلكم.

جاء الصوت الجاف من الإذاعة الداخلية للطائرة ليشرح بالألمانية والفرنسية والإنكليزية قائلاً إن الطائرة ستشهد بعد قليل فترة قصيرة من الأجواء المتقلبة. فتح السير ستافورد ناي فمه واسعاً وتثاءب، ثم استجمع نفسه على مقعده وجلس منتصباً. كان يرى -فيما يرى النائم- حلماً سعيداً يصيد فيه السمك في نهر إنكليزي.

كان السير ستافورد ناي في الخامسة والأربعين من عمره، متوسط الطول ذا وجه حليق ناعم بلون الزيتون، أما ثيابه فكان يحبّ لبس الغريب منها، إذ كان يشعر (وهو ابن العائلة العريقة) بارتياح تام

في الانغماس بمثل تلك النزوات الخاصة بالملابس. وإذا ما أثارت تلك الأزياء بين حين وآخر دهشة بعض زملائه ممّن يرتدون ثياباً أكثر تقليدية فإن ذلك لم يكن سوى مصدر متعة خبيثة له.

كان في مظهره شيء يذكّر بمتأنّقي القرن الثامن عشر. كان يحب أن يلفت الانتباه إليه، وعندما يسافر كان ولعه الخاص ارتداء عباءة كتلك التي يرتديها رجال العصابات، وكان قد اشتراها مرة من كورسيكا. كانت عباءة زرقاء أرجوانية داكنة لها بطانة قرمزية اللون وغطاء رأس يتدلى وراءه بحيث يستطيع أن يغطي رأسه لتفادي تيارات الهواء.

كان السير ستافورد ناي مخيّباً للآمال في الدوائر الدبلوماسية؛ فقد تميّزَ في أيام شبابه الأولى بمواهبه الطامحة لعظائم الأمور، ولكنه فشل على نحو غريب في تحقيق ما كان يُعلَّق عليه من آمال. فقد اعتادت أن تنتابه في أكثر اللحظات جديّة روحُ دعابةٍ شيطانية غريبة، وقد وُجد أنه كان دائماً يفضّل عندما يجِدُّ الجدّ التمتعَ بمكره اللَّعوب بدل الضجر الذي تثيره جدية المشكلات.

كان شخصية مشهورة في الحياة العامة، ولكنه لم يصل إلى منصب رفيع أبداً. كان الشعور السائد هو أن ستافورد ناي لم يكن مأموناً ولن يكون كذلك أبداً رغم ذكائه الأكيد. وفي هذه الأيام التي تتداخل فيها السياسات والعلاقات الخارجية يصبح الأمان مفضَّلاً على الذكاء، وخصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالوصول إلى رتبة سفير. وقد وُضع السير ستافورد ناي على الرف، رغم أنه كانت توكل إليه أحياناً بعض المهام التي تتطلب فنّ الكيد والخداع، ولكنها لم تكن

مهمات على جانب كبير من الأهمية أو العلنية. وكان الصحفيون يشيرون إليه أحياناً على أنه حصان الدبلوماسية الأسود.

ولم يكن بوسع أحد أن يعرف أبداً إن كان السير ستافورد ناي نفسه يشعر بخيبة أمل من حياته المهنية، بل ربما لم يكن السير ستافورد نفسه يعلم. كان فيه شيء من الغرور، ولكنه كان أيضاً يجد لذة كبيرة في إشباع ميوله إلى الأذى والإزعاج.

كان عائداً الآن من مهمة تحقيق في الملايو، وقد وجدها مهمة تفتقر إلى أية إثارة؛ فهو يرى أن زملاءه قد قرروا سلفاً النتائج التي سيتوصلون إليها. لقد شاهدوا واستمعوا، لكن وجهات نظرهم التي كوّنوها مسبقاً لم تتأثر. وكان السير ستافورد قد ألقى ببعض العوائق والعراقيل أمام عمل زملائه مدفوعاً بمتعة ذلك وليس بأية قناعات معلنة، وقد رأى أن عمله هذا أضفى حياة على المهمة في كل الأحوال وتمنى لو وجد فرصاً أخرى لوضع المزيد من تلك العراقيل. كان زملاؤه في اللجنة على جانب كبير من الحصافة والموثوقية والبَلادة المملة، حتى السيدة المشهورة ناتانيل إيدج (المرأة الوحيدة في الفريق والمعروفة باستسلامها للهواجس) لم تكن مغفّلة عندما كان الأمر يصل إلى الحقائق الواضحة، بل كانت ترى وتصغي وتلزم جانب الحذر.

كان قد التقى بها قبل ذلك بمناسبة حل مشكلة في إحدى عواصم دول البلقان. وهنا لم يستطع السير ستافورد ناي الإحجام عن الانخراط في بعض الذكريات، فقد لمّحت إحدى المجلات واسمها «أخبار من الداخل» إلى أن وجود السير ستافورد ناي في

تلك العاصمة البلقانية كان وثيق الصلة بمشكلات البلقان وأن مهمته كانت سرية وعلى درجة كبيرة من الحساسية. وقد أرسل أحد أصدقاء السير ستافورد له نسخة من هذه المجلة مشيراً إلى الخبر المتعلق به، لكن السير ستافورد لم يفاجَأ؛ فقد قرأ الخبر وهو يبتسم. وقد كان من دواعي متعته الفائقة التأمل في مقدار مجانبة الصحفيين للحقيقة في هذا الخبر، فقد كان وجوده في صوفيا لسبب وحيد هو اهتمامه البريء بالأزهار البرية النادرة وبناء على إلحاح من صديقة عجوز تدعى الليدي لوسي كليغورن، لم تكن تعرف الكلل في بحثها عن هذه الأزهار النادرة. وقد كانت تلك السيدة مستعدة دوماً لتسلق منحدر صخري أو القفز بفرح وسط مستنقع جرياً وراء زهرة صغيرة يتناسب حجمها الصغير عكساً مع اسمها اللاتيني الطويل.

كانت مجموعة صغيرة من المتحمسين تتابع هذا البحث في الأزهار على سفوح الجبال ومنحدراتها لأكثر من عشرة أيام تقريباً عندما خطر للسير ستافورد أنه من المؤسف أن لا يكون خبر المجلة ذاك صحيحاً. كان قد شعر بشيء من الملل من الأزهار البرية، ورغم أنه كان يحب لوسي العزيزة إلا أنه كان يتضايق أحياناً عندما كانت تسبقه في تسلق التلال بسهولة وبأقصى سرعة على الرغم من تجاوزها الستين عاماً.

في الطائرة تكلم ذلك الصوت الجاف مرة أخرى، قال للمسافرين إنه بسبب الضباب الكثيف في جنيف فسوف تحوّل الطائرة وجهتها إلى مطار فرانكفورت ومن هناك ستتابع طيرانها إلى لندن، أما المسافرون المتوجهون إلى جنيف فستتم إعادتهم إليها من فرانكفورت في أسرع وقت ممكن. ولم يكترث السير ستافورد

ناي لهذا التغيير، بل توقّع أنه لو كان في لندن ضباب فسوف تحوّل الطائرة وجهتها إلى بريستويك. وكان يرجو أن لا يحدث هذا، فقد سافر إلى بريستويك أكثر من مرة، وأحسّ أن الرحلات الجوية كانت مملة جداً بالفعل. لو أنه... إنه لا يدري. لو أنه ماذا؟

كان الجو دافئاً في قاعة الترانزيت بمطار فرانكفورت ولذلك خلع السير ستافورد ناي عباءته وثناها حول كتفيه، وراح يشرب كوباً من العصير ويستمع بنصف انتباه إلى النداءات المختلفة من الإذاعة الداخلية للمطار: الرحلة رقم ٤٣٨٧ المتجهة إلى موسكو، الرحلة رقم ٢٣٨١ المتجهة إلى مصر وكلكتا...

رحلات إلى جميع أصقاع الدنيا. يا له من أمر مثير! ولكن كان في قاعات المسافرين في المطارات شيء يجمّد الإثارة، فقد كانت مليئة عن آخرها بالناس، مليئة بأشياء كثيرة معروضة للبيع، مليئة جداً بالمقاعد المتشابهة الألوان، مليئة جداً بالبشر ومليئة بالأطفال الذين يصرخون... وحاول أن يتذكر قائل البيت: «ليتني أحببت الجنس البشري، ليتني أحببت وجهه السخيف»... أهو تشيسترتن؟ لا شك أنه كلام صحيح. ضع أناساً كثيرين معاً ثم انظر كيف يبدون متشابهين جداً بحيث لا يكاد المرء يحتمل ذلك. فكر السير ستافورد وهو ينظر أمامه: ها هو وجه مثير الآن. يا له من فرق!

نظر باستخفاف إلى فتاتين تجمّلتا إلى أبعد حد، وحسبهما من إنكلترا. ثم نظر إلى امرأة أخرى تجمّلت أكثر من الفتاتين، وأحسّ أنها قد ذهبت بعيداً بعض الشيء في اتباعها لآخر صيحات الموضة. ولم يكن ليهتم بالفتيات المتجمّلات اللاتي يتشابهن إلى حد بعيد، بل كان يحبّ للمرأة أن تبدو مختلفة.

ثم جلست شابة بجانبه على الكرسي البلاستيكي المغطى بالجلد الصناعي، وقد لَفَتَ وجهُها انتباهَه على الفور؛ لا لأنه كان مختلفاً تماماً بل لأنه بدا وكأنه وجه يعرفه. لقد شاهد هذا الوجه من قبل، ولم يستطع أن يتذكر أين أو متى لكنه بدا وجهاً مألوفاً لديه بالتأكيد. رأى أن عمرها قد يكون خمساً وعشرين سنة أو ستاً وعشرين، ذات أنف دقيق معقوف وشعر أسود كثيف يصل إلى كتفيها. وكانت أمامها مجلة لكنها لم تكن تنظر إليها، في الواقع كانت تنظر إليه بشيء أقرب إلى اللهفة.

وفجأة تكلمت، وكان صوتها جهورياً عميقاً بعمق صوت الرجل تقريباً وفيه لكنة أجنبية بسيطة جداً. قالت: هل يمكنني الحديث معك؟

تفحصها قليلاً قبل الردّ عليها. لا، ليست من النوع الذي يتبادر إلى الذهن... ليست ممّن يبحثن عن تسلية عابرة، بل إنها نوع آخر. قال: لا أرى سبباً يمنعك من الحديث؛ يبدو أن لدينا وقتاً طويلاً نضيعه هنا.

قالت المرأة: ضباب، ضباب في جنيف، وربما ضباب في لندن... ضباب في كل مكان. لا أعرف ماذا أفعل.

قال يطمئنها: آه، يجب أن لا تقلقي؛ سينزلونك في مكان ما بلا شك. إنهم على درجة عالية من الكفاءة. إلى أين أنت ذاهبة؟

- كنت ذاهبة إلى جنيف.

- حسناً، أظن أنك ستصلين إلى هناك في نهاية الأمر.

- عليّ أن أكون هناك الآن. إذا استطعت الوصول إلى جنيف فسيكون الأمر على ما يرام، فشخص ما سيستقبلني في جنيف، ويمكنني أن أكون آمنة.

ابتسم قليلاً وهو يسألها: آمنة؟

قالت: إن كلمة «آمنة» مؤلفة من أربعة حروف، لكنها ليست الكلمة التي يهتم بها الناس هذه الأيام. ومع ذلك يمكن أن تعني الكثير، تعني لي الكثير. وسكتت قليلاً ثم قالت: إذا لم أستطع الوصول إلى جنيف، وإذا ما اضطررت لمغادرة هذه الطائرة هنا أو الذهاب في هذه الطائرة إلى لندن بلا ترتيبات مسبقة فسوف أُقتل.

نظرت إليه بحدة وقالت: أظن أنك لا تصدقني.

- أخشى أنني لا أصدقك.

- ما أقوله صحيح تماماً. الناس يُقتلون، إنهم يُقتلون كل يوم.

- ومن الذي يريد قتلك؟

- وهل يهم ذلك؟

- لا يهمني أنا.

- يمكنك أن تصدقني إن كنت ترغب في ذلك. إنني أقول الحقيقة وأريد المساعدة، المساعدة للوصول إلى لندن بسلام.

- ولماذا تختارينني أنا لمساعدتك؟

- لأنني أعتقد أنك تعرف شيئاً عن الموت. لقد عرفتَ الموتَ وربما رأيت أحداً يموت.

نظر إليها بحدة ثم قال: وهل من سببٍ آخر؟

- نعم؛ هذه.

مدّتْ يدها النحيلة زيتونية اللون ومسّدَت ثنايا العباءة الملتفّة على كتفيه وقالت: هذه.

اشتد اهتمامه لأول مرة وقال: وماذا تعنين بهذا؟

- إنها غير عادية... فريدة. إنها ليست مما يلبسه أي شخص.

- هذا صحيح، إنها واحدة من نزواتي المظهرية.

- وهي نزوة قد تفيدني.

- ماذا تقصدين؟

- أريد منك شيئاً. قد ترفض طلبي وقد لا ترفضه، لأنني أعتقد أنك رجل مستعد للمجازفة تماماً مثلما أنا امرأة مستعدة للمجازفة.

قال بابتسامة باهتة: سوف أصغي إلى مشروعك.

- أريد أن أرتدي عباءتك، وأريد جواز سفرك، وأريد تذكرة صعودك إلى الطائرة. وبعد عشرين دقيقة أو نحو ذلك سيتم النداء إلى رحلة لندن. سوف أحمل جواز سفرك وسوف أرتدي عباءتك، وهكذا سوف أسافر إلى لندن وأصل إلى هناك بأمان.

- تقصدين أنك ستعبرين إلى الطائرة على أنك أنا؟ بهذه السهولة يا عزيزتي؟

فتحت حقيبتها وأخرجت منها مرآة مربعة صغيرة وقالت: انظر هنا. انظر إليّ ثم إلى وجهك.

عندها عرف، عرف ما كان يتردد بغموض في أعماق عقله: أخته باميلا التي توفيت قبل عشرين سنة تقريباً. كان هو وباميلا متشابهَين كثيراً؛ كانت ذات وجه فيه شيء من ملامح الرجولة، وربما كان في وجهه هو في أيام شبابه شيء من الملامح الأنثوية. كان لكليهما أنف مقوس ونفس شكل الحاجبين والابتسامة الجانبية الخفيفة. كانت باميلا طويلة القامة يبلغ طولها ١٧٢ سنتمتراً، أما هو فيبلغ طوله ١٧٨ سنتمتراً.

نظر إلى المرأة التي عرضت عليه المرآة وقال: يوجد تشابه في الوجه بيننا، أليس هذا ما تقصدينه؟ ولكن يا عزيزتي، لا يمكن أن يخدع هذا أيَّ شخص يعرفني أو يعرفك.

- لن يخدعه بالطبع. ألا تفهم؟ لا حاجة لذلك. إنني مسافرة وأنا أرتدي هذا البنطال الفضفاض، وأنت كنت مسافراً وتلفّ حول رأسك قلنسوة عباءتك وتغطي بها وجهك. كل ما عليّ فعله هو أن أقص شعري وأضعه في صحيفة ثم ألقيه في سلة المهملات هنا، ثم أرتدي عباءتك وأشدّ غطاءها على رأسي وأحمل بطاقة صعودك إلى الطائرة والتذكرة وجواز سفرك. وما لم يكن على هذه الطائرة شخص يعرفك جيداً (وأظن أنه لا يوجد من يعرفك وإلا لتكلم معك أصلاً) فإنني أستطيع السفر بأمان متخفّيةً باسمك. أُظهِرُ جواز سفرك عند اللزوم وأبقى مرتديةً العباءة وألف رأسي بغطائها حتى لا يُرى مني سوى أنفي وعينيّ وفمي. وعندما تصل الطائرة إلى وجهتها يمكنني

الخروج بأمان لأن أحداً لن يعلم بأنني سافرت على متنها. سأخرج بأمان ثم أختفي بين جموع سكان لندن.

سألها ستافورد وهو يبتسم: وماذا أفعل أنا؟

- يمكنني أن أقترح عليك شيئاً إن كنتَ تمتلك الجرأة على القيام به.

- اقترحي، أحب دائماً سماع الاقتراحات.

- أنت تنهض من هنا وتذهب بعيداً وتشتري مجلة أو صحيفة أو هدية من محل الهدايا. اترك عباءتك هنا فوق المقعد، وعندما تعود بما اشتريته اجلس في مكان آخر، لنقل في نهاية صف المقاعد الذي يقابلنا. سيكون كأس العصير هذا معك وفيه ما يجعلك تنام، تنام في زاوية هادئة.

- وماذا سيحدث بعدها؟

- يُفترض أن تكون ضحية لعملية سرقة؛ سيكون شخصٌ ما قد أضاف إلى شرابك بضع نقاط منوّمة وستكون محفظتك قد سُرقت منك... شيء من هذا القبيل. ثم تُعرّف نفسك وتدّعي أن جواز سفرك وأشياءك الأخرى قد سُرقت، وسوف تستطيع إثبات شخصيتك بسهولة.

- هل تعرفين من أنا؟ أقصد اسمي؟

- ليس بعد، فأنا لم أرَ جواز سفرك بعد ولا أعرف مَن تكون.

- ومع ذلك تقولين إنني أستطيع إثبات هويتي بسهولة؟

- إنني أجيد الحكم على الناس، أعرف الشخص المهم من غير المهم، وأنت شخص مهم.

- ولماذا أفعل كل هذا؟

- ربما لتنقذ حياة أخت لك في الإنسانية.

- أليست هذه قصة مزوَّقة جداً؟

- آه، نعم؛ ليس من السهل تصديقها. هل تصدّقها؟

نظر إليها متأملاً وقال: هل تعرفين ما تشبهين وأنت تتحدثين هكذا؟ إنك مثل جاسوسة جميلة في رواية مثيرة.

- نعم، ربما، ولكنني لست جميلة.

- كما أنك لست جاسوسة؟

- قد أكون كما تقول. لديّ معلومات معينة، معلومات أريد الحفاظ عليها. عليك أن تصدقني في هذا فهي معلومات قد تكون قيّمة ومهمة لبلدك.

- ألا ترين أنك تتحامقين؟

- نعم، هذا صحيح. لو تمّ تدوين هذا فسيبدو سخيفاً، ولكن الكثير من الأشياء السخيفة تكون صحيحة، أليس كذلك؟

نظر إليها ثانية، كانت تشبه باميلا كثيراً وكان صوتها يشبه صوت باميلا رغم لكنته الأجنبية. إن ما اقترحته عليه سخيف وأحمق ومستحيل تماماً، وقد يكون خطيراً... خطيراً عليه. ولسوء الحظ فإن هذا هو ما جذبه على الرغم من تلك الحقيقة؛ أن تكون لديها تلك

الجرأة بحيث تقترح عليه مثل هذا الشيء! ما الذي سينتج عن ذلك كله؟ من المؤكد أن اكتشاف ذلك سيكون ممتعاً.

- ما الذي سأحصل عليه من ذلك؟ هذا ما أريد معرفته.

نظرت إليه بإمعان ثم قالت: التغيير... والخروج عن رتابة الأحداث اليومية. قد يكون علاجاً لحياة الملل والضجر. ليس لدينا وقت طويل، الأمر يرجع إليك.

- وماذا سيحدث لجواز سفرك؟ هل سيتعيّن علي أن أشتري باروكة شعر إن كانوا يبيعون مثل هذا الشيء هنا؟ هل سيتعين عليّ تقمص شخصية أنثى؟

- لا، ليس المطروح تبادل المواقع بيني وبينك. سوف تتعرض للسرقة والتخدير لكنك ستبقى كما أنت. قرّرْ واحسم أمرك فليس في الوقت متسع؛ الوقت يمر بسرعة، يجب أن أقوم بتغيير شكلي.

قال: لقد فُزت بموافقتي؛ على المرء أن لا يرفض الشيء غير المألوف إذا ما عُرض عليه.

- كنت أرجو أن يكون هذا جوابك، لقد كان الأمر رهاناً من طرفي.

أخرج ستافورد ناي من جيبه جواز سفره ودسّه في جيب عباءته التي كان يلبسها، ثم نهض واقفاً وتثاءب ونظر حوله، ثم نظر إلى ساعته وسار إلى واجهة محل حيث كانت تعرض عدة أشياء للبيع، حتى إنه لم يلتفت إلى الوراء. اشترى كتاباً وقلّبَ بعض الألعاب المصنوعة من الصوف بشكل حيوانات لتكون هدية مناسبة

لطفل، وأخيراً اختار لعبة بشكل الباندا. نظر حوله في القاعة ثم عاد إلى حيث كان جالساً، وكانت العباءة قد اختفت واختفت معها الفتاة وقد بقي على الطاولة كأس العصير الممتلئ حتى نصفه. فكّر في نفسه قائلاً: "إن المجازفة تكمن هنا". رفع الكأس وابتعد قليلاً ثم شربه، لم يشربه بسرعة بل كان متأنياً. وكان طعمه على حاله من قبل، لم يتغيّر.

قال السير ستافورد: "إنها مسألة محيّرة، محيّرة". ثم مشى في القاعة وذهب إلى زاوية بعيدة. كانت تجلس هناك عائلة يعلو لغطها بالضحك والحديث، وجلس بجانبهم وتثاءب ثم ترك رأسه يتكئ إلى الخلف على حافة المقعد. أُعلن عن رحلةٍ مغادرة إلى طهران فنهض عدد كبير من المسافرين وانضمّوا إلى الصف المنتظم أمام البوابة المعلن عنها، وظلت القاعة مليئة إلى نصفها. فتح كتابه الذي اشتراه، ثم تثاءب ثانية. كان يشعر بالنعاس الحقيقي الآن، نعم، كان يشعر بالنعاس كثيراً... وفكّر في مكان مناسب يذهب إليه لينام فيه، مكان يستطيع أن يبقى...

أعلنت شركة خطوط ترانس يوروبيان عن مغادرة طائرتها في الرحلة رقم ٣٠٩ إلى لندن. نهض عدد كبير من المسافرين استجابة للنداء، كما دخل قاعة الترانزيت في هذا الوقت مزيد من المسافرين لينتظروا طائرات أخرى. ثم تبع ذلك إعلانات في الإذاعة الداخلية عن وجود ضباب في جنيف وعن عدم تمكن عدد من الطائرات من الإقلاع إلى هناك. سار رجل نحيل متوسط الطول يرتدي عباءة كحلية اللون ذات بطانة حمراء ظاهرة وقد وضع غطاء الرأس على رأسه الحليق الذي لا يختلف في فوضويته عن رؤوس كثير من

شباب هذه الأيام، وأخذ مكانه في الصف استعداداً لدخول الطائرة. وبعد أن أظهر بطاقة الصعود إلى الطائرة عبر من البوابة رقم ٩.

تبع ذلك مزيد من النداءات: الطيران السويسري، رحلة إلى زيوريخ، الطيران البريطاني إلى أثينا وقبرص... ثم سُمع نداء من نوع مختلف: يُرجى من الآنسة دافني ثيودوفانوس المسافرة إلى جنيف الحضور إلى مكتب الاستعلامات. لقد تأخرت الطائرة المتجهة إلى جنيف بسبب الضباب، وسيسافر الركاب عن طريق أثينا. الطائرة الآن مستعدة للإقلاع.

ثم تلت ذلك نداءات أخرى تنادي ركاباً إلى اليابان ومصر وجنوب إفريقيا وخطوط جوية أخرى تجوب المعمورة. طُلب من السيد سيدني كوك المسافر إلى جنوب إفريقيا سرعة الحضور إلى مكتب الاستعلامات حيث توجد رسالة له، ثم تمت مناداة دافني ثيودوفانوس ثانية. ذلك كان آخر نداء قبل مغادرة الرحلة رقم ٣٠٩.

وفي إحدى زوايا القاعة كانت فتاة صغيرة تنظر إلى رجل يرتدي بدلة داكنة ويغط في نوم عميق ورأسه مستند على المقعد الأحمر وفي يده دمية صوفية لحيوان الباندا. مدّت الفتاة الصغيرة يدها نحو الباندا فقالت أمها: لا تلمسي هذه يا جوان؛ الرجل المسكين نائم.

- إلى أين هو ذاهب؟

قالت أمها: ربما يريد السفر إلى أستراليا مثلنا.

- هل لديه ابنة صغيرة مثلي؟

- أظن ذلك.

تنهدت الفتاة الصغيرة ونظرت إلى الباندا ثانية. واصل السير ستافورد ناي نومه؛ كان يحلم بأنه يحاول صيد نمر... حيوان خطير جداً. كان يقول لمرشد رحلة الصيد الذي كان يرافقه: سمعت دائماً أنه حيوان خطير جداً، لا يمكنك أن تثق بالنمر.

تحول الحلم في تلك اللحظة (كما هي العادة في الأحلام) إلى شيء آخر حيث كان يتناول الشاي مع عمته ماتيلدا ويحاول جاهداً إسماعها؛ لقد أصبحت صمّاء أكثر من أي وقت مضى! ولم يسمع أياً من النداءات ما عدا النداء الأول للآنسة دافني ثيودوفانوس.

قالت والدة الفتاة الصغيرة: إنني أحتار دائماً كيف يضيع أحد الركاب. عندما يسافر المرء في الطائرة تسمع عن فقدان مسافر كل مرة تقريباً، شخص لا يستطيعون العثور عليه، شخص لم يسمع النداء أو غير موجود في الطائرة، أو شيء كهذا. إنني أتساءل دائماً مَن يكون هذا الراكب وماذا يفعل ولماذا لا يأتي ويجيب النداء. أظن أن الآنسة هذه التي لا أدري ما اسمها ستتخلف عن طائرتها، ماذا سيفعلون معها بعد ذلك؟

لم يستطع أحد الإجابة عن سؤالها، لأن أحداً لم يكن يمتلك المعلومات الصحيحة.

* * *

الفصل الثاني
لندن

كانت شقة السير ستافورد ناي مريحة جداً وتطل على حديقة غرين بارك. شغّلَ آلة صنع القهوة ثم ذهب ليرى ما أحضره له البريد في ذلك الصباح، وبدا أنه لم يحضر له شيئاً يثير الاهتمام. فرز الرسائل، وجد فاتورة أو اثنتين ورسائل عليها أختام بريدية لا تثير الاهتمام، فكوّمها بعضها فوق بعض ثم وضعها على الطاولة حيث كانت توجد أصلاً بعض الرسائل الأخرى التي تجمعت خلال اليومين الماضيين. ورأى أنه سيضطر إلى الانخراط في عمله سريعاً، فسكرتيرته ستأتي بعد ظهر ذلك اليوم.

عاد إلى المطبخ وصبّ القهوة في فنجان جاء به إلى الطاولة، ثم التقط بضع رسائل كان قد فتحها عند وصوله في وقت متأخر من الليلة الماضية. انتقى واحدة منها وابتسم قليلاً وهو يقرأها. قال: الحادية عشرة والنصف... وقت مناسبٌ جداً. لا أدري الآن، أظن أن من الأفضل أن أطيل التفكير في الأمور وأستعدّ للقاء تشيتويند.

دفع شخصٌ بشيء داخل صندوق الرسائل، فخرج إلى الصالة

وأخذ جريدة الصباح. كان في الصحيفة القليل من الأخبار: أزمة سياسية ومقالة عن خبر أجنبي كان من شأنه أن يكون مُقلقاً ولكنه لم يكن يعتقد ذلك، كان مجرد محاولة من صحفي للتنفيس عن عُقده لجعل الأمور تبدو أكثر أهمية مما هي عليه حقيقة... لا بد أن يقدّموا للقارئ شيئاً يقرأه. خنق فتاة في الحديقة... ما أكثر ما يتم خنق الفتيات، وبمعدل فتاة واحدة يومياً! لم تخطف أي طفلة أو تغتصب هذا الصباح؛ يا لها من مفاجأة جميلة!

حضّر لنفسه قطعة من الخبز المحمَّص وشرب قهوته، وبعد ذلك خرج من شقته ونزل إلى الشارع ومشى في الحديقة باتجاه وايتهول. كان يمشي وهو يبتسم، وشعر أن الحياة جميلة هذا الصباح. ثم بدأ يفكر في أمر تشيتويند، كان تشيتويند غبياً أحمق ليس له مثيل، ذا مظهر جيد كاذب يشي بالأهمية وعقل متشكك عجيب. سوف يستمتع بالحديث مع تشيتويند.

مشى متمهلاً ليصل إلى وايتهول متأخراً سبع دقائق، وكان ذلك التأخير -كما ظن- بسبب كونه شخصية مهمة مقارنة مع تشيتويند. دخل الغرفة، وكان تشيتويند جالساً وراء مكتبه المغطى بالكثير من الأوراق ومعه السكرتيرة. بدا رجلاً ذا شأن فعلاً كما هي عادته عندما ينجح في هذا العمل.

قال تشيتويند والابتسامة تغطي وجهه الوسيم إلى حد يثير الإعجاب: مرحباً ناي، أأنت سعيد بعودتك؟ كيف كانت الملايو؟

قال ستافورد ناي: حارّة.

- نعم، أظن أنها حارة دائماً. أحسبك تقصد أنها حارة مناخياً وليس سياسياً؟

- آه، أقصد المناخ فقط.

- وهل حصلت على أي نتائج تُذكَر؟

- ليس الكثير، لا يمكنك أن تسميها نتائج. لقد أرسلت تقريري وفيه الكثير من الثرثرة كالعادة. كيف حال لازنباي؟

قال تشيتويند: آه، مزعج كعادته، لن يتغير أبداً.

- نعم، سيكون تبدّله أمراً بعيد المنال. لم تسبق لي الخدمة في أية مهمة مع باسكوم، بوسعه أن يكون مسلياً تماماً عندما يعجبه ذلك.

- حقاً؟ إنني لا أعرفه جيداً. نعم، أظن أنه يستطيع ذلك.

- حسناً، حسناً، أظن أنه لا توجد أية أخبار أخرى؟

- نعم، لا شيء ممّا يمكن أن يثير اهتمامك.

- أنت لم تذكر في رسالتك لماذا أردت رؤيتي.

- آه، لمراجعه بعض الأمور فقط، هذا كل ما في الأمر. أردت أن أعرف إن كنت قد أحضرت معك أية معلومات خاصة، أية معلومات يجب أن نكون مستعدين لها... من أجل أسئلة البرلمان وأية أشياء مشابهة.

- نعم، بالطبع.

- هل عدت بالطائرة؟ فهمت أنك واجهت بعض المتاعب.

تصنّعَ ستافورد ناي المظهر الذي خطط مسبقاً لتصنعه، مظهراً يشوبه شيء من الحزن مع مسحة من الضيق والانزعاج. قال: آه، إذن فقد سمعت بالأمر، أليس كذلك؟ أمر سخيف.

- نعم، نعم، لا بد أنه كان كذلك.

قال ستافورد ناي: غريب كيف تصل الأمور دائماً إلى الصحافة؛ وجدت في صفحة آخر الأنباء في صحيفة الصباح فقرة كاملة حول هذا الأمر!

- أحسبك كنت تتمنى عدم نشر الموضوع؟

- إنه يظهرني رجلاً مغفلاً، أليس كذلك؟ يجب أن أعترف بهذا، وفي مثل سنّي أيضاً!

- ما الذي حدث بالضبط؟ لقد تساءلتُ إن كان في خبر الصحيفة مبالغة.

- أظن أنهم اخترعوا معظمه، هذا كل ما في الأمر. أنت تعرف هذه الرحلات... إنها مملة جداً. كان هناك ضباب في جنيف فغيرّوا اتجاه الطائرة، ثم تأخرت الطائرة ساعتين في مطار فرانكفورت.

- وهل جرى لك الحادث هناك؟

- نعم، إن المرء يقتله الملل في هذه المطارات. طائراتٌ تأتي وطائراتٌ تغادر، والإذاعة الداخلية لا تكف عن إعلاناتها: الرحلة رقم ٣٠٢ المتجهة إلى هونغ كونغ، والرحلة رقم ١٠٩ المتجهة إلى

إيرلندا، وهكذا دواليك... أناس ينهضون وأناس يغادرون وأنت جالس هناك تتثاءب.

- ما الذي حدث بالضبط؟

- اشتريت كأساً من العصير فشربت منه قليلاً ثم وضعته أمامي، ثم فكرت بشراء شيء لأقرأه (إذ كنت قد قرأت كل ما معي)، فذهبت إلى المتجر واشتريت كتاباً رخيصاً، أظن أنها كانت رواية بوليسية، واشتريت لعبة بشكل حيوان من الصوف لواحدة من بنات أخي. ثم عدت فأكملت شرب الكأس وفتحت الكتاب، وبعد ذلك ذهبت في نوم عميق.

- نعم، فهمت... ذهبت في نوم عميق.

- إنه أمر طبيعي جداً، أليس كذلك؟ أظن أنهم أعلنوا عن رحلتي ولكنني لم أسمع النداء، وواضح أنني لم أسمعه لأسباب وجيهة. إنني قادر على النوم في أي مطار وفي أي وقت لكنني قادر أيضاً على سماع نداء يخصني، ولكنني لم أسمعه هذه المرة. وعندما استيقظت... أو استعدت وعيي (سمّها كما تشاء) كان بجانبي طبيب يقوم على صحتي. كان واضحاً أن شخصاً ما قد وضع لي في الكأس شيئاً منوّماً، ولا بد أنه وضعه عندما ذهبت لشراء الكتاب.

- غريب أن يحدث مثل هذا الأمر، أليس كذلك؟

- إنه لم يحدث لي من قبل أبداً، وأرجو أن لا يحدث ثانية. إنه يجعلك تشعر كما لو أنك أحمق مغفل، بالإضافة إلى الشعور بالدُّوَار والغثيان. وعلى أية حال لم يحدث لي أي ضرر واضح.

لقد سُرقت محفظتي وفيها بعض النقود وجواز سفري... كان عملاً محرجاً بالطبع، ولحسن الحظ لم أكن أحمل معي نقوداً كثيرة، أما الشيكات السياحية التي كنت أحملها فكانت في أحد جيوبي الداخلية. ثمة روتين حكومي يجب إجراؤه دائماً في حالة فقدان جواز السفر، ولكنني كنت أحمل معي رسائل وغيرها ولم يكن إثبات شخصيتي بالأمر الصعب، وقد تم تسوية الأمور في الوقت المناسب وتابعت رحلتي.

قال تشيتويند بنبرة فيها استياء: ولكن لا بد أن الأمر أزعجك كثيراً... أعني بالنسبة لرجل في منزلتك.

- نعم؛ إنها مسألة لا تظهرني بمظهر حسن... أليس كذلك؟ أقصد أنها لن تعطي الصورة اللامعة التي ينبغي أن يكون عليها من هم... من هم في مثل منزلتي.

- هل عرفت إن كان هذا يحدث كثيراً؟

- لا أظن أنها مسألة تحدث كثيراً، رغم أنها قد تحدث. أعتقد أن أي شخص محترف للنشل يلحظ رجلاً نائماً يستطيع إدخال يده في جيب هذا النائم، وإذا كان ضليعاً في مهنته هذه فيستطيع نشل المحفظة مؤمّلاً الحصول على شيء من الحظ.

- عملٌ محرجٌ جداً أن يفقد المرء جواز سفره.

- نعم، عليّ التقدم بطلب للحصول على جواز سفر جديد الآن، وأحسب أن ذلك يقتضي الكثير من الشرح والتوضيح. لقد كان الأمر كله عملاً سخيفاً محرجاً كما قلت. ودعنا نواجه الحقيقة

يا تشيتويند، إنه لا يظهرني بمظهر جيد، أليس كذلك؟

- آه، إنها ليست غلطتك يا صديقي، ليست غلطتك. يمكن أن يحدث هذا لأي شخص، أي شخص على الإطلاق.

قال ستافورد ناي وهو يبتسم لصديقه موافقاً: جميل منك أن تقول مثل هذا الكلام، سيعلّمني ذلك درساً قاسياً.

- ألا تعتقد أن هناك شخصاً كان يريد جواز سفرك أنت تحديداً؟

- لا أظن ذلك، ولماذا يريده؟ إلاّ إذا كان شخصاً يريد إزعاجي (وهذا أمر بعيد الاحتمال) أو شخصاً أُعجب بصورتي في جواز السفر... وهذا ما يبدو أبعدَ احتمالاً!

- هل رأيت أي شخص كنت تعرفه في ذلك الـ... أين كنت... فرانكفورت؟

- لا، لم أرَ أي إنسان مألوف أبداً.

- ألم تتحدث إلى أحد؟

- ليس على وجه الخصوص. قلت عبارة ما لامرأة بدينة لطيفة كانت معها طفلة صغيرة تحاول تسليتها، أظن أنها من ويغن وكانت ذاهبة إلى أستراليا. لا أتذكر أنني تحدثت مع غيرها.

- هل أنت متأكد؟

- كانت هناك امرأة تريد أن تعرف ماذا تفعل إن أرادت دراسة

علم الآثار في مصر، وقلت لها إنني لا أعرف أي شيء عن ذلك وقلت لها إن من الأفضل لها أن تذهب وتسأل المتحف البريطاني... كما تحدثت قليلاً مع رجل أعتقد أنه كان من المعارضين لإجراء التجارب على الحيوانات وكان متحمساً جداً لهذا الأمر.

- يشعر المرء دائماً أنه قد يوجد شيء ما وراء أشياء كهذه.

- أشياء مثل ماذا؟

- حسناً، أشياء كالتي حدثت لك.

- لا أرى ما يمكن أن يكون وراء ذلك. أظن أن بوسع الصحفيين تلفيق قصة ما... إنهم أذكياء جداً في هذه الأمور. ومع ذلك يبقى الأمر عملاً سخيفاً. لننسَ هذا الأمر، أرجوك. أظن أنه نُشر في الصحف الآن ولذلك فإن كل أصدقائي سوف يسألونني عنه. كيف حال العجوز ليلاند وماذا يفعل هذه الأيام؟ لقد سمعت عنه بعض الأشياء عندما كنت في الخارج هناك. إن ليلاند يتحدث كثيراً دائماً.

تحدث الرجلان معاً ودياً لعشر دقائق أو نحو ذلك، ثم نهض السير ستافورد وخرج قائلاً: لديّ الكثير مما ينبغي القيام به هذا الصباح... أريد شراء هدايا لأقاربي، فمشكلة المرء إذا سافر إلى الملايو أن كل أقاربه يتوقعون منه إحضار هدايا غريبة لهم. أظن أنني سأذهب إلى محل ليبرتي فلديه الكثير من البضائع الشرقية.

* * *

خرج السير ستافورد مبتهجاً وأومأ برأسه لرجلين كان يعرفهما

شاهدهما في الممر خارج مكتب تشيتويند، وبعد أن ذهب تكلم تشيتويند مع سكرتيرته بالهاتف قائلاً: اطلبي من الكولونيل مونرو أن يأتي إليّ إن أمكن.

دخل الكولونيل مونرو ومعه رجل آخر طويل القامة متوسط العمر، وقال: لا أعرف إن كنت تعرف هورشام، إنه من الأمن.

قال تشيتويند: أظن أنني قابلتك.

قال الكولونيل مونرو: لقد خرج ناي من عندك قبل قليل. هل ثمة شيء في قضية فرانكفورت هذه؟ أقصد أي شيء كان يجب أن ننتبه له ونلاحظه؟

قال تشيتويند: لا يبدو كذلك؛ إنه منزعج بعض الشيء مما حدث ويظن أنه يجعله يبدو كالأحمق المغفل... وهو محق في ذلك طبعاً.

أومأ الرجل الذي يُدعى هورشام برأسه وقال: هل يفهم الأمر هكذا؟

- لقد حاول التخفيف من وقع الموضوع عليه.

قال هورشام: لكنه ليس رجلاً أحمق أو مغفلاً في الحقيقة، أليس كذلك؟

هزّ تشيتويند كتفيه وقال: مثل هذه الأمور تحدث في العادة.

قال الكولونيل مونرو: أعرف، نعم، أعرف. ومع ذلك فقد أحسست دوماً بأن أحداً لا يمكنه التنبؤ بتصرفاته، وأنه قد لا يكون قويماً في أفكاره بشكل أو بآخر.

تكلم الرجل الذي يدعى هورشام وقال: لا شيء ضده، لا يوجد شيء ضده حسب علمنا.

قال تشيتويند: آه، لم أقصد أن هناك شيئاً ضده، لم أقصد هذا أبداً. كل ما في الأمر أنه... لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك، أنه ليس جاداً دوماً تجاه الأمور.

كان للسيد هورشام شارب، فقد وجد من المفيد إطلاق شاربه لأن من شأن الشارب أن يخفي الابتسامة في اللحظات التي لا يكون فيها مفرٌّ من الابتسام.

قال مونرو: إنه ليس بالغبي، إنه ذكي كما نعرف. لا أظنك ترى... لا أظنك ترى في هذا الأمر ما يريب؟

- من جانبه؟ لا يبدو ذلك.

- هل حققتم بالموضوع يا هورشام؟

- حسناً، لم يتسنَّ لنا كثير من الوقت بعد. الأمر عادي حسبما يبدو، لكن جواز سفره استُخدم بواسطة شخص آخر.

- استُخدم؟ كيف؟

- لقد دخل الجواز مطار هيثرو.

- أتقصد أن شخصاً انتحل شخصية السير ستافورد ناي؟

قال هورشام: لا، لا، ليس هكذا تماماً... لقد دخل الجواز مع جوازات سفر أخرى، ولم نكن قد تلقينا بلاغاً بعد لأنه لم يكن

قد استيقظ من النوم في ذلك الوقت بسبب المخدر الذي وُضع له؛ كان لا يزال في مطار فرانكفورت.

- ولكن شخصاً سرق ذلك الجواز وجاء على الطائرة ودخل إنكلترا.

قال مونرو: نعم، هذا هو الافتراض. إما أن شخصاً ما قد أخذ المحفظة فوجد فيها نقوداً وجواز سفر أو أن شخصاً ما كان يريد جواز سفر واستقرّ رأيه على أن السير ستافورد ناي هو الشخص المناسب ليأخذه منه. كان كأس الشراب في انتظاره على الطاولة ووُضع فيه المخدر، وانتظر ذلك الشخص حتى غطّ ناي في نوم عميق ثم أخذ منه جواز السفر وخاطر باستخدامه.

قال تشيتويند: لكنهم ينظرون إلى الصورة في جواز السفر، ولا بد أنهم سيعرفون أنه ليس صاحب الجواز.

قال هورشام: لا بد من وجود تشابه معين بالتأكيد. أعداد ضخمة من المسافرين تصل دوماً... رجل يبدو شبيهاً بالصورة في جواز سفره بدرجة معقولة، هذا كل ما في الأمر. نظرة سريعة ويُعاد إليه جوازه ويمر. وعلى أية حال فإنهم في العادة يبحثون ويتفحصون الأجانب الذين يدخلون وليس البريطانيين.

- نعم، ومع ذلك فيمكن القول إنه لو أراد شخصٌ نشلَ محفظة فقط أو نقود فإنه لن يستخدم جواز السفر لأن في ذلك مخاطرة كبيرة.

قال هورشام: نعم، نعم، هذا هو المثير في العمل. إننا نقوم بالتحقيق بالطبع ونوجه بعض الأسئلة هنا وهناك.

- وما هو رأيك الشخصي؟

قال هورشام: لا أريد إطلاق رأي الآن. يحتاج الأمر إلى بعض الوقت ولا أريد الاستعجال في الأمور.

قال الكولونيل مونرو عندما غادر هورشام الغرفة: كلهم سواء؛ لا يخبرك رجال الأمن الشياطين بأي شيء. وحتى عندما يعتقدون أنهم قد وجدوا أثراً يتعقبونه فإنهم لا يعترفون بذلك.

قال تشيتويند: هذا أمر طبيعي لأنهم ربما كانوا مخطئين.

بدت وجهة نظر سياسية نموذجية. وقال مونرو: هورشام رجل جيد، إنهم يحترمونه كثيراً في القيادة ومن غير المحتمل أن يكون مخطئاً.

* * *

الفصل الثالث
عامل المكوى

عاد السير ستافورد ناي إلى شقته، وأطلت امرأة ضخمة الجسم من المطبخ الصغير وهي تلقي عبارات الترحيب: أراك قد عدت بخير يا سيدي؟ يا لتلك الطائرات السيئة! لا أحد يعلم أمرها، أليس كذلك؟

قال السير ستافورد ناي: صحيح تماماً يا سيدة ووريت، لقد تأخرت الطائرة ساعتين.

- أمرها كالسيارات... أقصد أنك لا تعرف متى يصيبها العطل، إلاّ أن الأكثر إزعاجاً وخطورة هو كونها في السماء عالياً، أليس كذلك؟ لا يمكنك أن توقفها على جانب الطريق كما يحدث مع السيارات. أنا -شخصياً- ما كنت لأستقل طائرة أبداً.

ثم أكملت تقول: لقد طلبت بعض الأغراض، أرجو أن يكون هذا كافياً: بيض وزبدة وقهوة وشاي...

أطلقت الكلمات من فمها كأنها مرشدة سياحية تعرض للسيّاح

قصر فرعون، ثم قالت بعد أن سكتت لأخذ نفس: أظن أن هذا كل ما تريده... كما طلبت الخردل الفرنسي.

- أرجو أن لا يكون من نوع ديجون، دائماً يحاولون إعطاءك ديجون.

- لا أعرف ما نوعه ولكنه الذي تحبه... وهو إيستر دراغون، أليس كذلك؟

- صحيح، إنك رائعة.

بدت السيدة ووريت مسرورة، ثم عادت إلى المطبخ ثانية بينما كان السير ستافورد ناي يضع يده على مقبض باب غرفة نومه ليدخل الغرفة.

- أظن أنه لا بأس بما قمتُ به إذ أعطيت ملابسك للرجل الذي جاء لأخذها، أليس كذلك؟ فأنت لم تترك أية تعليمات بهذا الشأن.

قال السير ستافورد ناي وقد وقف عند الباب: أية ملابس؟

- بدلتان من بدلاتك... هكذا قال عامل المكوى الذي جاء لأخذهما. كان من مكوى تويس وبونوورك وأعتقد أنه نفس المحل الذي اعتمدناه من قبل، فقد اختلفنا مع مكوى وايت سوان إن كانت ذاكرتي تسعفني.

- بدلتان؟ أي بدلتين؟

- البدلة التي عدت بها من السفر يا سيدي... استنتجت أنها

واحدة منهما، ولم أكن متأكدة كثيراً من الأخرى ولكن كانت هناك البدلة الزرقاء المقلّمة التي لم تترك أية تعليمات بشأنها قبل سفرك، كانت بحاجة إلى تنظيف كما كان فيها رتق صغير ينبغي إصلاحه في طرف الكم الأيمن، لكني لم أرغب في عملها على مسؤوليتي وأنت في الخارج، لا أحب عمل ذلك.

- إذن فقد أخذ ذلك الرجل هاتين البدلتين معه؟

شعرت السيدة ووريت بالقلق وقالت: أرجو أن لا أكون قد أسأت التصرف يا سيدي؟

- لا تهمني البدلة الزرقاء المقلمة، بل أعتقد أن ذلك أفضل. لكن البدلة التي عدت فيها من السفر، حسناً...

- إن تلك البدلة رقيقة جداً بالنسبة لهذا الوقت من العام يا سيدي، إنها تصلح للبلاد الحارة التي كنت فيها، كما أنها بحاجة إلى تنظيف. وقد قال الشاب إنك اتصلت بهم بخصوصها، هذا ما قاله الرجل الذي جاء لأخذهما.

- هل دخل غرفتي وأخذهما بنفسه؟

- نعم يا سيدي، لقد رأيت أن ذلك العمل هو الأفضل.

- مثيرٌ جداً. نعم، إنه مثير جداً.

دخل إلى غرفة نومه وأجال نظره فيها. كانت نظيفة مرتبة، وكان السرير مرتباً وبدا واضحاً أثر ما عملته السيدة ووريت فيها، وكانت آلة الحلاقة الكهربائية مشحونة والأغراض التي على طاولة الزينة مرتبة ترتيباً جيداً.

ثم ذهب إلى خزانة الجدار ونظر بداخلها، نظر في أدراج خزانة الملابس القريبة من النافذة، كان كل شيء مرتباً ترتيباً جيداً، والواقع أنها كانت مرتبة أكثر من العادة. كان قد أفرغ بعض محتويات حقيبة سفره في الليلة الماضية وكان عملاً سريعاً متعجلاً، لقد ألقى بملابسه الداخلية وأشياء أخرى مختلفة في الدرج المناسب لكنه لم يرتبها في داخله هذا الترتيب، كان سيفعل هذا بنفسه اليوم أو غداً ولم يكن يتوقع أن تقوم السيدة ووريت بهذا العمل نيابة عنه. كان يتوقع منها أن تبقي الأشياء على الحالة التي تجدها عليها وعند عودته من سفره يمكن أن يكون هناك وقت لإعادة ترتيب الأغراض وترتيبها حسب الطقس وأمور أخرى. إذن فقد جاء شخص وفتّش هنا؟ شخصٌ أخرجَ الأدراج وفتشها بسرعة وعجلة وأعاد الأغراض إلى أماكنها، وربما بسبب هذه العجلة أعادها مرتبة أكثر من اللازم. عمل سريع وحريص، ثم خرج ومعه بدلتان مع تفسير مقبول لا يثير الارتياب... بدلة كان واضحاً أن السير ستافورد يلبسها عندما يسافر وبدلة أخرى رقيقة. ربما بدا لذلك الشخص أن السير ناي أخذها معه في سفره وأعادها إلى البيت معه. إذن لماذا؟

قال السير ستافورد وهو يحدّث نفسه متأملاً: لأن شخصاً ما كان يبحث عن شيء ما. ولكن ما هو؟ ومَن هو؟ وربما أيضاً لماذا؟ نعم، أمر مثير للغرابة.

جلس على كرسي وبدأ يفكر في الأمر، ثم وقعت عيناه على الفور على الطاولة القريبة من السرير حيث كان عليها حيوان باندا صوفي صغير، وقد أطلق ذلك العنان لسلسلة من الأفكار.

ذهب صوب الهاتف وطلب رقماً، قال: أهذا أنت يا عمتي ماتيلدا؟ معك ستافورد.

- آه، إذن فقد عدت يا ولدي العزيز؟ أنا سعيدة جداً، فقد قرأت في الصحف بالأمس عن انتشار الكوليرا في الملايو، أو هذا ما أظنه على الأقل، فأنا أخلط كثيراً في أسماء هذه البلاد. أرجو أن تكون عازماً على زيارتي قريباً؟ لا تتظاهر بالانشغال، لا يمكن أن تكون مشغولاً طول الوقت. إنني لا أتقبل مثل هذه الأعذار إلاّ من أحد ملوك الأموال أو رجال الصناعة وهم في حمأة اندماج الشركات وانتقال ملكيتها. لا أعرف ما يعنيه حقاً كل ذلك... لقد كان ذلك يعني أن تقوم بعملك على أحسن وجه، ولكنه يعني الآن ارتباط كل شيء بالقنابل النووية والمصانع الإسمنتية. وما بالك بأجهزة الكمبيوتر الفظيعة تلك التي تخطئ في أرقام المرء وحساباته؟ لقد جعلت حياتنا صعبة حقاً في هذه الأيام. لن تصدق الأخطاء التي ارتكبها الكمبيوتر في حسابي المصرفي، وفي عنواني البريدي أيضاً! حسناً، أظن أن حياتي طالت كثيراً.

- لا تصدقي ذلك. أيناسبك أن آتيك في الأسبوع القادم؟

- تعال غداً إن شئت. سيأتي الكاهن لتناول العشاء معي ولكن من السهل تأجيله.

- آه، لا حاجة لهذا العمل.

- بل كل الحاجة، إنه رجل يثير الحنق كما أنه يريد شراء جهاز أورغن جديد للكنيسة. الأورغن الحالي جيد ولا بأس به، أعني أن المشكلة في العازف وليست في الأورغن نفسه، فهو موسيقي رديء

جداً. إن الكاهن يرثي لحاله لأنه فقد أمه التي كان يحبها كثيراً، ولكن حبك لأمك لا يجعلك تعزف على الأورغن بطريقة أفضل... أقصد أن علينا أن ننظر إلى الأمور كما هي عليه.

- صحيح. سيكون موعدنا في الأسبوع القادم، فلديّ بعض الأمور التي ينبغي متابعتها. كيف حال سيبيل؟

- إنها رائعة. مشاكسة جداً ولكنها مسلية.

- لقد اشتريت لها باندا من الصوف.

- هذا من لطفك يا عزيزي.

قال السير ستافورد وهو ينظر إلى عين الباندا ويشعر بشيء من العصبية: أرجو أن يعجبها.

قالت العمة ماتيلدا ما بدا جواباً مثيراً لشيء من الريبة لم يعجب السير ستافورد كثيراً: إنها مهذبة على أية حال.

اقترحت عليه العمة ماتيلدا القطارات التي يمكن له أن يستقلها في الأسبوع القادم مع تحذيره بأنها غالباً ما تلغي رحلاتها أو تغيّر خططها، وطلبت منه أن يحضر لها جبنة كاميمبارت ونصف قطعة من جبنة ستلتون قائلة: من المستحيل الحصول على أي شيء هنا في الوقت الحالي؛ إن البقّال الذي عندنا (وهو رجل لطيف وصاحب ذوق رفيع فيما نريد ونحب) قد حوّل بقالته إلى سوبرماركت فجأة، حيث زاد حجم المحل ست مرات عمّا كان عليه وأعاد بناءه كله وأحضر السلال والعربات لنضع عليها المشتريات ونجرها معنا ونملأها بأشياء لا نريدها، كما أن الأمهات يفقدن أطفالهن دائماً

ويبدأن بالصراخ والعصبية... أمر مزعج ومتعب. حسناً، سأكون في انتظارك يا عزيزي.

ثم وضعت السماعة، فرنّ هاتفه مرة أخرى على الفور.

- مرحباً، ستافورد؟ معك إيريك بو. سمعت أنك عدت من الملايو، ما رأيك في أن نتناول العشاء معاً الليلة؟

- أحب ذلك كثيراً.

- حسناً، موعدنا نادي ليمبيتس في الثامنة والربع.

* * *

دخلت السيدة ووريت الغرفة بينما كان السير ستافورد يضع السماعة. قالت: جاء سيد يريد رؤيتك يا سيدي. إنه في الطابق السفلي، وقد قال إنه واثق من أنك لن تمانع.

- ما اسمه؟

- هورشام يا سيدي، كاسم القرية الواقعة على طريق برايتون.

دُهش السير ستافورد ناي قليلاً وقال: هورشام؟!

خرج من غرفته ونزل حتى وصل نصف الدرج المؤدي إلى غرفة الجلوس الكبيرة في الطابق الأسفل. لم تخطئ السيدة ووريت؛ فقد كان الرجل هو هورشام، وبدا كما كان قبل نصف ساعة: وطيد العزم، موثوقاً، بذقن مشقوق وخدين ضاربين إلى الحمرة وشارب رمادي كثّ ومظهر عام يوحي برباطة الجأش.

قال وهو يقف على قدميه: أرجو أن لا يكون عندك مانع؟

قال السير ستافورد ناي: مانع في ماذا؟

- في أن تراني مرة أخرى بهذه السرعة. لقد تقابلنا في الممر خارج غرفة السيد غوردن تشيتويند... إن كنت تذكر؟

- ليس عندي أي مانع أبداً؛ تفضل اجلس. أهو شيء نسيناه، أو شيء لم نقله؟

قال هورشام: السيد تشيتويند رجل لطيف جداً، وأظن أننا هدّأناه هو والكولونيل مونرو. إنهما منزعجان قليلاً بخصوص ما حدث، أقصد ما حدث لك.

جلس السير ستافورد ناي ونظر إلى هنري هورشام متأملاً، وما لبث هورشام أن قال: لقد تساءلت إن كان بإمكاني سؤالك -دون تطفل- إلى أين ستذهب من هنا.

قال السير ستافورد ناي: يسرني أن أخبرك بذلك؛ سوف أذهب للإقامة عند عمة لي هي الليدي ماتيلدا كليكهيتون، وسأعطيك العنوان إن شئت.

قال هنري هورشام: أعرفه، وأظن أنها فكرة جيدة. ستكون سعيدة برؤيتك وقد عدت إلى بلدك سالماً. لقد كان بإمكان هذا الحادث أن يسبّب خطورة، أليس كذلك؟

- أهذا ما يعتقده الكولونيل مونرو والسيد تشيتويند؟

قال هورشام: أنت تعرف الأمور يا سيدي، تعرفها جيداً. إن

المسؤولين في تلك الدائرة عادة ما يكونون في حالة مزاجية متوترة، وهم غير متأكدين إن كانوا يثقون بك أم لا.

قال السير ستافورد ناي بنبرة مَن جُرحت مشاعره: يثقون بي؟ ما الذي تقصده بهذا يا سيد هورشام؟

لم يفاجَأ هورشام، بل ابتسم وقال: أنت تعلم أنك معروف بعدم أخذك الأمور على محمل الجد.

- آه، لقد حسبتك تعني أنني شيوعي سري أو منشقّ يتعامل مع الطرف الآخر... أو شيئاً من هذا القبيل.

- لم أقصد هذا يا سيدي. إنهم فقط لا يعتبرونك جاداً، يعتقدون أنك تحب المزاح من وقت لآخر.

قال السير ستافورد ناي باستياء: لا يمكن للمرء أن يظل طول حياته آخذاً نفسه والآخرين على محمل الجد.

- نعم، لكنك عرّضت نفسك لمجازفة كبرى كما قلتُ من قبل، أليس كذلك؟

- لا أدري إن كنتُ أفهم شيئاً مما تتحدث عنه.

- سأخبرك. أحياناً تسير الأمور بعكس ما تريد، وهي لا تأتي معكوسة دائماً لأن الناس هم الذين عكسوها.

شعر السير ستافورد ناي بشيء من الحيرة وقال: هل تتحدث عن الضباب في جنيف؟

- بالضبط يا سيدي. كان في جنيف ضباب مما أفسد خطط الناس، وكان هناك شخص في مأزق صعب.

قال السير ستافورد ناي: أخبرني كل شيء عن الأمر، أريد أن أعرف حقاً.

- لا بأس، لقد افتُقدت مسافرة عندما أقلعَت طائرتك تلك من مطار فرانكفورت بالأمس. كنتَ قد تناولت شرابك وكنت جالساً عند إحدى الزوايا تشخر مرتاحاً بمفردك، وكانت هناك مسافرة واحدة لم تصعد الطائرة ونادوها مرة ثم أخرى، وفي النهاية غادرت الطائرة من غيرها، أو هكذا نفترض.

- آه، وماذا حدث لها؟

- سيكون مثيراً أن نعرف. على أية حال لقد وصل جواز سفرك إلى مطار هيثرو دون أن تصل أنت.

- وأين هو الآن؟ أكان يُفترض بي أن أحصل عليه؟

- لا، لا أظن؛ فمن شأن ذلك أن يصنع إسراعاً مبالَغاً فيه. إن ذلك المخدر من مادة جيدة ومأمونة، وكانت جريمة مناسبة تماماً إذا صح التعبير. لقد نوّمتك دون أن يكون لها تأثيرات سيئة عليك.

- لقد سببت لي دُواراً وغثياناً كريهاً.

- آه، لا يمكنك تجنب ذلك في مثل تلك الظروف.

- حسناً، طالما أنك تبدو عارفاً بكل شيء: ما الذي كان سيحدث لو أنني رفضت قبول العرض الذي ربما عُرض عليّ، ولن أقول إلا «ربما»...

- كان من الممكن جداً أن تكون في ذلك نهاية ماري آن.

- ماري آن؟ ومن تكون ماري آن هذه؟

- الآنسة دافني ثيودوفانوس.

- يبدو اسماً سمعته من قبل... هل هي التي نادوها في المطار باعتبارها المسافرة المفقودة؟

- نعم، هذا هو الاسم الذي استخدمته في سفرها. إننا نسميها «ماري آن».

- ومَن تكون... من باب الفضول فقط؟

- إنها في مجالها متفوقة على جميع أقرانها.

- وما هو عملها؟ هل هي معنا أو معهم، إن كنت تعلم مَن هم هؤلاء؟ أما أنا فأظن أنني أجد بعض الصعوبة في الجزم بهذا.

- نعم، الأمر ليس بهذه السهولة، أليس كذلك؟ مع وجود الصينيين والروس وتلك الجموع الغريبة التي تقف وراء مشكلات الطلبة والمافيا الجديدة وتلك المجموعات الغريبة في أمريكا الجنوبية ومجموعة رجال المال الصغيرة الذين يبدو أنهم يتسترون على أشياء غريبة... نعم، ليس من السهل الجزم بقضية الولاءات تلك.

قال السير ستافورد ناي متأملاً: ماري آن... يبدو أنه اسم غريب لها إن كان اسمها الحقيقي هو دافني ثيودوفانوس.

- أمها يونانية وأبوها إنكليزي وجدها نمساوي.

- وماذا كان سيحدث لو لم تأخذ مني تلك العباءة؟

- كانت ستُقتَل على الأغلب.

- لا بد أنك تمزح... هل هذا صحيح؟

- إننا قلقون على الوضع في مطار هيثرو. لقد حدثت أشياء هناك في الفترة الأخيرة، أشياء بحاجة إلى قليل من التفسير. لو كانت الطائرة قد ذهبت عبر جنيف كما هو مخطط لها لكان الأمر على ما يرام؛ كانت ستحصل على حماية كاملة تم ترتيبها لها. ولكن بعد أن تغير الطريق لم يكن هناك وقت لتدبير مسألة الحماية لها، كما أنك لا تعرف هذا من هذا في أيامنا هذه... إن كل واحد يلعب لعبة مزدوجة أو ثلاثية أو رباعية.

قال السير ستافورد ناي: أنت تخيفني. ولكنها على ما يرام، أليس كذلك؟ هل هذا ما تريد قوله لي؟

- أرجو أن تكون على ما يرام؛ فلم يصلنا أي شيء يفيد عكس ذلك.

- إن كان ما سأقوله يساعدكم فقد جاءني شخص صباح اليوم هنا بينما كنت خارج البيت في الوايتهول أتحدث مع أصدقائي، وقد ادّعى أنني هاتفت شركة تنظيف الملابس وأخذ البدلة التي كنت أرتديها بالأمس وبدلة أخرى معها. وقد لا يعني ذلك بالطبع سوى أنه أعجب بالبدلة الأخرى أو أنه جعل دأبه جمع الملابس المختلفة لمن يعودون من السفر مؤخراً... أو ربما لذلك أسباب أخرى تعرفها؟

- ربما كان يبحث عن شيء.

- نعم، أظن ذلك... شخصٌ ما كان يبحث عن شيء ما. كل شيء أعيد مكانه وكان يبدو مرتباً وليس كما تركته. حسناً، لقد كان يبحث عن شيء ما، ولكن ما الذي كان يبحث عنه؟

ردّ عليه هورشام ببطء: لست متأكداً، ليتني أعرف! ثمة شيء يجري في مكان ما، وتظهر منه أجزاء صغيرة كرزمة لم يتم تغليفها بشكل جيد... ترى بادرة هنا وبادرة هناك، في لحظة ما تعتقد أنه مهرجان بيروت، وبعد دقيقة تظن أنه يُطلّ من بيئة ما في أمريكا الجنوبية، ثم تحصل على معلومة بأنه في الولايات المتحدة... هناك الكثير من الأعمال القذرة التي تجري في أماكن مختلفة، وهي تتفاقم للوصول إلى شيء ما. قد يكون للأمر علاقة بالسياسة وقد يكون شيئاً مختلفاً تماماً عن السياسة، قد يكون المال.

ثم أضاف: أنت تعرف السيد روبنسن، أليس كذلك؟ أو بالأحرى أظن أن السيد روبنسن هو الذي قال إنه يعرفك.

فكر السير ستافورد ناي وقال: روبنسن، روبنسن؟ اسم إنكليزي جميل.

ثم نظر إلى هورشام وقال: ذو وجه ضخم أصفر، سمين وله علاقة بعالم المال بشكل عام؟ هل هو أيضاً من المموّلين الذين يدعمون رجال السياسة... هل هذا ما تريد قوله لي؟

قال هنري هورشام: لا أعرف عن هؤلاء، لكنه أنقذنا من المآزق في هذا البلد أكثر من مرة، رغم أن أناساً مثل السيد تشيتويند لا يحبونه كثيراً، فهم يرون أنه مكلف جداً كما أظن. وحيث إن

السيد تشيتويند يميل إلى الشح فهو رجل بارع في تكوين عداوات في غير محلها.

قال السير ستافورد ناي متأملاً: تريد أن تصف السيد روبنسن بأنه غالٍ لكنه أمين، أو لنقل بأنه أمين لكنه غالٍ؟ ثم قال صراحة: أتمنى أن توضح لي الأمر كله، فالظاهر أنني قد تورطت في شيء لا أعرف عنه شيئاً.

نظر إلى هنري هورشام على أمل أن يجيبه، لكن هورشام هز رأسه وقال: لا أحد منا يعرف، ليس تماماً.

- ما الذي يُفترض أنه مخفي عندي حتى يأتي شخص ويعبث بخزانتي ويبحث فيها؟

- بصراحة لا أعرف أي شيء يا سير ستافورد.

- حسناً، هذا أمر مؤسف لأنني لا أعرف أنا الآخر.

- حسب علمك، ألا يوجد عندك أي شيء؟ ألم يعطك أحدٌ أي شيء لتحتفظ له به أو تأخذه إلى أي مكان أو تعتني به له؟

- لا شيء أبداً. إن كنت تقصد ماري آن فقد قالت إنها كانت تريد إنقاذ حياتها، وهذا كل ما في الأمر.

- وما لم نقرأ عنها شيئاً مؤسفاً في صحف المساء فإنك قد أنقذت حياتها بالفعل.

- يبدو ذلك وكأنه نهاية القصة، أليس كذلك؟ أمر مؤسف؛

إن فضولي يزداد. إنني أجد حاجة في نفسي لأعرف الكثير عمّا سيحدث بعد ذلك... كلكم تبدون متشائمين جداً.

- نحن كذلك بصراحة؛ إن الأمور تسير بشكل سيء في هذا البلد، فهل من عجب في تشاؤمنا؟

- أعرف ما تعنيه، فأنا نفسي أتعجب أحياناً.

* * *

الفصل الرابع
عشاء مع إيريك

قال إيريك بو: هل تمانع لو قلت لك شيئاً أيها العجوز؟

نظر إليه السير ستافورد ناي. كان يعرف إيريك بو منذ سنوات عديدة، ولم يكونا صديقين مقربين فقد كان العجوز إيريك صديقاً مملاً بعض الشيء، أو هكذا رآه السير ستافورد. لكنه كان صديقاً مخلصاً من ناحية أخرى. ولئن لم يكن السيد بو مُسلّياً فإنه كان ذا موهبة في معرفة الأمور؛ كان الناس يقولون له أشياء ويتذكر ما قالوه ثم يخزّنها في ذاكرته، وكان بوسعه أن يقدّم معلومات مفيدة في بعض الأحيان.

-لقد عدت من مؤتمر الملايو إذن؟

قال السير ستافورد: نعم.

- هل ظهر أي شيء خاص هناك؟

- الأمور العادية فقط.

- آه، لقد تساءلت إن كان قد حدث شيء. حسناً، تعلم ما أعنيه. هل حدث ما من شأنه إثارة المتاعب؟

- في المؤتمر؟ لا؛ كان مؤتمراً مطابقاً بشكل محزن لما يمكن أن يتوقعه المرء، وقد أدلى كل مشارك بنفس وجهات النظر التي يمكن توقعها منه، إلاّ أن المشاركين- مع الأسف- أدلوا بآرائهم تلك بشكل أطول مما يمكن أن يتخيله المرء. لا أدري ما الذي يجعلني أحضر مثل هذه المؤتمرات.

أبدى إيريك بو ملاحظة مضجرة أو ملاحظتين بخصوص ما ينوي الصينيون فعله، فقال السير ستافورد: لا أظن أنهم ينوون فعلاً القيام بأي شيء. إنك تسمع طبعاً تلك الإشاعات المعتادة حول الأمراض التي يعاني منها العجوز المسكين ماو وحول هوية من يكيدون له ولماذا يكيدون... وعلى أية حال ما علاقة هذا بالملايو؟

- الحق أنني لم أكن أعني الملايو بالضبط.

- إنك تبدو مثل حساء السلاحف الزائف الذي يروّجون له بقولهم إنه حساء المساء، حساء رائع... لماذا هذه الكآبة؟

- لقد تساءلت فقط إن كنت... أرجو أن تعذرني، أقصد أنك لم تفعل أي شيء يسيء إلى سجلك بأي شكل، أليس كذلك؟

بدت الدهشة على السير ستافورد وهو يقول: أنا؟!

- حسناً، طبعك معروف يا ستافورد. إنك تحب مضايقة الناس وصدمهم أحياناً.

قال السير ستافورد: لقد بدأت أتصرف تصرفاً مثالياً في الفترة الأخيرة. ما الذي سمعته عني؟

- سمعت عن وقوع مشكلة ما بخصوص شيء حدث في الطائرة في طريق عودتك إلى هنا.

- آه، وممّن سمعت ذلك؟

- لقد رأيت العجوز كارتيسن.

- عجوز ممل... إنه دائماً يتخيل أشياء لم تحدث أبداً.

- نعم، أعرف؛ إنه كما تقول. ولكنه كان يقول إن بعض الناس (ومنهم وينترتن على الأقل) يظنون أنك كنت تنوي القيام بشيء ما كما يبدو.

- القيام بشيء ما؟ أتمنى لو كنت كذلك.

- في مكان ما تجري أعمال تجسس، وقد شُعر بشيء من القلق على أشخاص معينين.

- ومن تراهم يحسبونني؟ كيم فيلبي آخر...؟

- أنت تعرف أنك تكون طائشاً جداً فيما تقوله أحياناً، وفيما تصبّ نكاتك عليه.

- أحياناً يكون من الصعب جداً مقاومة ذلك؛ فكل هؤلاء الساسة والدبلوماسيين وغيرهم يظهرون الجدية والوقار الشديدين، مما يجعلني أشعر بالحاجة إلى إثارتهم من وقت لآخر.

- إن روح الدعابة عندك مشوهة كثيراً يا صديقي... إنها فعلاً

كذلك. أشعر بالقلق عليك أحياناً. لقد أرادوا توجيه بعض الأسئلة إليك بخصوص شيء حدث في رحلة عودتك، ويبدو أنهم يظنون أنك ربما لم تقل الحقيقة كاملة حول ما حدث.

- آه، أهذا ما يظنونه؟ مثير، أعتقد أنني يجب أن أمضي قليلاً في إيهامهم وإثارتهم.

- لا تفعل أي شيء طائش.

- عليّ أن أستمتع بلحظات متعتي أحياناً.

- اسمعني أيها العجوز، لا أحسبك تريد تدمير حياتك المهنية لمجرد إشباع روح الدعابة لديك.

- إنني أصل بسرعة إلى قناعة مفادها أنه ما من شيء أكثر إثارة للضجر من التزام المرء بحياته المهنية.

- أعرف، أعرف؛ أنت تميل إلى تبني وجهة النظر هذه دائماً، ولذلك لم تتقدم في السلم الوظيفي كما كان ينبغي لك أن تتقدم. لقد كنت مرشحاً لتولي سفارتنا في فينّا ذات يوم، لا أحب أن أراك تفسد الأمور.

- أؤكد لك أنني أتصرف بمنتهى الرزانة والاستقامة.

ثم أضاف: هوّنْ عليك يا رجل! أنت صديق طيب، ولكني حقاً لست مداناً بتهمة الدعابة واللعب.

هز إيريك رأسه بارتياب.

* * *

كان الجو جميلاً في ذلك المساء. عاد السير ستافورد إلى بيته مشياً عبر حديقة غرين بارك، وبينما كان يعبر الطريق في بيردكيج ووك كادت سيارة مسرعة في الشارع أن تصدمه. لكن السير ستافورد كان رجلاً رياضياً، وقد أنقذته القفزة التي قفزها إلى الرصيف من موت محقق. اختفت السيارة في الشارع، وتساءل في نفسه محتاراً. كان واثقاً -للحظة- أن هذه السيارة قد حاولت دعسه عمداً... فكرة مثيرة. أول مرة جرى تفتيش شقته وها هو الآن يكاد يقتل! قد تكون مجرد صدفة، ولكنه خلال حياته التي قضاها في أماكن خطيرة كان يواجه الخطر المباشر دائماً. كان يعلم بالخطر ويشم رائحته عن بعد، وهو يحس به الآن. إن شخصاً ما، في مكان ما، يسعى لقتله! ولكن لماذا؟ ما هو السبب؟ إنه لم يقدم -حسب علمه- على أي تجاوز من شأنه تعريضه للخطر. عجباً!

دخل شقته ورفع الرسائل التي كانت عند البوابة من الداخل. لا شيء فيها؛ فاتورتان ونسخة من مجلة دورية. ألقى بالفاتورتين على مكتبه وأمسك بالمجلة التي كان مشتركاً فيها فقلب صفحاتها دون اهتمام كبير، إذ إنه ما زال مستغرقاً فيما كان يفكر فيه. ثم توقف عن تقليب الصفحات فجأة، فقد وجد شيئاً ملصقاً بين صفحتين من صفحات المجلة، وكان ملصقاً بشريط لاصق. نظر إليه عن قرب... كان جواز سفره أعيد إليه دون توقع منه بهذه الطريقة! أزال الشريط اللاصق عنه ونظر إليه، كان آخر ختم فيه هو ختم دخول مطار هيثرو بالأمس. لقد استخدمت جواز سفره وعادت إلى هنا بأمان واختارت هذه الطريقة لتعيده إليه فيها. أين هي الآن؟ ليته يعرف.

تساءل إن كان سيراها ثانية. من عساها كانت؟ أين ذهبت

ولماذا؟ حاله كمن ينتظر الفصل الثاني من مسرحية، والواقع أنه لم يكد يشعر بانتهاء الفصل الأول بعد. ما الذي رآه؟ ربما كان ما رآه مجرد فصل استهلالي للمسرحية كما كان يجري قديماً. فتاة أرادت بشكل سخيف ارتداء زي الرجال والدخول إلى الطائرة كرجل، فتاة عبرت نقطة مراقبة الجوازات في مطار هيثرو دون أن تثير حولها أية شكوك، وها هي قد اختفت الآن بعد عبورها تلك البوابة في مدينة لندن. نعم، ربما لا يكون قادراً على رؤيتها ثانية أبداً، وقد أزعجه ذلك. لكنه فكر في نفسه: لماذا يريد ذلك؟ فلم تكن امرأة جذابة بشكل خاص، لم تكن أي شيء. لا، ذلك ليس صحيحاً تماماً؛ فقد كانت امرأة مهمة، وإلاّ لما استطاعت إغواءه دون أسلوب مقنع معين ودون أية إثارة ظاهرة. لم تفعل شيئاً سوى طلب بسيط وصريح للمساعدة؛ طلب من إنسان إلى إنسان آخر، لأنها كانت تعرف الناس... أو أن هذا ما لمّحت إليه. ليس بالكلمات الصريحة ولكنها لمّحت إليه، ولأنها عرفت فيه رجلاً على استعداد للمجازفة من أجل مساعدة إنسان آخر.

وفكر السير ستافورد ناي بأنه قد جازف وخاطر أيضاً. كان يمكن أن تضع له في كأس الشراب ذاك أي شيء، كان يمكن أن يكون جثة هامدة على مقعد في إحدى زوايا قاعة المغادرة في المطار لو أرادت ذلك. ولو كانت تملك معرفة وخبرة في المخدرات (وهو أمر لا شك أنها تمتلكه) فإن وفاته كانت ستنطلي على الجميع وتمر على أنها نوبة قلبية بسبب التحليق على ارتفاع عال أو ما ينتج عن الطيران من صعوبات في الضغط أو شيء من هذا القبيل... آه، لماذا يفكر في هذا الأمر؟ لم يكن من المحتمل أن يراها ثانية ولذلك كان منزعجاً.

نعم، كان منزعجاً، ولم يكن يحب أن يكون منزعجاً. فكّر في المسألة لبضع دقائق، ثم كتب إعلاناً ليُنشر على ثلاث مرات: «إلى المسافرة إلى فرانكفورت في الثالث من نوفمبر، يرجى الاتصال بزميلك المسافر إلى لندن». لم يزد على ذلك، فإمّا أن تستجيب للإعلان أو لا تستجيب. لو وقعت عيناها على هذا الإعلان فسوف تعرف مَن الذي نشره. كانت قد أخذت جواز سفره ولذلك فهي تعرف اسمه وتستطيع العثور على عنوانه، وقد تتصل به بشكل أو بآخر، وقد لا تفعل، وربما لن تفعل. وإن هي لم تتصل به فسيبقى الفصل الاستهلالي للمسرحية مجرد فصل استهلالي، فصل صغير سخيف يتلقاه رواد المسرح المبكّرون في حضورهم فيلهيهم إلى أن تبدأ الأحداث الحقيقة... لقد كان تقديم ذلك الفصل مفيداً جداً أيام ما قبل الحرب. وأغلب الظن أنه لن يسمع منها خبراً مرة أخرى، وقد يكون أحد أسباب ذلك أنها قد تكون أنجزت ما جاءت إلى لندن لإنجازه وغادرت البلد مرة أخرى إلى جنيف أو الشرق الأوسط أو روسيا أو الصين أو أمريكا الجنوبية أو إلى الولايات المتحدة... فكر السير ستافورد في نفسه قائلاً: ولماذا أضم أمريكا الجنوبية إلى قائمة الدول هذه؟ لا بد من وجود سبب. إنها لم تذكر أمريكا الجنوبية ولم يذكرها أحد غيرها، باستثناء هورشام. هذا صحيح، وحتى هورشام نفسه ذكر أمريكا الجنوبية من بين كثير من الأشياء الأخرى.

في صباح اليوم التالي بينما كان يسير ببطء عائداً إلى بيته وبعد أن سلّم إعلانه وقعت عينه عرَضاً وهو يسير في حديقة سينت جيمس شارد الذهن على أزهار الخريف. كانت نباتات الأقحوان تبدو في هذا الوقت متصلبة طويلة السيقان ببراعمها الذهبية والبرونزية،

وكانت رائحتها التي تناهت باهتة إليه تشبه رائحة الماعز كما كان يراها دوماً، رائحة تذكّره بسفوح الجبال في اليونان.

يجب أن يحرص على مراقبة عمود الإعلانات الشخصية باستمرار. ليس الآن، إذ يجب أن يمر يومان أو ثلاثة على الأقل قبل نشر إعلانه وقبل أن يتاح الوقت لأحد لأن يرد على إعلانه، فإذا تلقى رداً فإن ذلك ينبغي أن لا يفوته لأنه من المزعج أن لا يعرف... أن لا يعرف سبب كل هذه القضية.

حاول أن يتذكر وجه أخته باميلا وليس وجه الفتاة التي رآها في المطار. لقد مضى وقت طويل على وفاتها. تذكّرَها، إنه يتذكرها بالطبع لكنه لم يستطع تخيل وجهها إلى حد ما، وقد أغاظه أن لا يستطيع تخيّله.

توقف عندما كان على وشك عبور أحد الشوارع، ولم تكن به سيارات باستثناء سيارة تمشي ببطء مشي العجوز التي تشعر بالضجر. وكانت السيارة عجوزاً أيضاً، أو هكذا رأى، سيارة دايملر ليموزين قديمة الطراز. هزّ كتفيه وتقدم بخطوة عازمة لعبور الطريق، وفجأة وبقوة مدهشة زادت سيارة الليموزين العجوز من سرعتها، زادت سرعتها بشكل فجائي مذهل واندفعت نحوه بسرعة لم تتح له مجالاً إلاّ للقفز إلى الرصيف المقابل قفزاً. واختفت السيارة كلمح البصر في منعطف الطريق البعيد.

تساءل السير ستافورد في نفسه: أمر محيّر، أمر محير بالفعل. أيمكن أن يكون هناك حقاً إنسان لا أعجبه؟ شخص يتبعني ويراقبني

في أثناء عودتي إلى البيت في انتظار فرصة للانقضاض علي؟

* * *

كان الكولونيل بايكاوي يجلس وجسمه يملأ الكرسي في الغرفة الصغيرة في بلومزبيري، حيث كان يجلس من العاشرة وحتى الخامسة باستثناء استراحة قصيرة لتناول الغداء، وكان محاطاً -كما هي عادته- بدخان سيغاره الكثيف وعيناه مغلقتان، وكانت طرفة من عينه من وقت لآخر هي الدليل الوحيد الذي كان يُظهر أنه كان مستيقظاً وليس نائماً. وكان نادراً ما يرفع رأسه، وقد قيل فيه إنه يشكل نقطة التقاء بين البوذي القديم وبين ضفدعة زرقاء ضخمة، وأضاف بعض الشباب الوقحين أن به عرقاً من فرس النهر ورثه عن أسلافه.

أيقظه صوت نداء جهاز الهاتف الداخلي على طاولته. طرفت عيناه ثلاث مرات ثم فتح عينيه، ومدّ يداً ضجرة فرفع السماعة قائلاً: نعم؟

تكلمت سكرتيرته: سيادته هنا يريد رؤيتك.

- حقاً؟ وأي واحد من السادات هو؟ أهو كاهن الكنيسة المجاورة؟

- آه لا؛ إنه السيد الوزير، السير جورج باكهام.

قال الكولونيل بايكاوي وهو يتنفس بصعوبة: أمر مؤسف، مؤسف جداً. إن اللقاء مع نيافة الكاهن أمتع بكثير!

- هل أدخله عليك يا سيدي الكولونيل؟

- أظن أنه يتوقع الدخول فوراً. إن الوزراء بالوكالة أكثر حساسية من الوزراء أنفسهم؛ يصرّون على الدخول وإثارة الدنيا غضباً وعصبية.

دخل السير جورج باكهام إلى الغرفة. سعل وتنفس بصعوبة شأن أغلب من يدخل هذه الغرفة، فقد كانت نوافذها الصغيرة مغلقة بإحكام، واستند الكولونيل بايكاوي إلى ظهر كرسيه وقد غُطّي تماماً بدخان سيغاره. كان الجو لا يطاق وكانت هذه الغرفة معروفة في الدوائر الرسمية باسم «بيت القطة الصغيرة».

قال السير جورج وهو يتكلم بسرعة وابتهاج بطريقة لم تناسب مظهره الحزين الزاهد: آه يا زميلي العزيز، أظن أننا لم نلتقِ منذ زمن طويل؟

- تفضل بالجلوس، هل تأخذ سيغاراً؟

ارتعش السير جورج قليلاً وقال: لا، أشكرك، أشكرك كثيراً.

نظر إلى النوافذ نظرة ضيق، ولكن الكولونيل بايكاوي لم يفهم إشارته. تنحنح السير جورج وسعل ثانية قبل أن يقول: أعتقد أن هورشام جاء لزيارتك.

قال الكولونيل وهو يغمض عينيه ببطء: نعم، جاءني هورشام وأخبرني بما يريد.

- أظن أنها كانت أفضل طريقة، أعني أن يأتي إليك هنا. من المهم جداً أن لا تنتشر الأخبار في كل مكان.

- آه، لكنها ستنتشر، أليس كذلك؟

- معذرة، ماذا تقول؟

- سوف تنتشر.

- لا أدري إلى أي حد. آه، حسناً، إلى أي حدّ تعرف عن هذه القضية الأخيرة؟

- إننا هنا نعرف كل شيء؛ هذا ما نحن موجودون هنا لأجله.

- آه، نعم، نعم، بالتأكيد. بخصوص السير «س ن»... تعرف من أعني.

قال الكولونيل بايكاوي: مسافر وصل من فرانكفورت مؤخراً.

- أمر غريب جداً، مذهل تماماً. لا أدري... حقيقة إنني لا أدري ولا أستطيع أن أتخيل...

أصغى الكولونيل بايكاوي بلطف، وأكمل السير جورج يقول: ماذا عسانا نعتقد؟ هل تعرفه شخصياً؟

- لقد قابلته مرة أو مرتين.

- لا يملك المرء إلاّ أن يعجب ويتساءل...

كبت الكولونيل بايكاوي بصعوبة رغبة في التثاؤب، فقد ملّ من اعتقادات السير جورج وحيرته وتخيله. وهو لم يكن يشعر بكبير

احترام -على أية حال- لطريقة السير جورج في التفكير؛ رجل حذر، رجل يمكن الركون لإدارته لوزارته بأسلوب حذر وليس بالرجل ذي الذكاء المتألق. ورأى الكولونيل بايكاوي أن ذلك قد يجعله أفضل بكثير، إذ إن أولئك الذين يظنون ويتحيرون ويتساءلون ولا يجزمون بالأمور يكونون -في كل الأحوال- آمنين في الموقع الذي وضعهم فيه الحظ والناخبون.

أكمل السير جورج: لا يمكن أن أنسى خيبة الأمل التي عانينا منها في الماضي.

ابتسم الكولونيل بايكاوي وقال: كارلتون وكونواي وكوتفولد... كلهم كانوا موثوقين ومدروسين تماماً وحظوا بالقبول، وكلهم تبدأ أسماؤهم بحرف الكاف، وكلهم محتالون.

قال السير جورج بحزن: أحياناً أتساءل إن كنّا نستطيع الثقة بأي شخص.

- الجواب سهل؛ لا تستطيع ذلك.

- خذ ستافورد ناي على سبيل المثال. عائلته جيدة، بل ممتازة، وأعرف أباه وجدّه.

- غالباً ما يحدث خلل في الجيل الثالث.

لم تساعد هذه الملاحظة السير جورج. قال: لا أملك إلاّ أن أشك... أقصد أنه لا يبدو شخصية جادة حقاً في بعض الأحيان.

قال الكولونيل بايكاوي على غير توقع: عندما كنت شاباً

صغيراً أخذت ابنتَي أخي لرؤية قلعة لوار، وكان هناك رجل يصيد السمك على ضفة النهر، وكنت أحمل معي صنارة الصيد أيضاً. قال لي: أنت لست صياد سمك جدياً إذ تصطحب معك فتاتين.

- أتعني أنك تظن أن السير ستافورد...؟

- لا، لا؛ لم يتورط مع النساء أبداً. إن مشكلته هي التهكم والسخرية، فهو يحب مفاجأة الناس، لا يملك السيطرة على حبه لجلد الناس بلسانه الحاد.

- حسناً، وهذا ليس بالسلوك المُرضي، أليس كذلك؟

- ولمَ لا؟ إن حب المزاح الثقيل أفضل بكثير من إبرام صفقة ما من خائن مرتد.

- لو كان بوسع المرء فقط أن يشعر بأنه رجل موثوق حقاً، ما قولك أنت؟ ما هو رأيك الشخصي؟

قال الكولونيل بايكاوي: إنه موثوق جداً، ولو كنت مكانك لما قلقت من هذه الناحية.

* * *

دفع السير ستافورد ناي فنجان القهوة جانباً وأمسك بالصحيفة وألقى نظرة على العناوين الرئيسية، ثم قلبها على صفحة الإعلانات الشخصية. كان قد راقب ذلك العمود بعينه لليوم السابع على التوالي، وكان الأمر مخيباً للآمال لكنه لم يكن مفاجأة، ولماذا عساه يتوقع رداً؟ نظر أسفل ذلك العمود حيث الإعلانات الغريبة المتنوعة

التي كانت تجعل من تلك الصفحة صفحة ساحرة جذابة حسب رأيه، ولم تكن إعلانات شخصية جداً. كان نصفها أو أكثر من ذلك إعلانات خادعة أو عروضاً لأغراض للبيع أو مطلوبات للشراء، ربما كان يجب وضعها تحت عنوان مختلف لكنها وجدت طريقها إلى هنا باعتبار أنها تلفت الانتباه هنا أكثر من أي مكان آخر، وكانت تحتوي على بعض الإعلانات المتنوعة التي كان يأمل رؤيتها.

"شاب يعارض الأعمال المجهدة ويحب الحياة السهلة سيكون سعيداً بحصوله على وظيفة تناسبه"، "فتاة تريد السفر إلى كمبوديا، ترفض العناية بالأطفال". "سلاح استُخدم في معركة واترلو للبيع"، "معطف فراء رائع يجب بيعه على الفور بداعي السفر"، "هل تعرف جيني كابستان؟ إن الكعك الذي تصنعه رائع، تعال إلى المبنى ١٤ بشارع ليزارد، ساوث ويلز ٣"...

توقف إصبع ستافورد ناي لحظة عند هذا الإعلان الأخير... جيني كابستان؟ لقد أعجبه الاسم. أيوجد أي شارع باسم ليزارد؟ إنه يظن ذلك، لكنه لم يكن قد سمع به أبداً. نزل بإصبعه وهو يتنهد وتوقف على الفور مرة أخرى.

"المسافر من فرانكفورت، الخميس ١١ تشرين الثاني (نوفمبر)، جسر هانغرفورد، الساعة السابعة والثلث".

الخميس؟ إنه... نعم، إنه اليوم. استند السير ستافورد ناي على كرسيه وشرب مزيداً من القهوة، وأحسّ بالحماسة والانفعال. هانغرفورد... جسر هانغرفورد. نهض من مجلسه وذهب إلى المطبخ، كانت السيدة ووريت تقطع البطاطا إلى شرائح وتلقي بها

في طاس ماء كبير، فرفعت بصرها بشيء من الدهشة وسألته: هل تريد أي شيء يا سيدي؟

قال السير ستافورد ناي: نعم، إذا ذكر لك أحدهم جسر هانغرفورد فأين تذهبين؟

فكرت السيدة ووريت وقالت: أين أذهب؟ تقصد إن كنت أريد الذهاب؟

- يمكننا أن نبني على ذلك الافتراض.

- حسناً، أظن أنني كنت سأذهب إلى جسر هانغرفورد، أليس كذلك؟

- تقصدين أنك ستذهبين إلى هانغرفورد في بيركشاير؟

- وأين هذه؟

- بعد نيوبري بثمانية أميال.

- سمعت بنيوبري، زوجي راهن على حصان هناك في العام الماضي وفاز.

- إذن فأنت ستذهبين إلى هانغرفورد قرب نيوبري؟

- لا، بالطبع لا. ولماذا أذهب كل تلك المسافة؟ بل أذهب إلى جسر هانغرفورد بالطبع.

- تقصدين...؟

- إنه قرب تشيرنغ كروس، هناك على نهر التيمز.

- نعم، نعم، أعرف مكانه جيداً. شكراً لك يا سيدة ووريت.

أحس بأن الأمر يشبه إلقاء قطعة نقود معدنية ليختار الإنسان أحد الوجهين. إعلان في صحيفة صباحية في لندن يعني جسر هانغرفورد في لندن، ولذلك يفترض أن هذا هو المكان المقصود... على الرغم من أن السير ستافورد ناي لم يكن واثقاً أبداً من أمر صاحبة الإعلان. ومن خلال خبرته القصيرة بها رأى أن أفكارها كانت أصيلة مبدعة، ولم تكن من صاحبات ردود الأفعال الطبيعية التي يمكن توقعها. على أية حال ماذا كان بوسعه أن يفعل سوى الاستجابة؟ علماً بأنه ربما كانت في مناطق مختلفة من إنكلترا أماكن أخرى تدعى هانغرفورد ومن المحتمل أن يكون فيها جسور أيضاً. ولكنه سيرى اليوم، نعم، اليوم.

* * *

كان المساء بارداً عاصفاً مع بعض الأمطار الخفيفة. ورفع السير ستافورد ناي ياقة معطف المطر الذي كان يرتديه وشق طريقه فوق الجسر، لم تكن المرة الأولى التي يعبر فيها جسر هانغرفورد ولكن لم يخطر له أبداً أن يقطع هذا الجسر لغرض المتعة. كان النهر يتدفق تحت الجسر وفوقه يمرّ كثير من الأشخاص المسرعين أمثاله، وكانوا يرتدون معاطف المطر ويشدّونها إلى أوساطهم وقبعاتهم تغطي وجوههم ولكل منهم رغبة شديدة في الوصول إلى بيته ليهرب من المطر والريح الباردة بأسرع وقت ممكن. لاحظ السير ستافورد ناي أن من الصعب عليه معرفة أحد من هذه الجموع المسرعة. الساعة السابعة والثلث... ليست لحظة مناسبة لموعد من أي نوع. ربما كان المقصود هو جسر هانغرفورد في بيركشاير!

واصل مشيه بخطوات حافظ على إيقاع سرعتها بحيث لا يتجاوز الذين كانوا أمامه، فيما كان القادمون من الجهة المقابلة يتجاوزونه. لكن سرعته كانت كافية كيلاً يدركه أحد ممّن هم وراءه، على الرغم من سهولة اللحاق به لو أرادوا. فكر ستافورد ناي بأنها قد تكون مزحة... ليس من نوع مزحاته وإنما مزحة شخص آخر. ومرّت من جانبه جموع مسرعة مرة أخرى ودفعته جانباً بعض الشيء. وكانت هناك امرأة قادمة ترتدي معطف مطر وتسير بخطوات سريعة، واصطدمت به فسقطت على ركبتيها، فساعدها في الوقوف وقال: هل أنت بخير.

قالت: نعم، شكراً لك.

ثم أسرعت في إكمال طريقها، ولكن عندما تخطّته أحس أن يدها المبتلة التي أمسك بها عندما رفعها عن الأرض قد دسّت في راحة يده شيئاً وأطبقت أصابعه عليه، ثم ذهبت واختفت وراءه بين الجموع. أكمل ستافورد ناي طريقه لكنه لم يستطع اللحاق بها، كما أنها لم تكن ترغب أن يلحق بها أحد. أسرع في مشيه ويده تقبض على ذلك الشيء بقوة، وهكذا بعدما بدا له أنه وقت طويل وصل إلى نهاية الجسر من الناحية الأخرى.

وبعد بضع دقائق كان قد دخل أحد المقاهي الصغيرة وجلس هناك وراء طاولة وطلب فنجان قهوة، ثم نظر إلى ما كان في يده. كان مغلفاً رقيقاً من المشمّع وبداخله ظرف أبيض من ورق رخيص، وفتح هذا المغلف أيضاً وأدهشه ما رأى بداخله؛ كانت تذكرة، تذكرة دخول إلى قاعة الاحتفالات لمساء اليوم التالي.

* * *

الفصل الخامس
موسيقى فاغنر

عدّل السير ستافورد ناي جلسته ليرتاح على كرسيه أكثر وأصغى للإيقاع القوي لمعزوفة نيبلونغن التي بدأ البرنامج بها. وعلى الرغم من استمتاعه بأوبرا فاغنر عموماً إلاّ أن أوبرا سيغفريد لم تكن أبداً ممّا يفضله من مجموعة فاغنر، كما أن موسيقى الشاب سيغفريد وهو يصغي إلى أغاني الطيور كانت تثير أعصابه دائماً بدلاً من تهدئتها وذلك لسبب غريب. ربما كان ذلك ناتجاً عن ذهابه ذات مرة -في أيام شبابه- إلى حفلة موسيقية في ميونيخ كان المغني فيها ذا طبقة صوت عالية رائعة ولكنه بالغ في صياحه إلى حد بشع، وكان السير ستافورد وقتها أصغر من أن يفرّق بين متعة سماع الموسيقى ومتعة النظر إلى سيغفريد الشاب. وقد أثارته آنذاك رؤية مغنّ ذي طبقة صوتية عليا ضخم الجسم وهو يتقلب على الأرض في نوبة نشوة صبيانية، كما أنه لم يكن مغرماً على نحو خاص بالطيور وحفيف أشجار الغابات. كان يفضل دوماً مقطوعة فتيات الراين، رغم أن هذه المقطوعة نفسها كانت تُقدّم في ميونيخ في تلك الأيام بشكل جامد إلى حد بعيد.

وكان ينظر حوله من وقت لآخر نظرات عرضية بعد أن جلس على مقعده في وقت مبكر كثيراً، وكانت القاعة مليئة بالرواد كما هي عادتها. وجاءت فترة الاستراحة فنهض السير ستافورد ونظر حوله، ظلّ المقعد بجانبه خالياً... لم يصل الشخص الذي كان يُفترض وصوله. تُرى أصحيحٌ أنه لم يصل أم أن ذلك الشخص قد مُنع من الدخول لوصوله متأخراً؟ وهو التقليد الذي ما زال معمولاً به في حفلات موسيقى فاغنر.

خرج من القاعة وذهب لتناول فنجان من القهوة، ثم عاد عندما سمع نداء العودة إلى القاعة. وفي هذه المرة عندما كان يقترب من مقعده رأى أن المقعد الذي كان بجانبه قد أصبح الآن مشغولاً، وعلى الفور عاوده الانفعال. جلس على كرسيه. نعم، إنها المرأة التي كانت في قاعة مطار فرانكفورت. لم تنظر إليه بل كانت تنظر أمامها مباشرة، وكان وجهها من الجانب مُحدَّد القسمات نقياً كما كان يتذكره. التفتت برأسها قليلاً ونظرت إليه ولكن دون أن تظهر أنها تعرفه، وكانت نظرتها العرَضية تلك مركّزة بشكل جعلها أبلغ من أي كلمة تقال، فلقاؤهما هذا يجب أن لا يكون مكشوفاً أمام الناس... ليس الآن على أية حال. بدأت الأضواء تخفت فالتفتت المرأة بجانبه وقالت: عفواً، هل لي أن أنظر إلى البرنامج الذي تحمله؟ لقد سقط برنامجي مني وأنا قادمة إلى مقعدي.

- بالطبع.

سلمها البرنامج فأخذته منه وفتحته وقرأت فقراته، وخفتت الأضواء أكثر فأكثر وبدأ النصف الثاني من البرنامج بمقطوعة

استهلالية لمعزوفة لوهينغرين، وعندما انتهت المقطوعة أعادت إليه البرنامج مع بعض كلمات الشكر.

كانت المادة التالية معزوفة سيغفريد حيث موسيقى حفيف الغابات. وتفحّص البرنامج الذي أعادته له، وعندها لاحظ شيئاً مكتوباً في ذيل البرنامج بقلم الرصاص وبخط باهت. لم يحاول قراءته في تلك اللحظة، والواقع أن الإضاءة لم تكن لتسمح بقراءته، فاكتفى بطيّ البرنامج والإمساك به. كان واثقاً تماماً أنه لم يكتب شيئاً على البرنامج، أو أنه لم يكتب شيئاً على نسخته هو منه. واعتقد أنها كانت تحمل برنامجها معها داخل حقيبتها وكانت قد كتبت عليه من قبل رسالة معينة جاهزة لكي تمررها له، وقد بدا له إجمالاً أنها ما زالت تعيش في جو من السرية والخطر... اللقاء على جسر هانغرفورد، والمغلف وبداخله تذكرة الحفلة وهي تُدَسّ في يده، والآن المرأة الصامتة الجالسة بجانبه... نظر إليها مرة أو مرتين نظرات سريعة كما لو أنه ينظر إلى امرأة غريبة تجلس بجانبه، كانت ترتدي ثوباً أسود وحول رقبتها طوق ذهبي قديم وكان شعرها الأسود قصيراً يأخذ شكل رأسها، ولم تختلس نظرة إليه أو تتبادل معه النظر.

وتساءل إن كان في القاعة أحدٌ يراقبها أو يراقبه ويلاحظ إن كانا يتبادلان النظر أو الكلام... مثل هذا الاحتمال وارد. كانت قد استجابت لندائه في إعلان الصحيفة، ليكن هذا كافياً له. لم يضعف فضوله لكنه كان يعلم الآن على الأقل بأن دافني ثيودوفانوس (المعروفة باسم ماري آن) موجودة هنا في لندن، والاحتمال وارد بأن يعلم في المستقبل ما الذي يجري. ولكن خطة هذا العمل يجب

تركها لها، يجب أن يتبع قيادتها، فكما أطاعها من قبل في المطار فإنه سيطيعها الآن، وعليه أن يعترف الآن بأن الحياة قد أصبحت فجأة أكثر إثارة.

هذا أفضل من المؤتمرات المملة في حياته السياسية. هل حاولت سيارة دعسه حقاً في الليلة الماضية؟ رأى أن ذلك قد تم فعلاً... بل محاولتان وليس واحدة فقط. لكن الناس يقودون سياراتهم في هذه الأيام باستهتار ولذلك فمن السهل تَوهُّم وجود مكيدة خبيثة مدبرة حتى عندما لا تكون كذلك في حقيقتها. طوى برنامجه ولم ينظر إليه ثانية.

انتهت الموسيقى، فتكلمت المرأة الجالسة بجواره. لم تلتفت برأسها ولم تبدُ كمن يتكلم معه، لكنها تكلمت بصوت مرتفع مع تنهيدة صغيرة بين الكلمات وكأنها تحادث نفسها أو جارها على الجانب الآخر، قالت: «الشاب سيغفريد». ثم تنهدت ثانية.

انتهى البرنامج باللحن العسكري المعتاد، وبعد تصفيق حماسي بدأ الحضور يغادرون مقاعدهم. انتظر ليرى إن كانت ستعطيه أية إشارة، ولكنها لم تفعل. جمعت معطفها وحاجياتها وخرجت من صف الكراسي ثم مشت بخطوات متسارعة قليلاً مع الآخرين واختفت بين الجموع الخارجة.

عاد ستافورد ناي إلى سيارته وانطلق إلى البيت، ولدى وصوله فتح برنامج الحفل الموسيقي ووضعه على مكتبه وتفحصه بدقة بعد أن شغّل آلة صنع القهوة. كان البرنامج مخيباً للآمال ولم يدل على أية شيء، فلم يظهر أن فيه أية رسالة. إلاّ أنه على إحدى الصفحات وفوق

قائمة فقرات البرنامج كانت توجد علامات قلم الرصاص التي لاحظها وهو في القاعة دون أن يعرف ما هي. ولكن ظهر الآن أنها لم تكن كلمات أو حروفاً أو حتى أرقاماً، بدت مجرّد نوتة موسيقية، وكأن شخصاً قد خربش جملة موسيقية بقلم رصاص رديء. خطر ببال ستافورد ناي للحظة أنها ربما كانت رسالة سرية قد تظهر واضحة مع تعريضها للحرارة، فأمسك بها وهو يشعر بالخزي من خياله المفرط وقرّبها من المدفأة الكهربائية ولكن بلا نتيجة. تنهّد وألقى البرنامج على الطاولة، وقد أحس أن من حقه أن يتضايق بعد كل هذه الإجراءات المعقدة والمواعيد على جسر يطلّ على النهر في يوم عاصف ممطر والجلوس طوال حفلة موسيقية بجانب امرأة كان يتوق إلى سؤالها عشرات الأسئلة... وفي نهاية الأمر ما الذي حدث؟ لا شيء! ومع ذلك فقد جاءت وقابلته، فلماذا؟ إن لم تكن تريد التحدث إليه أو القيام ببعض الترتيبات الأخرى معه فلماذا جاءت أصلاً؟

نظر في أرجاء الغرفة دون تركيز وإلى خزانة الكتب التي كان يحتفظ فيها بالروايات البوليسية وعدد قليل من كتب الخيال العلمي، ثم هز رأسه. فكر بأن قصص الخيال تتفوق حتماً على الحياة الواقعية: جثث، مكالمات هاتفية غامضة، أعداد كبيرة من الجاسوسات الأجنبيات الجميلات... ومع ذلك فإن هذه السيدة المراوغة نفسها ربما لا تكون قد انتهت من أمره بعد. قرر عمل بعض الترتيبات الخاصة به في المرة القادمة، فيمكن لاثنين أن يلعبا اللعبة التي كانت تلعبها.

دفع البرنامج جانباً وشرب فنجان قهوة آخر ثم ذهب صوب النافذة. كان البرنامج لا يزال بيده، وبينما أطلّ على الشارع أسفل

منه وقعت عيناه مرة أخرى على البرنامج المفتوح في يده فتمتم بكلمات لاشعورية تقريباً. كانت له أذن موسيقية جيدة وكان يستطيع دندنة الجملة الموسيقية المدوَّنة على البرنامج بسهولة، وقد أحس وهو يدندنه بأنه لحن مألوف لديه على نحو غامض. ورفع صوته قليلاً، ما هو هذا اللحن الآن؟ «تام تام تام تيتام»... نعم، إنه لحن مألوف دون شك.

بدأ يفتح رسائله. كانت في معظمها رسائل عادية غير مثيرة، دعوتان واحدة من السفارة الأميركية والأخرى من الليدي أثلهامبتون لحضور حفل خيري منوع سيحضره أحد أفراد العائلة المالكة مقابل دفع رسم دخول قدره خمسة جنيهات. ألقى بهما جانباً وهو يشك في رغبته بتلبية أي منهما. وقد قرر أنه بدلاً من البقاء في لندن سيذهب لزيارة العمة ماتيلدا كما وعد.

كان يحب عمته على الرغم من أنه لم يكن يزورها كثيراً. كانت تعيش في شقة أُعيد إصلاحها مكوَّنة من سلسلة من الغرف في أحد أجنحة بيت ريفي كبير مبني منذ العهد الجورجي كانت قد ورثته عن جدّه. كانت عندها غرفة جلوس كبيرة جميلة وغرفه طعام صغيرة بيضاوية الشكل ومطبخ جديد كان في الأصل غرفة لمدبرة المنزل وغرفتا نوم للضيوف وغرفة نوم لها كبيرة ومريحة ومعها حمام مجاور ومكان مناسب لمرافقتها التي تقتسم معها حياتها اليومية، وكان البيت يؤوي ويعيل بشكل جيد أيضاً ما تبقّى من طاقم الخدم المخلصين. أما بقية المنزل فقد كان يعلوها الغبار رغم تنظيفها بين حين وآخر. كان ستافورد ناي يحب المكان كثيراً، إذ اعتاد أن يقضي أيام عطلته فيه عندما كان صبياً. وكان وقتها بيتاً مليئاً بالحيوية والنشاط.

كان عمه الأكبر قد عاش فيه مع زوجته وولديهما. نعم، لقد كان بيتاً مفرحاً مُبهجاً في ذلك الوقت ويوجد من المال والخدم ما يكفي لإدارته. لم يلحظ في تلك الأيام الصور واللوحات التي كانت فيه، كانت توجد لوحات كبيرة جداً من الفن الفكتوري وهي تغطي الجدران، كما كانت هناك لوحات رائعة أخرى أقدم منها لكبار فنّاني تلك المرحلة. نعم، كانت توجد لوحات جيدة هناك، وقد بيع بعضها بسبب حاجة العائلة إلى النقود، ومع ذلك كان يستمتع بزيارته للبيت وفي التسكع في أرجائه وتفحص صور العائلة.

كانت عمته ماتيلدا من النوع المِهذار الثرثار لكنها كانت تسعد بزياراته دائماً. وكان مغرماً بها ولكن بطريقة متقطعة غير منهجية، لكنه لم يكن متأكداً من سبب رغبته في زيارتها الآن فجأة وما الذي ذكّره بصور أفراد العائلة؟ أيمكن أن يكون السبب وجود صورة لأخته باميلا رسمها أحد أبرز الفنانين في ذلك الوقت قبل عشرين عاماً؟ بودّه أن يرى صورة باميلا وأن ينظر إليها عن قرب ليرى كيف هو التشابه بين أخته وبين المرأة الغريبة التي اقتحمت حياته بهذه الطريقة العنيفة حقاً.

أمسك ببرنامج الحفل الموسيقي ثانية وهو يشعر ببعض الغضب وبدأ يهمهم ويدندن الجملة الموسيقية المكتوبة بقلم الرصاص: «تام، تام، تيتام...»، ثم جاءته الفكرة وعرف ما هو ذلك اللحن. إنه اللحن الأساسي الذي بُنيت عليه مقطوعة سيغفريد، لحن «الشاب سيغفريد». هذا ما قالته تلك المرأة الليلة الماضية، ولم يكن واضحاً أنها قالته له ولا لأي شخص آخر، لكنها كانت الرسالة؛ رسالة لم يكن من شأنها أن تعني أي شيء لأي شخص

قريب حيث كانت ستعتبر إشارة إلى الموسيقى التي كانت تُعزَف قبل ذلك بقليل. كما أن اللحن الأساسي هذا كُتب أيضاً على البرنامج بجمل موسيقية... الشاب سيغفريد، لا بد أنها كانت تعني شيئاً. حسناً، قد يأتي بصيص نور ومعرفة فيما بعد. «الشاب سيغفريد»، ماذا يعني هذا؟ لماذا وكيف ومتى وماذا؟ يا لسخف كل أسماء الاستفهام هذه!

اتصل بالهاتف وطلب رقم العمة ماتيلدا.

- بالطبع يا ستافي، سيكون رائعاً أن أراك. اركب بقطار الرابعة والنصف، إنه ما زال يعمل ولكنه يصل هنا متأخراً ساعة ونصف الساعة، وهو يغادر محطة بادنغتون في الساعة الخامسة والربع. أظن أن هذا ما يعنونه بتحسين خدمات القطارات والسكة الحديدية... التوقف في محطات عديدة سخيفة وهو في طريقه. حسناً، سيكون هوريس في انتظارك عند كينغز مارستن.

- إذن فهو ما زال هناك؟

- بالطبع.

- هذا ما ظننته.

إن هوريس (الذي كان سائس خيل ثم سائق عربة خيل) استمر في خدمته ليعمل الآن سائق سيارة، وواضح أنه ما زال باقياً. قال ستافورد ناي وهو يبتسم في نفسه: لا بد أنه بلغ ثمانين عاماً على الأقل.

* * *

الفصل السادس
رسم لسيدة

قالت العمة ماتيلدا وهي تنظر إليه بإعجاب: تبدو جميلاً جداً ومُسمَرّاً يا عزيزي. أظن أن هذا ما فعلته بك الملايو، هل هي الملايو التي ذهبت إليها أم أنها سيام أم تايلند؟ إنهم يغيرون أسماء هذه الأماكن كلها ممّا يجعل الأمر صعباً للغاية. على أية حال فلم تكن فيتنام، أليس كذلك؟ لا أحب سماع كلمة فيتنام أبداً فهي مربكة ومحيرة؛ فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية والفييتكونغ والفييت... لا أعرف ماذا، وكل واحد من هذه يحارب الآخرين ولا أحد يريد أن يوقف الحرب، وهو يأبون الذهاب إلى باريس للجلوس حول طاولة المفاوضات والتحدث معاً بلغة العقل. ألا تعتقد يا عزيزي... كنت أفكر في هذا الأمر وأعتقد أنه قد يكون حلاً جيداً... ألا يمكنكم عمل ملاعب كرة قدم كثيرة حتى يذهبوا جميعاً إليها ويقتتلوا فيها، ولكن بأسلحة أقل فتكاً ودماراً؟ ليس بقنابل النابالم المخيفة تلك بل بأن يتلاكموا ويتصافعوا فقط... سوف يستمتعون بهذا، الكل سيستمتع به ويمكنك أخذ رسوم دخول من الناس حتى

يذهبوا ويشاهدوهم وهم يفعلون ذلك... أعتقد أننا لا ندرك أنّ علينا أن نعطي الناس الأشياء التي يحتاجونها حقاً.

قال السير ستافورد ناي وهو يقبّل وجنتَي عمته الشاحبتين المتجعدتين: أعتقد أنها فكرة رائعة جداً منك يا عمتي. وكيف حالك يا عزيزتي؟

- أنا عجوز، نعم عجوز. أنت لا تعرف ماذا يعني أن يكون المرء عجوزاً بالطبع... إن لم يصبك هذا المرض أصابك غيره؛ الروماتزم أو التهاب المفاصل أو الربو أو ألم في الحنجرة أو التواء في الكاحل... توجد دوماً عِلّة ما. قد لا تكون عِلّة خطيرة ولكنها موجودة دائماً. ما الذي أحضرك لرؤيتي يا عزيزي؟

فوجئ السير ستافورد قليلاً من هذا السؤال المباشر. قال: إنني آتي في العادة لرؤيتك عندما أعود من رحلة في الخارج.

- اقترب مني أكثر؛ لقد زاد ضعف سمعي منذ أن رأيتني آخر مرة. إنك تبدو مختلفاً... لماذا تبدو مختلفاً؟

- لأن الشمس لوّحَت بشرتي، أنتِ قلت ذلك.

- هراء، ليس هذا ما عنيته أبداً. لا تقل لي إن التغير بسبب فتاة أخيراً.

- فتاة؟

- كنت أشعر دائماً أنه لا بد أن تدخل فتاةٌ حياتَك يوماً ما. المشكلة أن لديك الكثير من روح الدعابة.

- وما الذي يجعلك تظنين ذلك؟

- هذا ما يراه الناس فيك. آه، نعم، هكذا يرونك. كما أن روحك الفكاهية تقف في طريق تقدمك المهني أيضاً، فأنت -كما تعلم- تختلط دائماً مع كل هؤلاء الناس، الدبلوماسيين والسياسيين وما يسمونهم برجال الدولة، الصغار منهم والكبار والوسط، وكل هذه الأحزاب المختلفة... أنا أرى أن من السخف حقاً وجود هذا العدد الكبير من الأحزاب، فهناك -أولاً- هؤلاء العمال الفظيعون...

ثم شمخت بأنفها في الهواء وقالت: عندما كنت فتاة لم يكن هناك شيء اسمه حزب العمال، ما كان أحد ليعرف ما الذي تعنيه بهذه الكلمة، ولو سألتهم عنها وقتها لقالوا لك إنها هراء. وهناك الأحرار بالطبع لكنهم متحررون جداً، ثم هناك اليمين أو من يسمون أنفسهم الآن بالمحافظين.

قال ستافورد ناي وهو يبتسم قليلاً: وما بال هؤلاء جميعاً؟

- هذه الأحزاب تفتقر إلى البهجة.

- آه، ما من حزب سياسي يتبنى البهجة كثيراً هذه الأيام.

- بالضبط، وفي هذه النقطة بالذات يمكن خطؤك؛ فأنت تريد إشاعة البهجة والمرح في محيطك، تريد شيئاً من جو الفرح ولذلك تمارس شيئاً من الفكاهة البريئة على الناس حولك، وهم لا يحبون ذلك بالطبع ويصفونك بقولهم: «إنه ليس فتى جاداً»، تماماً مثل ذلك الرجل الذي كان يصيد السمك.

ضحك السير ستافورد ناي. كانت عيناه تتجولان في أرجاء الغرفة، وقالت الليدي ماتيلدا: ما الذي تنظر إليه؟

- صورك.

- لا أظنك تريدني أن أبيعها؟ يبدو أن الجميع يبيعون لوحاتهم هذه الأيام، حتى اللورد غرامبيون العجوز باع لوحته التي رسمها تيرنر كما باع بعضاً من لوحات أجداده. وجيوفري غولدمان باع كل لوحات الخيول الجميلة التي كان يملكها. لقد رسمها ستَبس، أليس كذلك؟ اسم قريب من هذا. إنهم يحصلون على أسعار لا تصدق! لكني لا أريد بيع لوحاتي، فأنا أحبها. معظم الصور واللوحات الموجودة في هذه الغرفة لها قيمة حقيقية لأنها صور أجدادي. أعرف أن أحداً لا يريد أجداده الآن، ولكني من طراز قديم وأحب أجدادي! إلى ماذا تنظر؟ إلى باميلا؟

- نعم، كنت أنظر إليها. كنت أفكر فيها بالأمس.

- غريب كم تبدوان متشابهين، أقصد أن الشبه بينكما يتجاوز حتى الشبه بين توأمين، رغم أنهم يقولون إن التوأمين من جنسين مختلفين لا يمكن أن يكونا متطابقين في الشبه.

- إذن لا بد أن شكسبير قد أخطأ بخصوص التوأمين فيولا وسيباستيان؟

- قد يتشابه الإخوة والأخوات العاديون، أليس كذلك؟ كنتَ وباميلا متشابهَين كثيراً... أقصد من حيث الشكل.

- ليس من أية ناحية أخرى؟ ألا تعتقدين أننا كنا متشابهين في الشخصية؟

- أبداً، لم تكونا متشابهين في هذه أبداً، وكان ذلك هو المضحك في الأمر. لكنكما كنتما تمتلكان ما أسمّيه «وجه العائلة». ليس وجه عائلة ناي، بل أقصد وجه بالدوين وايت.

لا يستطيع السير ستافورد ناي المنافسة أبداً عندما يدور الحديث مع عمته حول مسألة الأنساب. وأكملت تقول: اعتقدت دائماً أنك وباميلا تشبهان أليكسا.

- ومن هي أليكسا هذه؟

- إنها جدتك الثانية أو الثالثة. كانت مجريّة... كونتيسة أو بارونة مجريّة أو شيئاً من هذا القبيل، وقد وقع جدك الثاني أو الثالث في حبها عندما كان يعمل في السفارة في فينا. نعم، مجريّة. وكانت رياضية أيضاً، فالمجريون رياضيون كما تعرف. كانت تركب الخيل للصيد وكانت بارعة جداً في ركوب الخيل.

- هل لها صورة في مجموعتك؟

- صورتها معلقة عند الاستراحة الأولى للدرج عند قمة الدرج تماماً، إلى اليمين قليلاً.

- يجب أن أذهب لأنظر إليها عندما أتوجه إلى النوم.

- لمَ لا تذهب وتنظر إليها الآن ثم تعود لنتحدث عنها؟

ابتسم وهو يقول: سأفعل إن شئت.

خرج من الغرفة مسرعاً وصعد الدرج. نعم، كانت لماتيلدا العجوز عين حادة. كان ذلك هو الوجه... هو الوجه الذي رآه وتذكّره، تذكّره ليس بسبب التشابه معه ولا حتى بسبب تشابهه مع باميلا، ولكن بسبب شَبَه أكبر مع هذه الصورة هنا. فتاة مليحة جلبها إلى الوطن جده الأكبر الذي كان يعمل سفيراً، كانت في نحو العشرين من عمرها وقد جاءت إلى هنا، وكانت جريئة وتركب الخيل بطريقة بارعة ووقع الرجال في حبها، لكنها كانت مخلصة لجده الأكبر، هذا ما كان يُقال دائماً، وهو عضو مثابر ومتزن في السلك الدبلوماسي. وقد سافرت معه إلى عدد من السفارات في الدول الأجنبية وعادت إلى هنا وأنجبت أطفالاً، ثلاثة أو أربعة على ما يظن. وقد انتقل عبر أحد أطفالها هؤلاء شكل وجهها وأنفها ولفّة رقبتها ليصل إليه وإلى أخته باميلا. وتساءل إن كانت الفتاة التي وضعت له المنوّم في شرابه وأرغمته على أن يعيرها عباءته... تساءل إن كانت لها قرابة بعيدة معه من الدرجة الخامسة أو السادسة من نسل المرأة التي عُلِّقت صورتها على الجدار والتي ينظر إليها الآن. قد يكون هذا ممكناً، ربما كانا من الموطن نفسه.

* * *

سألته الليدي ماتيلدا عندما عاد إلى غرفة الاستقبال البيضاء: هل وجدتها؟ إنها ذات وجه مثير للاهتمام، أليس كذلك؟

- بلى، كما أنها كانت مليحة جداً.

- من الأفضل وصفها بأنها مثيرة للاهتمام وليس بأنها مليحة. ولكنك لم تكن في المجر أو النمسا، أليس كذلك؟ ولم تكن لتقابل

امرأة مثلها في الملايو؟ ما كانت لتجلس أمام طاولة هناك تكتب ملاحظات صغيرة أو تصحح خطابات أو شيئاً من هذا القبيل؛ لقد كانت امرأة جموحاً من كل الوجوه، رغم أنها كانت مهذبة وذات سلوك جيد. كانت جَموحاً كطائر بري ولم تكن تعرف الخطر.

- وكيف عرفت عنها كل هذا؟

- أنا لم أكن معاصرة لها لأنني لم أولد إلاّ بعد وفاتها بعدة سنوات، لكنني اهتممت بها دوماً، فقد كانت امرأة مغامرة، مغامرة جداً. وقد حُكيت عنها حكايات غريبة جداً... عن أمور تورطت فيها.

- وماذا كان ردّ فعل جدي الأكبر تجاهها؟

- أظن أن ذلك كان يقلقه كثيراً، لكنهم يقولون إنه كان مخلصاً لها وكان يحبها. بالمناسبة يا ستافي، هل قرأت قصة سجين زندا؟

- سجين زندا؟ تبدو مألوفة جداً.

- إنها مألوفة بالطبع، إنها قصة.

- نعم، نعم، أعرف أنها قصة.

- أظن أنك ما كنت لتعرفها لأنها ليست من زمانكم، ولكن عندما كنت فتاة صغيرة كانت تلك القصة أول تعرّف لنا على القصص الرومَنسية. لم تكن مثل أغاني البوب والبيتلز الشائعة في هذه الأيام، بل مجرد رواية رومنسية. ولم يكن مسموحاً لنا أن نقرأ الروايات عندما كنت صغيرة، وبالذات وقت الصباح. لقد كنّا نقرأها بعد الظهر.

- إنها قوانين غريبة. لماذا تُحظر قراءة الروايات في الصباح ويسمح بها بعد الظهر؟

- كان يُفترض بالفتيات في الصباح أن يقمن بأعمال مفيدة: عمل الورود وتنظيف إطارات الصور الفضية وكل الأشياء التي كنّا معشر الفتيات نقوم بها، وكنا نأخذ بعض الدروس من المربية. أما بعد الظهر فكان يُسمح لنا بالجلوس وقراءة قصة أو كتاب، وكانت رواية «سجين زندا» هي أول ما يخطر على بالنا قراءته.

- إنها قصة جميلة ومحترمة، أليس كذلك؟ كأنني أتذكّر شيئاً عنها، بل ربما كنت قد قرأتها.

- كانت قصة رومنسية جداً، وكانت الواحدة منا تقع -عادة- في حب البطل رودولف راسيندل.

- يبدو أنني أتذكر هذا الاسم أيضاً. اسم منمَّق، أليس كذلك؟

- ما زلت أعتقد أنه اسم رومنسي... كنت في سن الثانية عشرة تقريباً. إن ما جعلني أفكر فيها هو ذهابك ونظرك إلى تلك الصورة... الأميرة فلافيا!

راح ستافورد ناي يبتسم لها وقال: إنك تبدين شابة ومتوردة الخدين وعاطفية جداً.

- هذا ما أشعر به. ولا يمكن لفتيات هذه الأيام أن يشعرن بنفس الشعور؛ فهن يقعن مغشياً عليهن من الحب أو يغمى عليهن عندما يعزف شخص على الغيتار أو يرفع عقيرته بالغناء، ولكنهن

لسن عاطفيات مع ذلك. على أي حال أنا لم أكن أحب رودولف راسيندل، بل كنت أحب الشاب الآخر... بديله.

- وهل كان لديه بديل؟

- نعم، ملك... ملك روريتانيا.

- آه، بالطبع، لقد تذكرت الآن... من هنا جاءت كلمة روريتانيا. نعم، أظن أنني قرأتها. ملك روريتانيا، ورودولف راسيندل كان بديلاً لملك وقع في حب الأميرة فلافيا التي كانت خطيبة الملك رسمياً.

تنهدت الليدي ماتيلدا وقالت: نعم. لقد ورث رودولف راسيندل شعره الأحمر من إحدى جداته، وفي مكان ما من القصة كان ينحني أمام إحدى الصور ويقول شيئاً عن... لا أتذكر الاسم الآن... الكونتيسة أميليا أو اسماً قريباً من هذا. تلك التي ورث عنها نظراته وأشياء أخرى. ولذلك نظرت إليك وفكرت فيك على أنك رودولف راسيندل، ثم خرجتَ لتنظر إلى صورة امرأة ربما كانت إحدى جداتك ولترى إن كانت تذكّرك بواحدة معينة. إذن فأنت متورط بعلاقة حب من نوع معين، أليس كذلك؟

- ما الذي جعلك تقولين هذا؟

- لا يوجد الكثير من الأنماط في الحياة، ولذلك فإننا نميز الأنماط عندما تظهر. إن الأمر يشبه ما يحدث في كتب الغَزْل بالصنارة؛ إذ تجد في كل كتاب منها أكثر من ستين نموذجاً غريباً للنقشات، ولكنك تميّز نقشه معينة عندما تراها. وأظن أن نقشتك

هذه المرة هي نقشة علاقة حب رومنسية، ولكنك لا ترغب بإخباري عنها.

- لا يوجد لديّ ما أقوله.

- لقد كنت دوماً كذاباً بارعاً. حسناً، لا يهم، سوف تحضرها لرؤيتي في وقت من الأوقات. هذا كل ما أريده، قبل أن ينجح الأطباء في قتلي بنوع آخر من المضادات الحيوية التي اكتشفوها لتوهم. عليّ أن أتناول أقراصاً مختلفة الألوان لن تصدق عينيك إذا ما رأيتها!

- لا أدري لماذا تعتقدين أنها امرأة...

- أحقاً لا تدري؟ آه، إنني أعرف العلامات التي تتركها النساء عندما أراها على أحد. ثمة امرأة في زاوية ما من حياتك. لكن ما يحيرني هو كيف وجدتَها: في الملايو حول طاولات المؤتمرات؟ ابنة سفير أو وزير؟ سكرتيرة جميلة من جماعة السفارة؟ لا، لا أحد من هؤلاء يبدو مناسباً. في السفينة وأنت عائد إلى وطنك؟ لا، أنت لا تسافر في السفن هذه الأيام. أتراك قابلتها في الطائرة؟

لم يستطع السير ستافورد ناي منع نفسه من القول: إنك تقتربين قليلاً.

انقضّت عليه قائلة: آه، مضيفة جوية؟

هزّ رأسه نافياً فقالت: حسناً، أبقِ السر في نفسك، ولكني سأكتشف الحقيقة. إن لديّ حاسة قوية دائماً في كشف كل ما يجري عندما يتعلق الأمر بك، بل بباقي الأمور عموماً. أنا بعيدة عن كل

شيء الآن بالطبع لكنني أقابل أصدقائي القدامى من وقت إلى آخر، ومن السهل جداً الحصول منهم على إشارة هنا أو هناك. الناس قلقون، قلقون في كل مكان.

- هل تقصدين أن هناك شعوراً عاماً بالاستياء... الانزعاج؟

- لا، لم أقصد هذا أبداً. ما أعنيه هو أن المسؤولين قلقون؛ حكوماتنا السيئة قلقة، ووزارة الخارجية العزيزة النائمة قلقة. هناك أشياء تجري، أشياء ينبغي أن لا تكون... قلاقل.

- قلاقل طلابية.

- آه، القلاقل الطلابية ما هي إلاّ واحدة فقط من ثمار تلك الشجرة. ولكن الثمار تنضج في كل مكان وفي كل بلد، أو هكذا يبدو. ثمة فتاة لطيفةٌ تأتي عندي كل صباح لتقرأ لي الصحف لأنني لا أستطيع قراءتها بنفسي بشكل جيد. صوتها جميل وهي تكتب لي رسائلي وتقرأ لي الأخبار من الصحف كما أنها فتاة طيبة، تقرأ الأشياء التي أريد معرفتها وليس الأشياء التي تراها هي مناسبة لي. نعم، الجميع قلقون حسب استنتاجي، وقد عرفت هذا من أحد أصدقائي القدامى.

- واحد من أصدقائك العسكريين العجائز؟

- إنه ضابط كبير سابق إن كان هذا ما تقصده، متقاعد منذ سنوات عديدة لكنه مازال مُطّلعاً وقريباً من الأحداث. يمكنك أن تقول إن الشباب هم رأس الحربة في هذا كله، لكن هذا ليس ما يقلق. إنهم -أيّاً كانوا- يعملون من خلال الشباب، شباب في

كل بلد، شباب تم تحفيزهم فانطلقوا يهتفون بشعارات تبدو مثيرة للحماسة، على الرغم من أنهم لا يعرفون معناها دائماً. من السهل جداً إشعال ثورة؛ إنه أمر طبيعي بالنسبة للشباب، فالشباب هم الذي يثورون دائماً. إنك تثور وتخرب وتريد أن يتغير العالم من الحالة التي هو عليها، ولكنك تكون أعمى أيضاً. إن الشباب معصوبو الأعين بحيث لا يرون إلى أين تقودهم أعمالهم هذه وما الذي سيحدث بعد ذلك، لا يرون ما الذي أمامهم ومَن الذي خلفهم يدفعهم ويحفزهم... هذا هو المخيف في هذا الأمر. هناك مَن يمدّ الجزرة لكي يحمل الحمار على التقدم، وفي الوقت نفسه هناك من يقف خلفه بعصاه دافعاً إياه على التقدم.

- لديك بعض التخيلات الغريبة.

- إنها ليس تخيلات فقط يا عزيزي؛ هذا ما قاله الناس عن هتلر... هتلر وشبيبته.

- لكنه كان إعداداً طويلاً ومتأنياً، كانت حرباً نُسجت خيوطها بالتفصيل.

- إنه الطابور الخامس الذي زُرع في بلاد مختلفة ليقف الجميع مستعدين لاستقبال الرجل المتفوق. كان يُفترض بالرجال المتفوقين أن يكونوا زهرة الأمة الألمانية، هذا ما كانوا يرونه ويؤمنون به بحماسة شديدة... وقد يكون هناك الآن أشخاص يعتقدون مثل ذلك الاعتقاد. إنها عقيدة سيكونون على استعداد لقبولها إذا ما عُرضت عليهم بطريقة ذكية.

- عمّن تتحدثين؟ هل تقصدين الصينيين أم الروس؟ ما الذي تعنينه؟

- لا أعرف. ليست لديّ فكرة، ولكن يوجد شيء ما في مكان ما وهو يجري على المنوال نفسه والنمط ذاته مرة أخرى. أترى؟ إنه النمط مرة أخرى! الروس الذين غرقت أقدامهم في مستنقع الشيوعية؟ أظن أنهم يُعتبرون عتيقي الطراز في وسائلهم. الصينيون؟ أظن أنهم ضلوا طريقهم، وهم مشغولون بتقديس الرئيس ماو. لا أعرف مَن هم هؤلاء الذين يخططون، وكما قلت من قبل فإن المسألة هي: لماذا وأين ومتى ومن؟

- مثير جداً.

- إن هذه الفكرة نفسها التي تظهر دائماً مخيفة جداً... التاريخ يعيد نفسه: البطل الصغير، السوبرْمان الذهبي الذي يجب على الجميع أن يتبعوه.

سكتت قليلاً ثم قالت: الفكرة ذاتها، فكرة الشاب سيغفريد.

* * *

الفصل السابع
نصيحة العمة ماتيلدا

نظرت إليه العمة ماتيلدا. كانت حادة البصيرة والبصر، لقد لاحظ ستافورد ناي ذلك عليها من قبل وهو يلاحظه الآن في هذه اللحظة. قالت: إذن فقد سمعت بهذه العبارة من قبل؟ فهمت.

- ما الذي تعنينه؟

رفعت حاجبيها دهشة وقالت: ألا تعرف؟

قال السير ستافورد بأسلوب طفولي: أحلف بحياة بابا وماما...

- نعم، كنا نقول ذلك دائماً. هل تعني ما تقوله حقاً؟

- لا أعرف عن تلك العبارة أي شيء.

- لكنك سمعت التعبير من قبل؟

- نعم، قاله لي أحد الأشخاص.

- أهو شخص مهم؟

- ربما، ربما كان مهماً. ما الذي تقصدين بقولك «شخصٌ مهم»؟

- لقد شاركتَ في مهمات حكومية مختلفة في الفترة الأخيرة، أليس كذلك؟ لقد مثلت هذا البلد البائس الفقير بأفضل ما تستطيعه من أداء، ولن أعجب إن علمت أن ذلك الأداء لم يكن أفضل مما يقدمه أي شخص آخر في مكانك، في مهنة لا تتطلب إلاّ الجلوس حول الموائد والحديث. لا أدري إن كانت كل تلك الأحاديث تُنتج شيئاً.

- قد لا تنتج شيئاً، فالمرء لا يكون متفائلاً عندما يذهب إلى مثل تلك الاجتماعات.

صحّحت له قائلة: يبذل المرء أفضل ما لديه.

- إنه مبدأ ديني تماماً. ولكن في هذه الأيام إنْ بذَلَ المرء أسوأ ما لديه تكون فرصته في التقدم أفضل بكثير غالباً. ما الذي يعنيه كل ذلك يا عمتي؟

- لا أظن أنني أعرف.

- إنك تعرفين الأشياء في الغالب.

- ليس بالضبط. إنني أسمع أشياء من هنا وهناك فقط.

- نعم؟

- بعض أصدقائي القدامى ما زالوا على قيد الحياة، أصدقاء مطّلعون على الأمور. وقد أصبح معظمهم -بالطبع- إما صُمّاً كالحجارة عملياً، أو نصف عميان، أو غزا الخرف رؤوسهم، أو أقعدهم الكبر عن السير بثبات... ولكن ما زال فيهم شيء يعمل.

ثم أشارت إلى أعلى رأسها الأبيض وهي تقول: شيء هنا.

هناك الكثير من الهلع والجزع المنتشر... أكثر من المعتاد. هذه هي إحدى الأشياء التي التقطتها منهم.

- ألا يوجد مثل هذا دائماً؟

- بلى، بلى، لكن هذا أكثر قليلاً من المعتاد. يمكنك أن تقول إنه شر فاعل أكثر منه منفعل. منذ فترة طويلة وأنا ألاحظ من الخارج (كما تلاحظ أنت من الداخل دون ريب) بأننا نشعر بأن الأمور فوضى، فوضى شديدة. لكننا وصلنا الآن إلى نقطة نشعر معها بأن شيئاً ما قد تم عمله في هذه الفوضى. إن في الأمر عنصر خطر، إن شيئاً يجري... شيئاً يتفاعل ويختمر. ليس في بلد واحد فقط بل في الكثير من البلدان. لقد جنّدوا جيشاً خاصاً بهم، والخطير في الأمر أنه جيش من الشباب ومن أولئك الناس المستعدين للذهاب إلى أي مكان وفعل أي شيء والإيمان -للأسف- بكل شيء، وما دامت تبذل لهم وعود بالقيام بالكثير من أعمال التخريب والتدمير وشلّ مرافق الحياة فإنهم يعتقدون أن القضية لا بد أن تكون قضية جيدة وأن العالم سيغدو مكاناً أفضل. إنهم ليسوا مبدعين بنّائين بل مدمّرين سلبيين، وهذه هي المشكلة. الشباب المبدع يكتب الأشعار والقصص وربما يؤلف الألحان الموسيقية ويرسم اللوحات كما كان شأنه عبر التاريخ كلما أراد التغيير، ولا بأس بذلك كله... ولكن عندما يتعلم الناس حب التدمير لمجرد التدمير فإن قيادة الشر تأخذ فرصتها.

- تقولين هم وإنهم... من الذين تقصدين؟

- ليتني أعرف. نعم، ليتني أعرف. إذا سمعت شيئاً مفيداً فسوف أخبرك، وعندها يمكنك أن تفعل شيئاً بخصوصه.

- ليس لديّ -للأسف- من أخبره أو أنقل إليه المعلومات.

- نعم، لا تنقل شيئاً لأي كان، إذ ليس بوسعك أن تثق بالناس. لا تنقل الأمر لأي من الحمقى في الحكومة أو المرتبطين بالحكومة أو ممّن يأملون بالمشاركة في الحكومة بعد انقضاء مدة الحكومة الحالية. ليس لدى السياسيين الوقت للنظر إلى العالم الذي يعيشون فيه، إنهم يرون البلد الذي يعيشون فيه ولكنهم لا يرونه إلاّ كمنطقة انتخابية واسعة. إنهم يفعلون أشياء يؤمنون بصدق أنها ستحسّن الأحوال ثم تأخذهم الدهشة إذ يجدون أنها لم تحسن الأحوال لأنها ليست الأشياء التي يريدها الناس. ولا يمكن للمرء إلاّ أن يتوصل إلى نتيجة تقول إن رجال السياسة يحسون أن لديهم نوعاً من الحق الإلهي بأن يكذبوا إذا تعلق الأمر بقضية يرونها جيدة. ألم يقل السيد بولدوين بالأمس القريب: لو أنني قلت الحقيقة لكنت خسرت الانتخابات؟! إن رؤساء الوزارات ما زالوا يشعرون بالشعور ذاته، ونحمد الله إذ يمنّ علينا -بين حين وآخر- برجل عظيم، ولكن ذلك نادر الحدوث.

- حسناً، وما الذي تقترحين عمله؟

- هل تطلب نصيحتي؟ أنا؟ هل تعرف كم هو عمري؟

- قريب من التسعين.

- ليس إلى هذا الحد. هل أبدو كذلك يا عزيزي؟

- لا يا عمتي؛ إنك تبدين امرأة جميلة في السادسة والستين من العمر.

- هذا أفضل. غير صحيح أبداً، ولكنه أفضل. إذا حصلت على أية معلومة من أحد أصدقائي العجائز من الأدميرالات أو الجنرالات أو حتى مارشالات الجو... فهم يسمعون أشياء كما تعلم، ما يزال لديهم أصدقاء، وهؤلاء العجائز يجتمعون ويتحدثون، وهكذا تدور المعلومات وتنتقل.

- لقد وُجدت قنوات تتسرب منها المعلومات على الدوام، وستبقى مثل تلك القنوات موجودة بغضّ النظر عن تقدم أولئك الناس بالسن وتكتمهم.

- الشاب سيغفريد... نريد مفتاحاً يدلنا على ما تعنيه هذه العبارة. لا أدري إن كانت رمزاً لشخص أو كلمة سر أو اسماً لأحد النوادي أو المُخلِّص الجديد، أو اسم أحد المغنين الشعبيين... ولكنها عبارة تخفي وراءها شيئاً ما. هناك أيضاً الجذر اللحني للموسيقى التي تذكّر بها العبارة. لقد نسيت أيام كنت معجبة بفاغنر.

ثم دندنت بصوتها الأجش لحناً لا يكاد يَبين وقالت: أظن أن اسمه «نداء مزمار سيغفريد»، أليس كذلك؟ لِمَ لا تحضر مسجّلاً؟ نعم، أحضر مسجلاً وتعلّمْ كيف تعزف نداء مزمار سيغفريد. إنك موسيقي، أو هكذا كنتَ دائماً. أظن أنك تستطيع ذلك؟

- يبدو هذا دوراً صغيراً جداً ألعبه من أجل إنقاذ العالم! أظن أن باستطاعتي ذلك.

- جهّز هذا اللحن وأتقنه، لأنك...

ضربت على الطاولة بعلبة نظارتها وقالت: لأنك قد تحتاجه

يوماً ما لكي تترك أثراً طيباً لدى أولئك الناس الخاطئين. ربما ثبتت فائدة ذلك، لأن من شأنهم عندها أن يرحّبوا بك ويفتحوا لك أذرعهم، وعندها قد تستطيع معرفة شيء ما.

قال السير ستافورد معجباً: لديك أفكارٌ رائعة بالتأكيد.

- وما الذي عساك تملكه غير ذلك عندما تكون في مثل سني؟ عندما لا تستطيع الخروج والحركة، ولا يمكنك الاختلاط بالناس كثيراً، ولا تستطيع القيام بأعمال الحديقة...؟ كل ما تستطيع عمله هو الجلوس على كرسيك واستحضار الأفكار. تذكر كلامي هذا بعد أربعين سنة من الآن.

- ملاحظة واحدة قلتِها أثارت اهتمامي.

- واحدة فقط؟ يا لضآلة ذلك مقارَنة بالكلام الكثير الذي قُلته! ما هي تلك الملاحظة؟

- قُلتِ إنني ربما استطعت التأثير على الناس المخطئين بما أحفظه... هل هذا ما كنت تعنينه؟

- حسناً، إنها إحدى الطرق، أليس كذلك؟ العبرة ليست في الناس العاديين بل في الخاطئين. عليك أن تكتشف الأشياء، عليك أن تخترق الحجب كخنفساء الخشب التي تعطي نذيراً بحدوث موت وشيك.

- عليّ إذن أن أصدر أصواتاً مزعجة في الليل أيضاً، أليس كذلك؟

- بلى، شيء من هذا القبيل. كانت لدينا خنفساء خشب في الجناح الشرقي من هذا المنزل ذات يوم، وقد كلفنا القضاء عليها أموالاً كثيرة، وأظن أن إصلاح العالم سيكلف أموالاً أكثر.

- أكثر بكثير في الواقع.

- لن يهتم أحد للكلفة. الناس لا يمانعون في صرف الكثير، فذلك يثير عجبهم واستحسانهم، بينما تراهم يرفضون المشاركة عندما تريد التقشف في إدارة الأمور. إننا لم نتغير... أقصد في هذا البلد؛ نحن كما كنا دائماً.

- ماذا تقصدين بهذا؟

- إننا قادرون على القيام بعظائم الأمور. كنا بارعين في إدارة إمبراطورية كبرى، رغم أننا لم نبرع في الحفاظ على الإمبراطورية. ولكننا لم نعد نحتاج إلى إمبراطورية، وقد أدركنا تلك الحقيقة أخيراً. كان من الصعب جداً الوفاء بالتزاماتها. روبي هو الذي جعلني أفهم هذه الحقيقة.

بدا الاسم مألوفاً لديه بعض الشيء. قال: روبي؟

- روبي بورتمان، أو روبرت بورتمان. إنه صديق قديم لي، وقد أصيب جانبه الأيسر بالشلل لكنه ما زال يستطيع أن يتكلم، كما أنه يضع في أذنه جهازاً يساعده على السمع.

- إلى جانب كونه واحداً من أشهر الفيزيائيين في العالم. إذن فهو واحدٌ آخر من أصدقائك القدامى؟

- أعرفه منذ أن كان صبياً. أظن أنك مدهوش لأننا صديقان ولدينا أشياء كثيرة مشتركة ونستمتع بالحديث معاً؟

- ما كنت لأظن أنكما...

- أن لدينا الكثير مما يمكن أن نتحدث فيه؟ صحيح أنني لا أفهم الرياضيات، فلحسن الحظ لم أحاول فهمها عندما كنت فتاة. لكن أظن أن روبي كان يفهم الرياضيات بسهولة منذ أن كان في الرابعة من عمره. يقولون الآن إن هذا أمر طبيعي تماماً. إن لديه الكثير ليحدثني حوله؛ لقد كان دوماً معجباً بي لأنني كنت فتاة عابثة وكنت أُضحكه، كما أنني مستمعة جيدة. والحق أنه يقول أحياناً أشياء مثيرة جداً.

قال ستافورد ناي باستخفاف: هذا ما أظنه.

- لا تكن مغروراً. لقد تزوج موليير بخادمته ونجح زواجهما نجاحاً عظيماً... إن كان موليير هو الذي فعل ذلك. إذا كان الرجل عبقرياً فإنه لا يحتاج حقاً إلى امرأة عبقرية مثله تتحدث معه، إذ إن ذلك يصبح عملاً شاقاً مضجراً، ولذلك تراه يفضّل كثيراً امرأة جميلة حمقاء بوسعها أن تضحكه. لم أكن قبيحة المنظر عندما كنت شابة، أعرف أنني لا أملك شهادات علمية ولست واسعة الثقافة أبداً، لكن روبرت كان يقول دائماً إنني أملك كثيراً من الذكاء والنظرة السليمة.

- أنت امرأة رائعة. إنني أستمتع برؤيتك ولقائك، وسوف أذهب وأنا أتذكر كل الأشياء التي قلتها لي. وأظن أن هناك أشياء كثيرة

جداً يمكنك أن تقوليها لي ولكن من الواضح أنك لا تريدين ذلك.

- لن أقولها إلا في الوقت المناسب، لكني أعرف اهتماماتك. أبلغني بما تفعله من وقت لآخر. أنت ذاهب لتناول العشاء في السفارة الأمريكية في الأسبوع القادم، أليس كذلك؟

- كيف عرفت ذلك؟ لقد دُعيت إلى العشاء.

- وقد علمت أنك وافقت؟

- نعم، من باب الواجب.

نظر إليها بفضول وقال: كيف تنجحين في أن تكوني مطّلعةً إلى هذا الحد؟

- آه، ميلي هي التي أخبرتني.

- ميلي؟

- ميلي جين كورتمان، زوجة السفير الأمريكي. إنها امرأة جذابة جداً، ضئيلة الجسم لكنها جميلة جداً.

- آه، تقصدين ميلدريد كورتمان.

- سمّاها أبواها ميلدريد لكنها تفضل اسم ميلي جين. كنت أتحدث معها بالهاتف بخصوص حفل خيري... إن فتنتها أقصر طريق إلى جيوب المتبرعين.

قال ستافورد ناي: إنه تعبير لطيف.

* * *

الفصل الثامن
عشاء السفارة

عندما تقدمت السيدة كورتمان مادّةً يدها لتحيته تذكر التعبير الذي استخدمته عمته في وصفها. كانت ميلي جين كورتمان امرأة بين الخامسة والثلاثين والأربعين من العمر، ناعمة الملامح ذات عينين زرقاوين واسعتين ورأس جميل جداً مع شعر مصبوغ يعطي رأسها جمالاً جذاباً كان يناسبها. كانت مشهورة جداً في لندن، أما زوجها سام كورتمان فكان رجلاً ضخم الجسم ثقيلاً تنقصه الرشاقة، وكان فخوراً جداً بزوجته. كان من أولئك الذين يتحدثون ببطء مشددين على كلامهم بحيث يجد مستمعوه أن انتباههم يشرد بين الحين والحين عندما يغوص في شرح مطوَّل لنقطة لا تكاد تستحق الذكر. قال مُرَحّباً: لقد عدتَ من الملايو، أليس كذلك يا سير ستافورد؟ لا بد أنها كانت رحلة مثيرة، على الرغم من أنه ليس الوقت المناسب من السنة لهذه الرحلة. نحن جميعاً سعداء بعودتك. والآن دعني أعرّفك على ضيوفنا: أنت تعرف الليدي ألدبورو والسير جون والسيد فون روكن والسيدة فون روكن والسيد ستاغنهام وزوجته.

كانوا جميعاً معروفين لدى ستافورد ناي على درجات متفاوتة. الزوجان فون روكن لم يرَهما من قبل حيث إنهما لم يُعيَّنا في السفارة الألمانية إلاّ مؤخراً، أما ستاغنهام فهو وزير الضمان الاجتماعي ومعه زوجته، وقد كان يرى دوماً أنهما زوجان مملان جداً.

- وهذه الكونتيسة ريناتا زيركوفسكي. أظنها قالت إنها التقت بك من قبل.

قالت الكونتيسة: لا بد أن ذلك كان قبل سنة تقريباً، عندما كنت في آخر زيارة لي إلى إنكلترا.

ها هي -إذن- صاحبته المسافرة من فرانكفورت مرة أخرى! كانت رابطة الجأشِ مطمئنّة وبدت جميلة في معطف الفرو الرمادي الثمين. كانت تصفّ شعرها عالياً (هل كانت باروكة؟) وحول عنقها عقد من أحجار الياقوت القديمة.

- والسنيور غاسبارو، والكونت رايتر، والسيد آرباثنوت وزوجته.

كانوا جميعاً نحو ستة وعشرين شخصاً. وعلى العشاء جلس ستافورد ناي بين السيدة ستاغنهام الكئيبة والسنيورة غاسبارو، أما ريناتا زيركوفسكي فقد جلست مقابله تماماً. كان عشاء تقليدياً مما تقيمه السفارات دوماً، وقد سبق للسير ستافورد أن حضر الكثير من أمثاله مع النمط ذاته من المدعوين: أعضاء مختلفون من السلك الدبلوماسي ووكلاء وزارات وبعض رجال الصناعة وبعض الشخصيات الاجتماعية البارزة الذين يُدعَون في العادة لأنهم متحدّثون لبقون وطبيعيون ويسعد الناس بلقائهم، على الرغم من

أن بعضاً منهم قد يكون مختلفاً، أو هكذا فكر ستافورد ناي. حتى عندما كان مشغولاً بحديثه مع السنيورة غاسبارو (وهي امرأة جذابة ثرثارة يحلو الحديث معها) كان ذهنه يدور في الاتجاه نفسه مع حركة عينيه، على الرغم من أن هذه الحركة لم تكن تثير الانتباه. فرغم أن عينيه كانتا تدوران حول المائدة إلاّ أن أحداً لم يكن بوسعه أن يقول إن ناي مشغول بتكوين استنتاجات معينة في ذهنه. لقد دُعي إلى هنا، لماذا؟ لأي سبب أو دون أي سبب معين؟ هل لأن اسمه ظهر تلقائياً في القائمة التي تُخرجها السكرتيرات من وقت لآخر مع إشارات أمام أسماء أولئك الذين حلّ دورهم في استلام دعوات السفارة، أم أنه دُعي كما يُدعى رجل إضافي أو امرأة إضافية لتحقيق التوازن المطلوب بين الرجال والنساء على الطاولة؟ لقد كان يُدعى دائماً عندما تبرز حاجةٌ لشخصٍ إضافي مكمّل. كان من شأن الدبلوماسية المضيفة أن تقول: آه، نعم، سيكون ستافورد ناي ملائماً تماماً، سنضعه إلى جوار هذه السيدة أو تلك الليدي!

ربما طُلب منه الحضور لسبب لا يزيد عن هذا، ومع ذلك فقد شعر بحيرة. كان يعرف من خلال خبرته أن هناك أسباب معينة أخرى، ولذلك كانت عيناه الودودتان الاجتماعيتان مشغولتين تنتقلان بسرعة، رغم تظاهرهما بعدم النظر فعلاً إلى شيء محدد.

ربما كان بين هؤلاء الضيوف شخصٌ مهمٌ لسبب أو لآخر، شخصٌ طُلب منه الحضور لا لمجرد ملء الشاغر... بل على العكس، ليكون محوراً من أجله دُعي ضيوف آخرون ليملؤوا الشواغر حوله... أو حولها. إنه شخص مهم دون ريب. وتساءل في نفسه عمّن عساه يكون هذا الشخص.

كان السفير كورتمان يعرف بالطبع، وربما زوجته ميلي جين، إذ لا أحد يستطيع الجزم عندما يتعلق الأمر بالنساء. بعضهن أكثر دبلوماسية من أزواجهن، بعضهن يمكن الاعتماد عليهن لمجرد سحرهن أو سرعتهن في التكيف أو استعدادهن لتسلية الآخرين أو نقص فضولهن... وبعضهن كنّ مصائب وكوارث على أزواجهن. ورغم أن هذا النوع الأخير ربما أضفى على الزوج الدبلوماسي سمعة المنزلة الرفيعة أو الثراء إلاّ أن النساء من هذا النوع كُنّ مضيفات يمكن لهن -في أية لحظة- أن يَقُلن أو يفعلن خطأً فادحاً يفضي إلى موقف سيء جداً. ولئن كان التحرز من مثل تلك الأخطاء مطلوباً فربما استدعى الأمرُ وجودَ ضيف أو اثنين، وربما ثلاثة، ممّن يمكن تسميتهم «راتقي الفتوق المحترفين» لإصلاح مثل تلك الأخطاء.

ألا يمكن أن يكون هذا الحفل مجرد مناسبة اجتماعية فقط؟ كانت عينه الملاحِظة السريعة تدور الآن حول طاولة العشاء تقتنص بعض الأشخاص الذين لم يأخذهم في حسبانه بعد. رجل أعمال أمريكي مرح، ولكنه ليس متألقاً من الناحية الاجتماعية. أستاذ جامعي من إحدى جامعات الغرب الأوسط. زوجان، الرجل ألماني والزوجة أمريكية الشكل والمضمون، أمريكية إلى درجة العدوانية، وهي امرأة جميلة جداً أيضاً. أيكون أحد هؤلاء شخصية مهمة؟ ثم دارت في ذهنه أسماء معينة: مكتب التحقيقات الفدرالي، وكالة المخابرات المركزية... قد يكون رجل الأعمال من رجال المخابرات الأمريكية وموجوداً هنا لسبب معين. الأمور هكذا هذه الأيام، لم تعد كما كانت في السابق. كيف اندثرت الصيغة القديمة؟ الأخ

الأكبر يراقبك... كما وصف أورويل الأنظمة الشمولية. نعم، ولكن الصيغة تطورت أكثر من ذلك. لقد أصبح ابن عمك على الجانب الآخر من المحيط يراقبك أو الصفقات المالية الكبرى لأوروبا الوسطى تراقبك... لقد تمت دعوة شخص يُشكّل معضلة دبلوماسية إلى هذا الحفل لتقوم أنت بمراقبته. آه، نعم، هناك الكثير ممّا يدور تحت السطح هذه الأيام. ولكن هل كانت تلك مجرد صيغة أخرى أو أسلوب آخر فقط؟ أيمكن حقاً أن تعني شيئاً أكثر من هذا، شيئاً مهماً وخطيراً؟ كيف يتحدث الإنسان عن الأحداث التي تجري في أوروبا هذه الأيام؟ السوق المشتركة. حسناً، هذا جيد تماماً، فهو موضوع يتعامل مع التجارة والاقتصاد... مع العلاقات بين البلدان.

كان ذلك هو المسرح الذي ينبغي إعداده. ولكن ماذا وراء المسرح في الكواليس ينتظر إشارة بدء دوره، مستعداً للتلقين إذا ما احتاج الممثلون إلى تلقين؟ ما الذي كان يجري؟ ما الذي يجري في العالم الكبير ووراء العالم الكبير؟ ذلك ما حيره. هناك أشياء كان يعرفها وأشياء خمّنها، وأشياء قال في نفسه إن أحداً لا يريده أن يعرف شيئاً عنها.

استقرت عيناه لحظة على المرأة التي كانت تجلس قبالته؛ كان ذقنها مرفوعاً إلى أعلى وقد فتحت فمها قليلاً لتبتسم ابتسامة مؤدبةً والتقت عيناهما معاً. لم تَبُح عيناها بشيء ولم تَشِ الابتسامة بشيء. ما الذي تفعله صاحبته المسافرة هنا؟ بدت وكأنها في بيتها! إنها تناسب هذا الوسط تماماً وتعرف هذا العالم حولها. نعم، كانت في بيتها هنا. كان بوسعه أن يستفسر ويعرف -دون صعوبة- ما هو

موقعها في عالم الدبلوماسية، ولكن هل من شأن ذلك أن يدله على موقعها الحقيقي الخفي؟

لقد كان لتلك الشابة حين قابلته في مطار فرانكفورت وكلمته دون مقدمات وجه متلهف ذكي، فهل كانت تلك هي المرأة الحقيقية أم أن هذه التي أمامه والتي تعرّفَ عليها في مناسبة اجتماعية عرَضية هي المرأة الحقيقية؟ هل تكون إحدى هاتين الشخصيتين مجرد دور يجري تمثيله؟ وإن كان كذلك فأي الشخصيتين هي الدور؟ وقد يكون هناك أكثر من هاتين الشخصيتين؟ تساءل في نفسه وأراد أن يعرف. أم أن حقيقة دعوته إلى العشاء ولقائه معها كانت مجرد مصادفة بحتة؟

نهضت ميلي جين على قدميها ونهضت النساء الأخريات معها، ثم فجأة حدث صخب مفاجئ، صخب من خارج البيت: صيحات متعالية وصرخات وصوت تحطم زجاج إحدى النوافذ. صيحات وأصوات، وأصوات طلقات مسدس بالتأكيد. تكلمت السنيورة غاسبارو وهي تمسك بذراع ستافورد ناي بقوة: ما هذا ثانية؟ يا إلهي! إنهم هؤلاء الطلبة المزعجون ثانية. الشيء ذاته في بلادنا. لماذا يهاجمون السفارات؟ إنهم يقاتلون الشرطة وينظمون المظاهرات ويصيحون بشعارات سخيفة ويتمددون على الطرقات وفي الشوارع. لدينا مثلهم في روما وفي ميلانو... إنهم ينتشرون في أوروبا مثل الطاعون. لماذا لا يُسعِدُ هؤلاء الشبابَ شيءٌ أبداً؟ ما الذي يريدونه؟

رشف ستافورد ناي من فنجانه وأصغى إلى لهجة السيد تشارلز

ستاغنهام الثقيلة وهو يتكلم كمن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويأخذ راحته ووقته في ذلك. كانت حالة الفوضى والاضطراب قد هدأت، ويبدو أن الشرطة قد أمسكوا ببعض المتهورين. كان ذلك واحداً من الأحداث التي كان المرء يراها غريبة ومخيفة أيضاً فيما مضى، ولكنها أصبحت أشياء طبيعية الآن.

قال السيد ستاغنهام: قوة شرطة أكبر... هذا ما نحتاجه، قوة شرطة أكبر. إن الأمر أكبر من أن يتعامل معه رجال الشرطة هؤلاء. يقولون إن الأمر نفسه في كل مكان. كنت أتحدث إلى السيد ليرويتز بالأمس، لديهم متاعبهم أيضاً في ألمانيا. وكذلك الفرنسيون، ولكن الأمور أهدأ قليلاً في الدول الإسكندنافية. ما الذي يريدونه... المشكلات فقط؟ لو كان لي من الأمر شيء...

انتقل ستافورد ناي في تفكيره إلى موضوع آخر بينما واصل إظهار استحسانه، فيما كان تشارلز ستاغنهام يشرح ما كان سيفعله لو كان له من الأمر شيء، الأمر الذي كان بالإمكان أن يتنبأ المرء به على أية حال.

- إنهم يصرخون بشأن فيتنام. ما الذي يعرفونه عن فيتنام؟ لم يذهب أحدٌ منهم أبداً إلى هناك، أليس كذلك؟

قال ستافورد ناي: أظنه أمراً مستبعداً جداً.

- لقد أخبرني رجل في وقت سابق من هذا المساء بأنهم تعرضوا للكثير من المشكلات والقلاقل في كاليفورنيا، في الجامعات. لو كانت لدينا فقط سياسة واعية...

انضم الرجال إلى السيدات في غرفة الاستقبال، أما ستافورد ناي (الذي كان يتحرك بتلك الكياسة المتأنية وبذلك المظهر الذي وجده مفيداً من ادعاء فقدان الهدف) فقد جلس بجانب امرأة ذهبية الشعر ثرثارة كان يعرفها إلى حد ما، وكانت ممن لا يتوقع منهن المرء -إلاّ نادراً- أن يتفوهن بأي حديث ذي معنى أو حكمة، ولكنها كانت مطّلعة تماماً على أحوال كل الناس ضمن دائرة معارفها. لم يسأل ستافورد ناي أية أسئلة مباشرة لكنه سرعان ما أخذ يصغي من المرأة إلى بعض الملاحظات عن الكونتيسة ريناتا زيركوفسكي دون أن تعرف المرأة الطريقة التي حوّل بها مجرى الحديث إلى ذلك الموضوع.

قالت المرأة: إنها ما تزال جميلة، وهي لا تأتي إلى هنا كثيراً هذه الأيام، بل تذهب في غالب الأحيان إلى نيويورك أو إلى تلك الجزيرة الجميلة... أنت تعرف الجزيرة التي أقصدها، ليست جزيرة مايوركا بل جزيرة أخرى في البحر الأبيض المتوسط. أختها متزوجة بأحد ملوك المال. ليس ذلك اليوناني، بل أعتقد أنه سويدي، وهو واسع الثراء. كما أنها تقضي وقتاً طويلاً في إحدى القلاع في دولومايت أو قرب ميونيخ. إنها تحب الموسيقى كثيراً، وأظنها قالت إنكما التقيتما من قبل، أليس كذلك؟

- بلى، أظن أن ذلك كان قبل سنة أو سنتين.

- آه، نعم؛ حين كانت في إنكلترا آخر مرة كما أظن. قالوا إنها كانت متورطة في أحداث تشيكوسلوفاكيا... أم هي أحداث بولندا؟ آه يا عزيزي، لا أدري؛ فالأمر صعب. أعني أسماء تلك البلدان...

كلها مليئة بحروف متشابهة! أسماء غريبة جداً وتصعب تهجئتها. إنها مثقفة جداً، تُعِدّ عرائض يوقعها الناس مطالِبة بإعطاء الكُتّاب حق اللجوء السياسي إلى هنا وأشياء من هذا القبيل... رغم أن أحداً لا يلقي بالاً لهذا الأمر. أقصد ما الذي يفكر فيه الناس هذه الأيام سوى دفع ضرائبهم. لقد حسّنت علاوةُ السفر الأمورَ بعض الشيء، ولكن ليس كثيراً. أقصد أن المشكلة في تحصيل النقود وليس في الخروج بها إلى الخارج. لا أعرف كيف يحصل الناس على نقود الآن، ولكن هناك الكثير من الأموال حولنا. آه، نعم، الكثير من المال حولنا.

نظرت بعين الرضا إلى يدها اليسرى حيث كانت تلبس خاتمَي سوليتير أحدهما من الألماس والآخر من الزمرد، ممّا يثبت أن مبلغاً كبيراً من المال قد أنفق عليها.

شارفت الحفلة على الانتهاء ولم يستطع أن يعرف عن صاحبته في مطار فرانكفورت إلاّ القليل، القليل مما لم يكن يعرفه من قبل. عرف أن لها مظهراً خادعاً، بدت له شخصيتها ذات مظهر خادع وُضع بإتقان، كما عرف أنها تهوى الموسيقى. حسناً، ألم يلتقِ بها أصلاً في قاعة الموسيقى؟ كما أنها مغرمة بأنواع الرياضة التي تقام في الهواء الطلق ولها أقارب أغنياء يسكنون جزراً في البحر الأبيض المتوسط، وهي تهوى دعم الجمعيات الأدبية الخيرية. والواقع أنها امرأة ذات اتصالات جيدة وعلاقات محبوكة ولها مداخلها إلى الأوساط الاجتماعية. ليست سياسية عميقة الاهتمام كما يبدو، ومع ذلك قد تكون منتسبة سراً إلى عضوية جماعة معينة. إنها امرأة تتنقل

من مكان إلى آخر ومن بلد إلى آخر، تنتقل داخل عالم الأغنياء والموهوبين والأدباء.

فكر في التجسس لبعض الوقت وبدا ذلك له الإجابة الأقرب لتفسير وضعها. ومع ذلك لم يكن مقتنعاً بتلك الإجابة تماماً.

مضت الأمسية وبدا أخيراً أن دوره في تلقّي عناية مضيفته وترحابها قد جاء. كانت ميلي جين بارعة في عملها، قالت: كنت أتوق إلى الحديث معك منذ فترة طويلة، أردت أن أسمع منك عن الملايو. أنا لا أفقه عن هذه البلاد الآسيوية أي شيء فأنا أخلط بينها. قل لي، ما الذي حدث هناك؟ هل كان ثمة شيء مثير أم أن كل شيء كان مملاً؟

- أنا واثق أن بوسعك تخمين الإجابة على سؤالك هذا.

- إذن أظن أنها كانت مملة جداً. ولكن ربما لا يُسمح لك قول ذلك؟

- آه، بل أستطيع التفكير بذلك وأستطيع قوله أيضاً، والحق أنني لم أكن أفضّل السفر إلى هناك.

- إذن لماذا ذهبت؟

- أحبّ السفر دائماً، أحب رؤية البلدان.

- يا لك من شخص غامض مثير من عدة أوجه! إن الحياة الدبلوماسية كلها مملة جداً في الواقع، أليس كذلك؟ ما كان يجدر بي أن أقول ذلك ولكنني أقوله لك فقط.

عينان شديدتا الزرقة كزهرتين في غابة، اتسعتا قليلاً ونزل الحاجبان السوداوان برفق عند زوايا العينين الخارجية فيما ارتفعت قليلاً الزوايا الداخلية للعينين، مما جعل وجهها يبدو كقطة فارسية جميلة.

تساءل في نفسه: ماذا تشبه ميلي جين؟ صوتها الناعم صوت امرأة جنوبية، الرأس الصغير الجميل والشكل الجانبي لوجهها الذي يحاكي كمال وجه منقوش على قطعة نقد معدنية... ماذا تشبه حقاً؟ رأى أنها ليست امرأة مغفلة. إنها امرأة تستطيع استخدام الأسلحة الاجتماعية عندما يتطلب الأمر، وتستطيع سحر الآخرين عندما تشاء، وتستطيع أن تتراجع لتصبح مُحيِّرة مبهَمة، وإذا ما أرادت شيئاً من أي شخص فإنها ستكون بارعة في الحصول عليه. لاحظ عمق النظرة التي كانت توجّهها إليه الآن، هل تريد منه شيئاً؟ لم يعرف، ولم يرَ ذلك أمراً محتمَلاً.

قالت: هل قابلت السيد ستاغنهام؟

- آه، نعم. كنت أتحدث معه على طاولة العشاء، ولم ألتقِ به قبل ذلك.

قالت ميلي جين: يقال إنه شخصية مهمة جداً، إنه رئيس الـ«بي بي إف» كما تعرف.

- يجب أن يعرف الواحد منّا كل هذه الأشياء... «بي بي إف»، و«دي سي في»، و«إل واي إتش»، وكل تلك المختصرات.

قالت ميلي جين: كريهة... كريهة، كل هذه المختصرات.

لم تبقَ شخصيات ولا أناس، بل مجرد مُختصَرات. يا له من عالم كريه! هذا ما أعتقده أحياناً، يا له من عالم كريه! أريده عالماً مختلفاً، مختلفاً تماماً، تماماً...

هل كانت تعني ذلك حقاً؟ أحسّ -للحظات- أنها ربما كانت تعني ما تقول. يا له من أمر مثير!

❁ ❁ ❁

كانت ساحة غروسفيز هادئةً جداً. آثار لزجاج مكسور كانت ما تزال على الأرصفة، بل كان ثمة بيض محطّم وشظايا معدنية لامعة، ولكن الساحة كانت هادئة. كانت السيارات تتقدم إلى بوابة السفارة، سيارة إثر سيارة، لتأخذ الضيوف العائدين إلى بيوتهم. ووقف رجال الشرطة عند زوايا الساحة ولكن دون لفت الأنظار، إذ كانت الأمور كلها تحت السيطرة. أحد الضيوف السياسيين المغادرين تحدث مع أحد ضباط الشرطة ثم عاد قائلاً: لم يُجرح الكثير، ثمانية فقط. سيكونون هناك في شارع بو في الصباح. المجموعة نفسها تقريباً، ومعهم بترونيلا بالطبع وستيفن وجماعته. آه، حسناً، لا بد أنهم سيملون من هذا العمل يوماً ما.

وبالقرب من أذن السير ستافورد ناي تمتم صوت نسوي عميق رنّان: أنت تسكن قريباً من هنا، أليس كذلك؟ أستطيع إيصالك في طريقي.

- لا، لا؛ أستطيع السير على قدميّ. إنها مسافة عشر دقائق فقط أو تكاد.

قالت الكونتيسة زيركوفسكي: أؤكد لك أن لا عناء في ذلك بالنسبة لي؛ فأنا أقيم في فندق سينت جيمس تاور.

كان هذا واحداً من الفنادق الجديدة. قال ستافورد ناي: إنك لطيفة جداً.

كانت السيارة التي تنتظرها فارهة ثمينة ومستأجَرة. وفتح السائق الباب فركبت الكونتيسة ثم تبعها السير ستافورد ناي. كانت هي التي أعطت عنوان السير ستافورد ناي للسائق، وتحركت السيارة. قال: إذن تعرفين أين أسكن؟

- ولمَ لا؟

تساءل ما الذي يعنيه ذاك الجواب: ولم لا؟

- نعم، سؤال وجيه حقاً. إنك تعرفين الكثير، أليس كذلك؟ كان جميلاً منك أن تعيدي إليّ جواز سفري.

- لقد فكرت بأن ذلك قد يوفر بعض المشكلات. ربما كان من الأسهل عليك إحراقه، إذ أظن أنهم أصدروا لك جوازاً جديداً.

- ظنك في محله.

- أما عباءتك تلك فستجدها في الدرْج السفلي لخزانة ملابسك. لقد وُضعت هناك هذه الليلة، فقد حسبت أنك لن ترضى بشراء عباءة جديدة، والواقع أنه قد لا يكون من الممكن شراء عباءة مماثلة لها.

- لقد ازدادت أهميتها بالنسبة لي الآن بعد أن شهدت بعض... بعض المغامرات. هل أدّت غرضها؟

سارت السيارة في الليل المظلم، وقالت الكونتيسة زيركوفسكي: نعم، لقد أدت غرضها، وبسببها أنا هنا حية أرزق.

لم يقل السير ستافورد ناي شيئاً، فقد افترض -مصيباً أو مخطئاً- أنها تريد منه أن يطرح أسئلة وأن يضغط عليها، وأن يعرف المزيد عمّا كانت تفعله وعن المصير الذي نجت منه. كانت تريد منه أن يُظهر فضولاً، ولكن السير ستافورد قرر أن لا يُظهر الفضول، والواقع أنه كان يستمتع بإحجامه ذاك. سمعها تضحك بهدوء ولطف، وتخيل -لدهشته- بأنها ضحكة مسرّة ورضا وليست ضحكة مَن يشعر بالضيق والحرج. قالت: هل استمتعت بأمسيتك؟

- أظن أنها حفلة جيدة. إن من عادة ميلي جين تنظيم الحفلات الجيدة.

- إذن فأنت تعرفها جيداً؟

- أعرفها عندما كانت فتاة في نيويورك قبل أن تتزوج. إنها فينوس صغيرة.

نظرت إليه ببعض الدهشة وقالت: هل هذه عبارتك في وصفها؟

- الواقع لا؛ لقد قالتها لي عجوز من أقاربي.

- نعم؛ فهو ليس بالوصف الذي يُطلَق على المرأة كثيراً هذه

الأيام. أظن أن ذلك يناسبها جيداً، وهي طَموحة أيضاً.

- هل تعتقدين أن ميلي جين كورتمان طموحة؟

- آه، نعم؛ إنها أقوى صفة فيها.

- وهل تظنين أن مكانتها كزوجة سفير لدى البلاط الملكي لا تكفي لإشباع طموحها؟

- آه، نعم؛ فهذه مجرد بداية.

لم يجبها. كان ينظر خارج السيارة، وهمّ بالكلام لكنه سكت. لاحظ نظرتها السريعة إليه لكنها هي الأخرى بقيت صامتة. لم يتكلم إلى أن وصلت السيارة إلى جسر فوق نهر التيمز حيث قال: إذن فإنك لا توصلينني إلى بيتي، كما أنك غير عائدة إلى فندق سينت جيمس تاور. إننا نعبر التيمز، لقد التقينا هنا مرة من قبل ونحن نعبر الجسر. إلى أين تأخذينني؟

- ألديك مانع؟

- أظن أن لديّ.

- نعم، أرى ذلك.

- حسناً، أنت تتصرفين تماماً حسب الموضة... الخطف هو الموجة السائدة الآن، أليس كذلك؟ لقد خطفتِني. لماذا؟

- لأنني -كما حدث مرة من قبل- أحتاج إليك. وهناك آخرون بحاجة إليك.

- حقاً؟

- وهذا لا يسرّك.

- كان سيسرني أكثر لو استُؤذنت.

- هل كنت ستأتي لو استأذنتك؟

- قد آتي وقد لا آتي.

- إنني آسفة.

- عجيب.

سارت السيارة بهما في الليل الحالك وهما صامتان. لم تكن السيارة تسير في منطقة منعزلة، بل كانت تسير في طريق رئيسي. كانت الأضواء تسقط من وقت لآخر على اسم أو لوحة من شواخص الطريق بحيث كان ستافورد ناي يرى بوضوح الطريق الذي يسيرون فيه؛ عبرت السيارة صوريه ثم عبرت أول منطقة سكنية في ساسكس، وكان يظن من وقت لآخر أن السيارة دخلت في منعطف أو إلى طريق جانبي لم يكن طريقاً مباشراً معروفاً، ولكنه لم يستطع التأكد من ذلك. كان على وشك أن يسأل رفيقته إن كانت قد فعلت هذا لأنهم ربما كانوا ملاحَقين من لندن، لكنه صمم على مواصلة سياسة الصمت. كان عليها هي أن تتكلم وعليها هي أن تعطي المعلومات. لقد وجدها مبهَمة غيرَ واضحة حتى مع المعلومات الإضافية التي استطاع الحصول عليها.

كانا متجهين إلى الريف بعد حفل عشاء في لندن. كان واثقاً أنهما يركبان واحدة من أغلى السيارات المستأجَرة، هذا عمل

مخطط له مسبقاً. معقول، ليس فيه ما يثير الشكوك أو يخرج عن المألوف. وتخيّل أنه سرعان ما سيكتشف وجهتهما إلاّ إذا كانوا سيذهبون بعيداً حتى الساحل. كان ذلك ممكناً أيضاً، لقد رأى لوحة مكتوباً عليها اسم هيزلمير، وها هما يلتفّان الآن حول غودالمنغ. كل شيء واضح ومكشوف... الريف الغني الذي يسكنه الأغنياء، غابات جميلة ومساكن جميلة أنيقة.

استدارت السيارة عند بعض المنحنيات، وعندما بدأت في الإبطاء بدا أنهما وصلا إلى وجهتهما. بوابات، وكوخ حراسة أبيض صغير قرب البوابة. ثم صعوداً على طريق داخلي على جانبيه النباتات الجميلة. ثم استدارت السيارة عند أحد المنعطفات وتوقفت أمام بيت. تمتم السير ستافورد ناي: سمسار الأسهم ثيودور!

التفتت رفيقته إليه متسائلة. قال ستافورد ناي: مجرد تعليق... لا تهتمي. أظن أننا وصلنا إلى المكان الذي اخترته؟

- أنت غير معجب بمنظره، أليس كذلك؟

- تبدو الحدائق نظيفة ومرتبة. إن العناية بهذه الأماكن وتنظيمها يحتاج إلى نقود كثيرة، وأعتقد أن العيش في هذا المنزل مريحٌ جداً.

- مريح لكنه ليس جميلاً. الرجل الذي يعيش فيه يفضل الراحة على الجمال.

- وهو خيار حكيم. ومع ذلك فإنه يقدّر الجمال إلى حدٍّ ما، أو أنواعاً معينة من الجمال.

أخيراً توقفت السيارة عند المدخل المسقوف المضاء، فخرج السير ستافورد ومدّ ذراعه ليساعد رفيقته على الخروج.

كان السائق قد صعد العتبات ودقّ الجرس، ثم نظر إلى المرأة وهي تصعد الدرجات متسائلاً: هل تحتاجينني الليلة يا سيدتي مرة أخرى؟

- لا؛ هذا يكفي الآن. سوف نتصل بك في الصباح.

- طابت ليلتك، طابت ليلتك يا سيدي.

سمع وقع أقدام داخل البيت ثم فُتح الباب. كان السير ستافورد يتوقع أن يفتح البابَ خادمٌ ولكن فتحت الباب خادمة استقبال، كانت طويلة القامة ضخمة الجسم ذات شعر رمادي وشفاه مزمومة، وتبدو موثوقة جداً ومقتدرة تماماً. بدت كنزاً لا يقدر بثمن ومن الصعب العثور على مثيل لها في هذه الأيام، فهي جديرة بالثقة وقادرة على أن تكون شرسةً إذا تطلّبَ الأمر.

قالت ريناتا: أخشى أن نكون قد تأخرنا قليلاً.

- السيد موجود في المكتبة، وقد طلب أن تذهبي إليه مع السيد حال وصولكما.

* * *

الفصل التاسع
البيت القريب من غودالمنغ

تقدمت خادمة الاستقبال الطريق على الدرج العريض وهما يتبعانها. نعم، إنه بيت مريحٌ جداً، هكذا فكر ستافورد ناي: درجٌ من خشب السنديان حُفرت عليه رسوم لا تسر الناظرين، ولكنه كان مريحاً بدرجاته المنخفضة، وقد تم اختيار اللوحات فيه بشكل جميل رغم أنها لم تكن ذات قيمة فنية خاصة. رأى أنه بيت رجل غني، رجل ليس بذي ذوق سيئ بل هو ذو ذوق تقليدي. وعلى الأرض سجاد سميك من نسيج أرجواني اللون.

في الطابق الأول دخلت خادمة الاستقبال الضخمة أول باب وفتحته، ثم تراجعت إلى الخلف لتسمح لهما بالدخول لكنها لم تعلن أسماء القادمين. دخلت الكونتيسة أولاً ثم تبعها السير ستافورد ناي، وسمع الباب وهو يغلق وراءه بهدوء.

كان في الغرفة أربعة أشخاص. جلس رجل ضخمٌ بدين ذو وجه شديد الصفرة وراء مكتب كبير مغطى تماماً بالأوراق والوثائق وخريطة مفتوحة أو خريطتين كان يجري مناقشتها مع أوراق أخرى.

كان وجهاً رآه السير ستافورد ناي من قبل، رغم أنه لم يستطع معرفة اسم صاحبه في تلك اللحظة. كان رجلاً التقاه لقاء عرَضياً فقط، ومع ذلك شعر أنه التقاه في مناسبة مهمة. كان يجب أن يعرف، نعم، كان يجب أن يعرف بالتأكيد. ولكن لماذا... لماذا لم يتذكر الاسم؟

نهض الرجل الجالس وراء المكتب بحركة متثاقلة فسلّم على الكونتيسة التي كانت تمد يدها وقال: لقد وصلتما، رائع.

- نعم، دعني أعرفكما، رغم أنك تعرفه من قبل: السير ستافورد ناي... السيد روبنسن.

بالطبع! لمع أمر في ذهن السير ستافورد ناي كأنه وميض البرق. إنه اسم مرتبط باسم آخر... بايكواي. لم يكن ليزعم أنه يعرف كل شيء عن السيد روبنسن، إذ لم يكن يعرف إلاّ ما سمح السيد روبنسن بمعرفته. كان اسمه روبنسن بالفعل، أو أن ذلك هو اسمه الشائع، رغم أنه قد يكون أي اسم من أصل أجنبي. لم يُشر أحدٌ إلى مثل هذا الاحتمال من قبل، كما أن تميزه قد تم عن طريق مظهره الشخصي. الجبهة العالية، العينان السوداوان الكثيبتان، الفم الكبير والأسنان البيضاء المدهشة التي ربما كانت صناعية، ولكن يصحّ عليها ما قاله الذئب في قصة ليلى والذئب: "حتى آكلك بها يا صغيرتي"!

كان يعرف أيضاً ما الذي يمثله السيد روبنسن. كلمة واحدة بسيطة تصف ذلك: كان السيد روبنسن يمثل المال... المال بكل مظاهره. المال الدولي، المال في كل أنحاء العالم، الميزانيات الوطنية الخاصة، المصارف... كان يمثل المال لا كما ينظر إليه الشخص العادي. إذا رأيته لا يمكن أن تظن بأنه رجل غني جداً،

ورغم أنه كان غنياً جداً دون شك، إلاّ أن ذلك لم يكن الشيء المهم في الأمر؛ فقد كان واحداً من منظّمي الأموال، واحداً من عصبة المصرفيين الكبار، وربما كانت أذواقه الشخصية بسيطة ولكن السير ستافورد ناي شك في ذلك. لا بد أن أسلوب السيد روبنسن في الحياة كان يقضي بتوفر مستوى معقول من الراحة، وحتى الترف، ولكن ليس أكثر من ذلك. إذن فوراء هذه القضية الغامضة تقف قوة المال.

قال السيد روبنسن وهو يصافح السير ستافورد ناي: لقد سمعت بك قبل يوم أو يومين فقط، من صديقنا بايكواي الذي تعرفه.

لقد وضح الأمر الآن؛ هكذا فكر ستافورد ناي لأنه تذكّر الآن أنه في المناسبة الوحيدة التي التقى فيها السيد روبنسن كان الكولونيل بايكواي حاضراً. تذكّر أن هورشام تكلم عن السيد روبنسن. إذن فقد اجتمعت في ذهنه الآن ماري آن (أو الكونتيسة زيركوفسكي؟) والكولونيل بايكواي الجالس في غرفته المليئة بالدخان وعيناه شبه مغمضتين (إما أنه ذاهب إلى النوم أو قد استفاق من النوم لتوه)، بالإضافة إلى السيد روبنسن بوجهه الكبير الأصفر، وفوق ذلك كله المال الذي يلعب دوره في مكان ما.

انتقل بنظره إلى الثلاثة الآخرين في الغرفة لأنه أراد أن يرى إن كان يعرف من هم هؤلاء وماذا يمثلون إن استطاع تخمين ذلك. في حالتين على الأقل لم تكن هناك حاجة لكي يخمّن؛ فالرجل الذي كان جالساً على الكرسي الطويل قرب المدفأة رجلٌ عجوز أحاط به مسند الكرسي كما يحيط الإطار بالصورة... هذا الرجل

كان وجهه معروفاً في جميع أرجاء إنكلترا، والواقع أنه ما زال معروفاً جيداً رغم أنه نادر الظهور هذه الأيام. رجل مريضٌ معاق لا يُرى إلاّ لماماً لأن ظهوره يكلفه آلاماً ومتاعب كبيرة. إنه اللورد ألتاماونت. وجه نحيف هزيل وأنف بارز وشعر رمادي تراجع قليلاً فوق الجبين ثم تجمع بغزارة باتجاه الخلف، وأذنان بارزتان قليلاً اعتاد رسامو الكاريكاتير استخدامهما في زمانهم، ونظرات عميقة لا تكتفي بالملاحظة بل تنفذ إلى الأعماق وتسبر ما تنظر إليه. في تلك اللحظة كانت تنظر إلى السير ستافورد ناي. مدّ يده عندما ذهب السير ستافورد نحوه، وقال اللورد ألتاماونت بصوت خافت، صوت رجل مسن بعيد: لا أستطيع الوقوف لأن ظهري لا يساعدني. لقد عدت لتوك من الملايو، أليس كذلك يا ستافورد ناي؟

- بلى.

- أكان الأمر يستحق سفرك؟ أحسبك لا ترى ذلك وربما كنت محقاً. ومع ذلك يتوجب علينا القيام بتلك الأمور البشعة التي لا حاجة لها، تلك الزركشات والزخارف لتزيين أفضل الأكاذيب الدبلوماسية. إنني مسرور لأنك استطعت الحضور إلى هنا أو تم إحضارك إلى هنا هذه الليلة. أظن أنه من فعل ماري آن؟

إذن هذا هو الاسم الذي يطلقه عليها ويراها من خلاله؟ هذا ما فكر فيه ستافورد ناي. إنه الاسم الذي سمّاها هورشام به، إذن فقد كانت داخلة معهم في هذا الأمر دون شك. أما ألتاماونت فقد كان يمثّل... ما الذي كان يمثّله هذه الأيام؟ فكر ستافورد ناي صامتاً. إنه يمثل إنكلترا، سيظل يمثل إنكلترا إلى أن يدفَن في مقبرة ويستمينستر

آبي أو في مقبرة ريفية حسب ما يختار هو. لقد كان هو إنكلترا، وهو يعرف إنكلترا، وأعتقد أنه يعرف قيمة كل سياسي أو مسؤول حكومي في إنكلترا معرفة جيدة، حتى لو لم يكن قد تحدث معهم.

قال اللورد ألتاماونت: هذا هو زميلنا السير جيمس كليك.

لم يكن ستافورد يعرف كليك، حتى إنه لم يسمع به من قبل. إنه رجل متململ لا يكاد يستقر، ذو نظرات حادة مرتابة لا تستقر على شيء مدة طويلة. إن لديه لهفة يسيطر عليها كلهفة كلب الصيد الذي ينتظر من سيده إيعازاً ويجثم جاهزاً للانطلاق من نظرة واحدة من سيده. ولكن من هو سيده؟ ألتاماونت أم روبنسن؟

حوّل ستافورد ناي بصره إلى الرجل الرابع، وكان قد وقف عن كرسيه القريب من الباب. كان رجلاً يقظاً ذا شارب كث وحاجبين عاليين، يشي مظهره بالحياد وعدم التدخل، وقد أفلح -بطريقة ما- في أن يبقى مألوفاً رغم أن العين لا تكاد تميزه.

قال السير ستافورد ناي: إذن فهو أنت؟ كيف حالك يا هورشام؟

- مسرور جداً لرؤيتك هنا يا سير ستافورد.

رأى ستافورد ناي وهو يجيل بصره بسرعة في الغرفة أنه اجتماعٌ يمثل مختلف الأطراف. كانوا قد وضعوا كرسياً لريناتا بالقرب من المدفأة ومن اللورد ألتاماونت، ولاحظ أنها مدّت للّورد ألتاماونت يدها اليسرى فأمسكها بكلتا يديه لبرهة، ثم تركها وقال: لقد جازفت يا طفلتي، إنك تجازفين كثيراً.

قالت وهي تنظر إليه: أنت الذي علمتني ذلك، كما أنه الأسلوب الوحيد للحياة.

التفت اللورد ألتاماونت إلى السير ستافورد ناي وقال: لكن ليس أنا من علّمَك اختيار الرجل الذي اخترته... إن لديك ذكاء طبيعياً في ذلك.

ثم قال وهو ينظر إلى ستافورد ناي: أنا أعرف عمتك.

- العمة ماتيلدا؟

- نعم، بعينها. لقد كانت واحدة من بطلات العصر الفكتوري في تسعينيات القرن الماضي، ولا بد أنها اقتربت أيضاً من سن التسعين. إنني لا أراها كثيراً... ربما مرة أو مرتين في السنة، ولكن تدهشني في كل مرة تلك الحيوية الشديدة فيها والتي تبقى متقدة حتى بعد تدهور قوتها الجسدية. إن أولئك الفكتوريين الأشداء يمتلكون مثل هذا السر، ومعهم أيضاً بعض أبناء العصر الإدواردي.

قال السير جيمس كليك: دعني أقدم لك شيئاً يا ناي. ماذا تشرب؟

- كوباً من الماء فقط.

رفضت الكونتيسة الشراب بهزة صغيرة من رأسها، وأحضر جيمس كليك الماء لناي ووضعه على الطاولة قرب السيد روبنسن. لم يكن ستافورد ناي يود المبادرة بالكلام فاكتفى بالصمت، وفقدت العينان السوداوان للرجل الجالس وراء المكتب كآبتهما لبعض

الوقت وصارتا تلمعان فجأة. قال: هل لديك أية أسئلة؟

قال ستافورد ناي: الأسئلة كثيرة جداً، لكن أليس من الأفضل أن أسمع شروحاتكم أولاً، ثم تكون الأسئلة بعد ذلك؟

- هل هذا ما تريده؟

- قد يُبسّط ذلك الأمور.

- حسناً، سنبدأ بذكر بعض الحقائق الواضحة. كان من الممكن أن تُدعى أو لا تُدعى للمجيء إلى هنا، ولو لم تُدعَ لكانت تلك الحقيقة قد أزعجتك قليلاً.

قالت الكونتيسة: إنه يفضّل أن تتم دعوته واستئذانه دائماً، لقد قال ذلك لي.

قال السيد روبنسن: أمر طبيعي.

قال ستافورد ناي: لقد اختُطفت. أعرف أن ذلك هو أحدث صيحات الموضة، بل هو أحد أساليبنا الأكثر حداثة.

قال السيد روبنسن: وهو ما يستدعي سؤالاً منك بالتأكيد.

- مجرد كلمة واحدة فقط، لماذا؟

- تماماً. لماذا؟ إنني معجب باقتصادك في الكلام. هذه لجنة خاصة، لجنة تقَصٍّ وتحريات ذات أبعاد عالمية.

- يبدو هذا مثيراً.

قال اللورد ألتاماونت: إنه أكثر من مثير؛ إنها قضية حادة

ومُلحّة. تتمثل في هذه الغرفة الليلة أربع طرق مختلفة للحياة. إننا نمثل فروعاً مختلفة، أما أنا فقد تقاعدت عن المشاركة الايجابية في شؤون هذا البلد لكني ما زلت سلطة استشارية مرجعية. لقد استُشِرتُ وطُلِب مني رئاسة هذه التحريات حول ما يجري في العالم في هذه السنة بالذات، لأن شيئاً ما يجري بالفعل. أمّا جيمس فلديه مهمته الخاصة به؛ إنه ساعدي الأيمن كما أنه المتحدث باسمنا. أرجو أن تشرح الموقف العام للسّير ستافورد يا جيمس.

بدا لستافورد ناي أن كلب الصيد قد انتفض متأهباً، فقد تلقى الإيعاز أخيراً وبوسعه الآن أن يتكلم ويأخذ طريقه! مال إلى الأمام قليلاً ثم قال: إذا حدثت أشياء في العالم فعليك أن تبحث عن سبب لها. من السهل دوماً ملاحظة المظاهر الخارجية لما يجري، ولكن تلك المظاهر ليست مهمة في اعتقاد الرئيس (أومأ للّورد ألتاماونت) وفي اعتقاد السيد روبنسن والسيد هورشام. خذ مثلاً إحدى قوى الطبيعة... شلاّل كبير من الماء يعطيك قوة توربينية. خذ مثلاً اكتشاف اليورانيوم، إنه يعطيك الطاقة النووية التي لم تكن تحلم بها أو تعرفها. ثمة قوى تعمل وتعطي دائماً نتائج معينة، لكن وراء كل منها مّن يتحكم بها... عليك أن تعرف مَن الذي يتحكم بالقوى التي يصعد نجمها وتنتشر ببطء في كل بلد أوروبي عملياً، بل وفي أجزاء من آسيا. ربما كان وجود تلك القوى أقلّ في إفريقيا، ولكنها قوية أيضاً في الأمريكيتين، الشمالية والجنوبية. عليك أن تصل إلى ما وراء الأمور التي تحدث لتكتشف ما هي القوة الدافعة التي تسببها. إن أحد الأسباب التي تجعل الأمور تحدث هو المال.

ثم أومأ للسيد روبنسن.

- أحسب أن السيد روبنسن من أفضل المطّلعين على أمور المال في العالم؟

قال روبنسن: الأمر بسيط للغاية؛ ثمة حركات كبيرة موجودة ولا بد أن وراءها أموالاً. يجب أن نبحث عن مصدر تلك الأموال: مَن الذي يديرها؟ من أين يحصلون عليها؟ إلى أين يرسلونها؟ ولماذا؟ إن ما يقوله جيمس صحيح؛ فأنا أعرف عن الأموال الأشياء الكثيرة، بل أنا من أفضل المطّلعين على شؤون المال. ثم هناك ما يمكن تسميته بالاتجاهات. إنها كلمة نستخدمها كثيراً هذه الأيام... الاتجاهات أو الظواهر. هناك كلمات لا تعد ولا تحصى يمكن للمرء استخدامها. إنها لا تعني الشيء نفسه، لكنها مرتبطة معاً. فلنقل إنّ مَيلاً للتمرد بدأ يظهر، وإذا عدت إلى التاريخ فستجد أن ذلك التمرد يتكرر مرة تلو أخرى وبشكل دوري؛ يتكرر كنمط محتم، رغبة التمرد، أساليب التمرد، الشكل الذي يتخذه التمرد... إنه ليس أمراً خاصاً ببلد معين؛ إذا ظهر في بلد فسوف يظهر في بلاد أخرى بدرجات متفاوتة. هذا ما تقصده يا سيدي، أليس كذلك؟

التفت قليلاً إلى اللورد ألتاماونت، ثم أضاف يقول: لقد شرحتَ لي الأمر بهذه الطريقة تقريباً.

- نعم، إنك تعبّر عن الأمور بطريقة جيدة يا جيمس.

- إنه نمط، نمط يظهر ويبدو محتّماً وبوسعك تمييزه عندما تراه. لقد مرت فترة شهدت فيها بلداننا توقاً للانخراط في الحروب الصليبية واندفع الناسُ إلى السفن في كل أوروبا بحجة إنقاذ الأرض المقدسة. هذا واضحٌ تماماً، إنه مثال على نمط... السلوك

العازم، ولكن لماذا ذهبوا؟ تلك هي مهمة التاريخ، أي أن يفهم سبب نشوء مثل هذه الرغبات والأنماط. والسبب ليس مادياً دوماً أيضاً؛ كل الأشياء يمكن أن تسبب الثورة والتمرد: الرغبة بالحرية، حرية الكلام والرأي، حرية العبادة الدينية... مرة أخرى سلسلة من الأنماط المرتبطة معاً ارتباطاً وثيقاً، وقد أدى ذلك بالناس إلى الهجرة إلى بلاد أخرى. ولكن إذا نظرت إلى المسألة نظرة عميقة... إن قمت بتحريات كافية فيمكنك أن تفهم ما الذي تسبّب في بداية هذه الأشياء وغيرها من الأنماط. إنه -في بعض جوانبه- مثل المرض الجرثومي؛ يمكن حمل الجرثومة حول العالم وعبر البحار وفوق الجبال، يمكنها أن تذهب وتنتقل وتصيب الآخرين، وواضح أنها تنتقل دون أن يُطلقها أحد. ولكن حتى هذه اللحظة لا نستطيع أن نجزم بأن ذلك كان دوماً صحيحاً في الواقع؛ إذ ربما كانت هناك أسباب تؤدي إلى حدوث هذه الأشياء. يمكننا أن نمضي بعض الخطوات أبعد من ذلك: هناك أناس، شخصٌ واحد... عشرة أشخاص... بضع مئات من الأشخاص... بوسعهم أن يشكّلوا قضية وأن يحركوها، ولذلك علينا أن لا ننظر إلى العملية النهائية بل إلى أول أناس حركوا هذه القضية. هناك الرغبة في الحرية وهناك الرغبة في الحرية الدينية وهناك كل الأنماط الأخرى، ومع ذلك عليك أن تنفذ إلى أعماق أبعد من ذلك، إلى مناطق نائية حيث تكمن العلل والأسباب.. الرؤى والأحلام. عرف جويل ذلك عندما كتب: «سيحكم شيوخكم أحلاماً وسيرى شبابكم رؤى». أي هذين الاثنين هو الأقوى؟ الأحلام غير مدمرة، ولكن الرؤى يمكن أن تفتح لك عوالم جديدة... كما أن بوسع الرؤى أيضاً تدمير العوالم الموجودة.

التفت جيمس كليك نحو اللورد ألتاماونت فجأة وقال: لا أعرف إن كان ما سأقوله ذا علاقة بالموضوع يا سيدي، لكنك أخبرتني ذات مرة بقصة امرأة في سفارتنا ببرلين.

- آه، تلك؟ نعم، وجدتها قصة طريفة في ذلك الوقت. نعم، لها علاقة بما نتحدث عنه الآن. إنها زوجة أحد موظفي السفارة، امرأة ذكية ومثقفة وكانت متلهفة جداً للخروج شخصياً وسماع الفوهرر وهو يتكلم. أنا أتحدث -بالطبع- عن الفترة التي سبقت الحرب العالمية مباشرة. كانت توّاقة لمعرفة ما يمكن للخطابة أن تفعله وسبب تأثّر الجميع بها. وهكذا ذهبت، ثم عادت وقالت: أمر غريب؛ ما كنت لأصدق هذا! إنني لا أفهم اللغة الألمانية جيداً ولكن العاطفة والحماسة جرفاني مثلهم، وعرفت الآن لماذا تأثر الجميع بالخطاب. أقصد أن أفكاره كانت رائعة، فهي تُلهبك. الأشياء التي قالها تبعث في نفسك الحماسة. أقصد أنه يجعلك تشعر بأنه لا توجد طريقة أخرى للتفكير وأن عالماً جديداً بأكمله سيظهر إذا ما تبعته. آه، لا أستطيع شرح الأمر بطريقة صحيحة؛ سوف أدوّن ما قاله بقدر ما تسعفني الذاكرة، وعندما آتي إليك به لتراه ستفهم بشكل أفضل التأثير الذي أحدثه الخطاب، وذلك أفضل من محاولتي شرح ذلك الأثر.

قلت لها إنها فكرة جيدة. وجاءتني في اليوم التالي وقالت: لا أعرف إن كنتَ ستصدق ما أقوله، لقد بدأت أكتب الأشياء التي سمعتها، الأشياء التي قالها هتلر، ما الذي كانت تعنيه. ولكن... كان الأمر مخيفاً؛ إذ لم يكن هناك ما يمكن أن يُكتَب أبداً. يبدو أنني لم أستطع تذكّر جملة واحدة محَفِّزة أو مثيرة للحماسة. لديّ بعض

الكلمات ولكن لا يبدو أنها تعني الأشياء نفسها التي كانت تعنيها عندما قيلت. إنها... إنها كلمات لا معنى لها. إنني لا أفهم.

إن هذا يوضح أحد الأخطار الكبيرة التي لا يتذكرها الواحد منّا دائماً، ولكنها موجودة. هناك أشخاص قادرون على بث الحماسة الجامحة في نفوس الآخرين وإيصال رؤية ما للحياة أو الأحداث إلى الجمهور. يستطيعون ذلك رغم أن ذلك لا يكون بما يقولونه، فالعبرة ليست في الكلمات التي تسمعها منهم، ولا حتى في الفكرة التي يصفونها. إنها شيء آخر؛ إنها القوة المغنطيسية التي تمتلكها قلةٌ قليلة من الرجال للبدء بأمر ما وصياغة رؤية معينة... ربما عن طريق جاذبيتهم الشخصية أو نبرة صوتهم، وربما من إيحاءٍ أو إرسال يصدر مباشرة عن الجسد. لا أدري، ولكنه أمرٌ موجود. مثل هؤلاء الناس يمتلكون قوة... رجال الدين العظام يمتلكون هذه القوة، وكذلك الروح الشريرة لها قوة هي الأخرى. يمكن بث الإيمان في أشياء معينة، في أشياء ينبغي عملها، أشياء ستثمر سماءً جديدة وأرضاً جديدة، وسوف يؤمن الناس بها ويعملون من أجلها ويقاتلون في سبيلها بل ويموتون من أجلها.

ثم خفض صوته وهو يقول: لقد عبّرَ جان سماتز عن ذلك في عبارة بليغة حين قال إن القيادة إلى جانب كونها قوة إبداعية عظيمة يمكن أن تكون قوة شيطانية.

تحرك ستافورد ناي في مقعده وقال: أفهم ما تعنيه. إن ما تقوله مثير، وقد يكون صحيحاً.

- لكنك تعتقد أنه كلامٌ مبالَغٌ فيه بالطبع.

قال ستافورد ناي: لا أعرف إن كنت كذلك. الأشياء التي تبدو مبالَغاً فيها لا تكون هكذا في الغالب. إنها مجرد أشياء لم تسمعها أو تفكر بها من قبل، ولذلك تراها أشياء غير مألوفة لا يمكنك أن تفعل أي شيء حيالها إلاّ أن تقبل بها. بالمناسبة، هل لي بسؤال بسيط؟ ماذا يمكن للمرء أن يفعل حيالها؟

قال اللورد ألتاماونت: إذا ما وصلت إلى اشتباه وشككت في أن هذا الأمر يجري فيجب أن تكتشفه. عليك أن تذهب وتكتشف، تكتشف من أين يأتي المال ومن أين تأتي الأفكار... من أين تأتي الآلية إن صح التعبير، ومَن الذي يوجّه الآلية؟ هذا ما نحاول عمله، ونريدك أن تأتي وتساعدنا.

كانت تلك واحدة من المناسبات النادرة في حياته التي يفاجَأ فيها السير ستافورد ناي. لقد نجح دوماً في مناسبات سابقة في إخفاء مشاعره مهما كانت تلك المشاعر، ولكن الأمر كان مختلفاً هذه المرة. نقّلَ نظره من رجل إلى رجل في الغرفة، نظر إلى السيد روبنسن صاحب الوجه الأصفر والأسنان البيضاء الظاهرة، وإلى السير جيمس كليك المتكلم المتباهي بعض الشيء (هكذا اعتبره السير ستافورد ناي، لكنه كان ذا فوائد مع ذلك، فهو كلب السيد كما أسماه في قرارة نفسه)، ونظر إلى اللورد ألتاماونت والكرسي العالي الجالس عليه يؤطّر وجهه. لم يكن النور قوياً في الغرفة، وبدا ألتاماونت كما لو كان صورة وُضعت في كوة في الجدار لناسك من زُهّاد القرن الرابع عشر. نعم، كان ألتاماونت واحداً من رجال الماضي العظام، لم يشكّ ستافورد ناي في ذلك، لكنه الآن رجلٌ مُسِنٌّ عجوز، ولهذا السبب تظهر الحاجة -حسب ظنه- إلى

السير جيمس كليك. ثم نظر وراءهما إلى المخلوقة الغامضة الباردة التي أحضرته إلى هنا، الكونتيسة ريناتا زيركوفسكي (أو ماري آن، المعروفة أيضاً باسم دافني ثيودوفانوس). لم يفهم من تعابير وجهها أي شيء، حتى إنها لم تكن تنظر إليه. وأخيراً وقعت عيناه على السيد هنري هورشام رجل الأمن، وبشيء من الدهشة لاحظ أن هنري هورشام كان يبتسم له.

قال ستافورد ناي بلغة بعيدة عن الرسميات، متكلماً كتلميذ مدرسة في الثامنة عشرة من عمره: ولكن أين هو موقعي بينكم بالله عليكم؟ ما الذي أعرفه؟ أنا -بصراحة- غير متميز بأي شكل في مهنتي نفسها. إنهم لا يقدرونني بشكل رفيع في وزارة الخارجية، بل هم لم يقدّروني في أي وقت أبداً.

قال اللورد ألتاماونت: نعرف هذا.

كان الدور على السير جيمس كليك لكي يبتسم، وقد ابتسم قائلاً: قد يكون هذا أفضل. ثم أضاف معتذراً عندما نظر اللورد ألتاماونت إليه عابساً: آسف يا سيدي.

قال السيد روبنسن: هذه لجنة تقصٍّ. ليس مهماً ما فعلته في الماضي أو ما هو رأي الآخرين فيك. إن ما نفعله هو تشكيل لجنة للتحقيق، لا يوجد في اللجنة في الوقت الحاضر الكثير من الأعضاء، ونحن نطلب منك الانضمام إليها لأننا نعتقد أنك تملك صفات معينة قد تساعدنا في التحقيق.

التفت ستافورد ناي إلى رجل الأمن وقال: ما رأيك يا هورشام؟ لا أظن أنك تتفق معهم في هذا؟

قال هنري هورشام: ولِمَ لا؟

- حقاً؟ ما هي الصفات التي أملكها كما تقولون؟ بصراحة أنا نفسي لا أؤمن بوجودها.

قال هورشام: أنت لست ممّن يعبدون الأبطال، وهذا هو السبب. أنت من النوع الذي لا يخدعه الدجّالون المحتالون، وأنت لا تعامل الناس وفق تقييمهم لأنفسهم أو تقييم العالم لهم، بل تعاملهم وفق تقييمك الخاص.

"إنه ليس شاباً جاداً"... تحركت هذه الكلمات في ذهن السير ستافورد ناي. من الغريب أن يتم اختياره لمهمة صعبة ودقيقة لمجرد هذا السبب. قال: يجب أن أحذّركم بأن خطئي الرئيسي الذي لوحظ عليّ كثيراً وكلّفني العديد من الوظائف الجيدة... أظن أنه معروف جداً. أعتقد أنني لست رجلاً جاداً مناسباً لهذا العمل المهم والخطير.

قال السيد هورشام: صدّقْ أو لا تُصدّق؛ إن هذا أحد الأسباب التي يريدونك من أجلها. هل أنا محقٌّ يا سيدي اللورد أم لا؟

سأل وهو ينظر إلى اللورد ألتاماونت، فقال اللورد: يا للوظائف الحكومية! دعني أقُل لك إن إحدى المساوئ الخطيرة جداً في الحياة العامة تظهر عندما يأخذ العاملون في مواقع حكومية أنفسهم كثيراً على محمل الجد. نحن نشعر أنك لن تكون كذلك، أو أن ماري آن ترى ذلك على الأقل.

التفت السير ستافورد ناي إليها. إذن ها هي ذي... لم تعد الآن

كونتيسة، لقد عادت ماري آن من جديد. قال يخاطبها: أرجو أن لا تمانعي في سؤالي لك: مَن أنت حقيقة؟ أعني: هل أنت كونتيسة حقيقية؟

- بلا شك. كان والدي رجلاً ذا نسب عريق أصيل، رجلاً رياضياً بارعاً وصياداً رائعاً، وكان يملك في بافاريا قلعة شاعرية جداً، لكنها كانت متهدمة إلى حد ما. إنها ما تزال هناك ولذلك لي علاقات واتصالات مع ذلك الجزء الكبير من العالم الأوروبي الذي مازال عالماً منافقاً يشعر بالنقص إزاء الأصول العريقة. إن من شأن كونتيسة فقيرة مهلهلة الثياب أن تجلس على الطاولة أولاً بينما يُترَك أمريكي ذو ثروات خيالية واقفاً ينتظر.

- ماذا عن دافني ثيودوفانوس؟ أين هي من ذلك كله؟

- اسم مفيد لجواز سفر... كانت أمي يونانية.

- وماري آن؟

كانت تلك أول ابتسامة يراها ستافورد ناي على وجهها. نظرت إلى اللورد ألتاماونت ثم إلى السيد روبنسن وقالت: ربما لأنني -كما يقال- صاحبة سبع صنائع... أذهب إلى كل الأماكن وأبحث عن الأشياء وأنقل أشياء من بلد إلى آخر وأتستّر على القضايا والمشكلات وأفعل أي شيء وأذهب إلى أي مكان وأصلح الفوضى.

نظرت إلى اللورد ألتاماونت ثانية وقالت: هل أنا على حق يا عمّاه؟

- صحيح يا عزيزتي. أنت ماري آن وستظلين لنا هكذا دائماً.

- هل كنت تنقلين معك شيئاً في تلك الطائرة؟ اقصد شيئاً مهماً من بلد إلى آخر؟

- نعم، وقد عرف البعض أنني كنت أنقله، ولو لم تأت أنت لإنقاذي ولو لم تشرب كأس الشراب الذي كان يمكن أن يكون مسموماً وتسلمني عباءتك ذات الألوان الزاهية لأتخفّى بها، لو لم يحصل هذا كله لحدثت لي أمور معينة كما تحدث أحياناً، وما كنت لأصل إلى هنا.

- ماذا كنت تحملين... أم أنه لا ينبغي لي أن أسأل؟ هل توجد أشياء يجب أن لا أعرفها؟

- أشياء كثيرة لن تعرفها أبداً، وأشياء كثيرة لن يُسمح لك بالسؤال عنها. لكني أحسب أنني سأجيبك عن سؤالك هذا إجابة صريحة إن كان مسموحاً لي بالإجابة.

نظرت ثانية إلى اللورد ألتاماونت الذي قال: إنني أثق بحكمك... واصلي حديثك.

قال جيمس كليك بلا احترام: أعطه الجرعة.

قال السيد هورشام: أظن أن عليك أن تعرف. ما كنت لأقول ذلك بنفسي، فأنا من رجال الأمن. استمري يا ماري آن.

- جملة واحدة فقط: كنت أحمل شهادة ميلاد... هذا كل

ما في الأمر! لن أقول لك أي شيء آخر ولا فائدة من طرح أية أسئلة أخرى.

نظر ستافورد ناي إلى المجتمعين حوله وقال: حسناً، سأنضم إليكم. أشعر بالزهو لأنكم طلبتم ذلك مني، والآن ماذا سنفعل؟

قالت ريناتا: أنا وأنت سنغادر هذا المكان غداً، سنذهب إلى أوروبا. قد تكون قرأت أو عرفت أن مهرجاناً موسيقياً سيقام في بافاريا. إنه مهرجان جديد لم يُقَم إلاّ منذ سنتين فقط، اسمه بالألمانية طويل لكنه يعني «فرقة المطربين الشباب»، وتدعم هذا المهرجانَ حكوماتُ دول عديدة ومختلفة، وهو يشكل نقيضاً للمهرجانات والمسرحيات التقليدية، فمعظم الموسيقى التي تقدمها الفرقة حديثة... ملحنون من الشباب الجدد يُمنَحون الفرصة لإسماع ألحانهم للناس، وبينما يراها البعض ألحاناً راقية وجميلة يراها الآخرون مرفوضة ويحتقرونها.

قال السير ستافورد: نعم، لقد قرأت عن هذا المهرجان. هل سنذهب لحضوره؟

- لقد حجزنا مقاعد لحضور اثنتين من الحفلات.

- وهل لهذا المهرجان أية أهمية خاصة في تحرياتنا؟

- لا. سيكون ذلك أقرب إلى ما يمكن أن نسميه حجة للدخول والخروج. سنذهب إلى هناك لسبب حقيقي وسبب ظاهري، ثم نتركه من أجل خطوتنا التالية بعد ذلك.

نظر حوله وقال: أية تعليمات؟ هل سأحصل على أي أوامر حركية؟ هل من توجيهات حول المهمة؟

- ليس بالمعنى الذي تفهمه لهذه العبارات. أنت ذاهب في رحلة استكشاف، وستتعلم الأشياء في أثناء سير عملك. ستذهب بشخصيتك نفسها دون أن تعرف إلاّ ما تعرفه الآن. ستذهب كشخص يهوى الموسيقى، كدبلوماسي يشعر بشيء من خيبة الأمل، إذ ربما كان يأمل بمنصب معين في بلده لم يُمنَح له. وفيما عدا ذلك لن تعرف أي شيء... إن هذا أكثر أماناً.

- ولكن هل هذه هي كل الأنشطة في الوقت الحالي؟ مجرد زيارة بافاريا في ألمانيا وتايرول في النمسا؟

- إنها واحدة من مراكز الاهتمام.

- هل هي المركز الوحيد؟

- ليس الوحيد، ولا حتى الرئيسي في الواقع. في العالم مناطق أخرى كلها تحظى بأهمية واهتمام متباينين، وعلينا أن نكتشف مدى أهمية كل منها.

- وهل يجب أن لا أعرف، أم أنكم لا تريدون إخباري بخصوص هذه المراكز الأخرى؟

- سنعطيك لمحة سريعة فقط. نعتقد أن واحداً من هذه المراكز (وهو الأكثر أهمية) يوجد مقره في أمريكا الجنوبية، وتوجد مراكز اثنين في الولايات المتحدة، واحد في كاليفورنيا والآخر في بالتيمور. ويوجد مركز في السويد، وربما وُجد واحد في إيطاليا في

الشهور الستة الأخيرة. ويوجد مركزان صغيران أيضاً في البرتغال وإسبانيا، وهناك مركز في باريس بالطبع، وثمة مراكز مثيرة أخرى بدأت تظهر إلى الوجود إذا صح التعبير، فهي لم تتطور تماماً بعد.

- هل تقصد في الملايو أو فيتنام؟

- لا، لا، كل ذلك أصبح جزءاً من الماضي نوعاً ما. كانت صرخة استنهاض جيدة باتجاه العنف والسخط الطلابي وأشياء أخرى كثيرة. يجب أن تفهم أن ما يتم الترويج له الآن هو التنظيم المتنامي للشباب في كل مكان ضد أشكال الحكم في دولهم وضد تراث وعادات آبائهم وضد معتقداتهم وأديانهم التي نشؤوا عليها. هناك تلك النزعة الخبيثة من الإباحية، وهناك نزعة تمجيد العنف المتعاظمة، عنف لا يُقصد به كسب المال ولكنه عنف لمجرد العنف. إن هذا ما نشدد عليه على وجه الخصوص، كما أن الأسباب الموجِبة له يعتبرها المعنيون من أكثر الأمور أهمية ومغزى.

- وماذا عن المخدرات؟

- إن نزعة تقدير المخدرات قد تم دفعها عن قصد... مبالغ ضخمة من الأموال تمّ جمعها من المخدرات، ولكنها -كما نعتقد- لا تجري بدافع من المال فقط.

نظروا جميعاً إلى السيد روبنسن الذي قال: نعم، إنها تبدو هكذا فقط. هناك أشخاص قُبض عليهم وقدموا إلى المحاكمة، وسوف تتم متابعة مروّجي المخدرات، ولكن هناك أكثر من مجرد ترويج المخدرات وراء هذا كله. إن ترويج المخدرات وسيلة، وهي وسيلة شيطانية لجمع المال، ولكن لها هدفاً أبعد من ذلك.

قال ستافورد: ولكن من الذي...

ثم سكت، فقال السيد روبنسن: مَن وماذا ولماذا وأين؟ الأسئلة الأربعة... هذه هي مهمتك يا سير ستافورد، هذا ما عليك أن تكتشفه أنت وماري آن. لن يكون ذلك سهلاً، وتذكّر أن أحد أصعب الأمور في هذه الدنيا هو أن تحافظ على أسرارك.

نظر ستافورد ناي باهتمام إلى السيد روبنسن صاحب الوجه الأصفر الممتلئ. ربما كان هذا فقط هو سر سيطرة السيد روبنسن وهيمنته في عالم المال، سرّه أنه يحفظ سرَّه.

ابتسم روبنسن ثانية وقال: عندما تعلم شيئاً يكون هناك دوماً إغراءٌ قوي في أن تظهر بأنك تعرفه، في أن تتحدث عنه. ولا يكون ذلك لمجرد أنك تريد أن تعطي معلومات، وليس لأنه عُرضت عليك نقود لتعطي معلومات، وإنما تريد أن تُظهر مدى أهميتك بطريق إظهار أنك تعرف شيئاً. نعم، الأمر بهذه البساطة. الواقع أن كل شيء في هذه الدنيا بسيط جداً جداً، هذا ما لا يفهمه الناس.

نهضت الكونتيسة واقفة وقام ستافورد ناي مثلها. قال روبنسن: أرجو أن تنام جيداً وترتاح، أظن أن هذا البيت مريح بعض الشيء.

ردّ السير ستافورد ناي بأنه متأكد تماماً من ذلك. وفي هذه النقطة سرعان ما تبين له أنه كان على حق؛ فقد وضع رأسه على الوسادة وغطّ فوراً في نوم عميق.

* * *

الكتاب الثاني

رحلة إلى سيغفريد

الفصل العاشر
امرأة القلعة

خرجا من مسرح مهرجان الشباب إلى هواء الليل المنعش. كان تحتهما على منحدر من الأرض مطعم مضاء، وعلى جانب التلّة كان مطعم آخر أصغر منه، وكانت المطاعم تختلف من حيث أسعارها قليلاً على الرغم من أنها كانت غالية كلها. ارتدت ريناتا ثوب سهرة من المخمل الأسود وكان السير ستافورد ناي في كامل ثياب السهرة مع ربطة عنق بيضاء.

قال ستافورد ناي يحدث رفيقته: إنه جمهور مميز جداً، الكثير من المال يُصرَف هناك والحضور من الشباب إجمالاً. ما كان المرء ليحسب أن بوسعهم تحمل هذه النفقات.

- آه، يمكن تدبّر هذا الأمر، بل لقد تم تدبره بالفعل.

- في شكل مساعدة مالية لنخبة الشباب أو شيئاً كهذا؟

- نعم.

سارا باتجاه المطعم على الجانب العلوي للتلّة.

- إنهم يعطون استراحة ساعة لتناول الوجبة. أليس كذلك؟

- ساعة واحدة من الناحية النظرية، لكنها ساعة وربع في الواقع.

قال السير ستافورد ناي: هذا الجمهور، أحسب أن معظمه أو كله تقريباً من محبي الموسيقى الحقيقيين.

- معظمهم، نعم. فذلك أمر مهم كما تعلم.

- ماذا تعنين بقولك مهم؟

- أعني أن من المهم أن تكون الحماسة حقيقية، ولدى طرفي الموازنة.

- ما الذي تعنينه بهذا بالضبط؟

- الذين يمارسون العنف وينظّمونه يجب أن يحبوا العنف ويجب أن يرغبوا فيه ويجب أن يشتاقوا إليه... علامات النشوة والرغبة في الاعتداء والإيذاء والتدمير يجب أن تكون ظاهرة في كل حركة. والشيء نفسه مع الموسيقى؛ لا بد للآذان من تقدير كل لحظة من لحظات الانسجام والإبداع اللحني، لا يمكن أن يكون في هذه اللعبة أي تظاهر أو زيف.

- هل يمكنك الجمع بين الدورين؟ هل تقصدين أنك تستطيعين الجمع بين العنف وبين حب الموسيقى أو حب الفن؟

- أظن أن ذلك ليس سهلاً دائماً، ولكن نعم، هناك الكثيرون ممن يستطيعون ذلك.

- من الأفضل ترك الأمر بسيطاً كما يقول صديقنا البدين السيد روبنسن. دعي محبّي الموسيقى يحبون الموسيقى ودعي ممارسي العنف يحبون العنف. هل هذا ما تقصدينه؟

- أظن ذلك.

- إنني أستمتع بهذا العمل كثيراً، استمتعت باليومين اللذين مكثناهما هنا والليلتين الموسيقيتين اللتين استمتعنا بهما. إلا أنني لم أستمتع بكل الموسيقى لأن ذوقي الموسيقي قد لا يكون عصرياً، كما أنني أجد الملابس التي يرتدونها غريبة جداً.

- هل تتكلم عن أعضاء الفرقة على المسرح؟

- لا، لا.كنت أقصد الجمهور. أنت وأنا نرتدي ملابس من الطراز القديم... أنت الكونتيسة في ثوبك الراقي الرسمي وأنا في ربطة العنق البيضاء والرداء ذي الكم الطويل. إنه ليس بالزي المريح ولم يكن كذلك أبداً. أما الآخرون فانظري إلى ما يرتدونه من الحرير والمخمل وقمصان الرجال الزركشة...

- نعم، أنت على حق.

- ومع ذلك فإنني لم أقترب من فهم ما يعنيه هذا كله. لم أتعلم أي شيء ولم أكتشف أي شيء.

- يجب أن لا تفقد صبرك؛ هذا استعراض غني مدعوم، طلبه الشباب ودعمه...

- مَن دعمه؟

- لا نعرف بعد، لكننا سنعرف.

- أنا مسرور جداً لأنك واثقةٌ من ذلك.

دخلا المطعم وجلسا، وكان الطعام جيداً على الرغم من أنه لم يكن طعاماً راقياً. وفي أثناء الطعام تكلم معهما مرةً أو مرتين أحدُ المعارف أو الأصدقاء، واثنان عرفا السير ستافورد ناي وأعربا عن سعادتهما ودهشتهما لرؤيته. كانت ريناتا تملك دائرة أوسع من المعارف لأنها كانت تعرف أجانب كثيرين، كان منهم نساء يرتدين ملابس فاخرة وبعض الرجال الألمان أو النمساويين وبعض الأمريكيين. لم يستغرق الحديث سوى بعض الكلمات المتفرقة: من أين جاؤوا وإلى أين هم ذاهبون ونقد أو إعجاب بالحفل الموسيقي... لم يضيع أحدٌ وقتاً طويلاً لأن استراحة الطعام لم تكن طويلة.

عادا إلى مقعديهما لحضور العرضين الموسيقيين النهائيين؛ قصيدة سيمفونية بعنوان «التفكك فرحاً» من تلحين ملحّن شاب يدعى سولوكونوف، ثم لحنٌ عسكريٌ جاد جليل بعنوان «مارش مايستر سينغرز».

خرجا إلى هواء الليل ثانية. كانت السيارة التي وُضعت تحت تصرفهما كل يوم في انتظارهما لتعيدهما إلى الفندق الصغر الوحيد في شارع القرية، ثم ودّع ستافورد ناي ريناتا التي قالت تخاطبه بصوت خافت: الرابعة صباحاً، كن مستعداً.

ثم ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب عليها وذهب هو إلى غرفته.

سمع ضربات أصابع خفيفة على باب غرفته قبل الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي بثلاث دقائق. فتح الباب ووقف مستعداً، فقالت: السيارة في انتظارنا... هيا.

* * *

تناولا الغداء في فندق جبلي صغير. كان الجو لطيفاً والجبال جميلة، وكان ستافورد ناي يتساءل في نفسه من وقت لآخر عن الذي يقوم به هنا. كانت شخصية رفيقته تزداد غموضاً بالنسبة له وكانت تتكلم قليلاً، ووجد نفسه يراقب وجهها وهو يتساءل: إلى أين كانت تأخذه؟ ما هو مبررها الحقيقي؟ وأخيراً عندما كانت الشمس تغرب قال: إلى أين نحن ذاهبان؟ هل يمكنني السؤال؟

- يمكنك أن تسأل، نعم.

- ولكنك لم تجيبي.

- يمكنني أن أجيب. أستطيع إخبارك بأشياء، ولكن هل ستعني تلك الأشياءُ أيَّ شيء؟ أرى أنك إن ذهبت إلى المكان الذي نقصده دون أن أعطيك أية تفسيرات (وهي التي لا يمكن أن تعني شيئاً بطبيعة الحال) فإن انطباعاتك الأولية ستكون أكثر قوة ودلالة.

نظر إليها ثانية نظرات تأمل. كانت ترتدي معطفاً صوفياً مؤطَّراً بالفراء وملابس سفر أنيقة أجنبية الصناعة والتفصيل. قال متأملاً: ماري آن...

كان عبارته هذه نبرة سؤال خفيفة. قالت: لا، ليس في هذه اللحظة.

- آه، ما زلت الكونتيسة زيركوفسكي.

- في هذه اللحظة ما زلت الكونتيسة زيركوفسكي.

- هل أنت في بلدك؟

- تقريباً. لقد نشأت طفلة في هذا البلد، وفي كل سنة كنّا نأتي في الخريف لنقضي جزءاً كبيراً من السنة في قلعة قريبة، وهنا يطلقون على القلعة اسم شلوس.

ابتسم وقال متأملاً: يا لها من كلمة جميلة... «شلوس»، ذات صوت رصين صلب.

- ولكن مُلاّك القلاع لم يعودوا يقفون على أرض رصينة صلبة هذه الأيام، فقد تفككت تلك الأسر غالباً.

- أليست هذه المنطقة التي جاء منها هتلر؟

- إنها هناك إلى الشمال الشرقي.

- هل أيّدَ أقاربك وأصدقاؤك هتلر وآمنوا به؟ ربما ما كان عليّ أن أسألك مثل هذه الأسئلة.

- بل كانوا يكرهونه ويكرهون كل ما يرمز إليه، ولكنهم كانوا يصيحون: «عاش هتلر». لقد قبلوا بما حدث لبلدهم، وماذا كان بوسعهم أن يفعلوا غير ذلك؟ ما الذي كان بوسع أي امرئ أن يفعله آنذاك؟

- هل نحن ذاهبون باتجاه ألدولومايت؟

- هل يهم إلى أين نحن ذاهبون أو من أي اتجاه سنذهب؟

- ولكنها رحلة استكشافية، أليس كذلك؟

- بلى، لكن الاستكشاف ليس جغرافيا. سنذهب لرؤية شخصية مهمة.

رفع ستافورد ناي بصره باتجاه المنظر الطبيعي الممتد أمامه من الجبال المرتفعة التي تطال السماء وقال: تجعلينني أشعر كما لو أننا ذاهبان لزيارة شيخ الجبل الشهير.

- تقصد سيد الحشّاشين الذي كان يُبقي أتباعه تحت تأثير المخدرات بحيث يموتون من أجله طائعين ليذهبوا إلى الفردوس؟ أظن أن أمثال هؤلاء القادة كانوا موجودين دوماً على مر العصور... أناس يجعلونك تؤمن بهم حتى تكون على استعداد للموت من أجلهم. لقد مات المسيحيون أيضاً بهذه الطريقة.

- الشهداء؟ اللورد ألتاماونت؟

- لماذا تذكر اللورد ألتاماونت؟

- لقد خُيِّل إليّ فجأة على هذا النحو في تلك الأمسية. منحوتاً في الحجر كأنه تمثال في كاتدرائية من القرن الثالث عشر.

- ربما اضطر أحدنا للموت، وربما أكثر من واحد.

أسكتته قبل أن ينطق قائلة: ثمة شيء آخر أفكر فيه أحياناً، وهو أن في معسكر الخير أشراراً دائماً، ولذلك فالأغلب أنه يوجد بيننا شيطان شرير.

- أترين ذلك ممكناً؟

- بل أكاد أجزم. شخص نثق به ونعرفه، لكنه حين يذهب إلى النوم ليلاً لا يحلم بالشهادة بل بثلاثين قطعة من الفضة يستيقظ وهو يشعر بها في راحة يده.

- حب المال؟

- الطموح إذا أردنا الدقة أكثر. كيف يمكن للمرء أن يميز الشيطان؟ كيف يمكن للمرء أن يعرف؟ إن من شأن شيطان ما أن يبرز من بين الجموع، من شأنه أن يكون مثيراً محبوباً، وأن يروج لنفسه، وأن يمارس القيادة.

سكتت لحظة ثم قالت بصوت مستغرق: كان لي صديقة في السلك الدبلوماسي قالت لي كيف حدّثتها امرأة ألمانية بازدراء قائلة: "نحن الألمان لسنا بحاجة لمسيح مخلِّص، فلدينا أدولف هتلر، وهو أعظم من أي مُخلِّص آخر". كانت امرأة لطيفة عادية تماماً لكن هذا ما كانت تشعر به. الآلاف من الناس كانوا يشعرون بذلك، كان هتلر يأسر ألباب الناس وكان يتكلم وهم يصغون إليه ويقبلون الساديّة وأعمال التعذيب التي كان يقوم بها الغستابو.

هزت كتفيها ثم قالت بصوتها الطبيعي: غريب منك أن تقول ما قلته قبل قليل.

- وماذا قلت؟

- بخصوص شيخ الجبل... زعيم الحشاشين.

- أتريدين القول إن لدينا شيخ جبل هنا؟

- لا، ليس شيخ جبل، بل ربما كانت «شيخة جبل».

- شيخة جبل... وكيف هي؟

- سترى هذا المساء.

- وماذا سنفعل هذا المساء؟

قالت ريناتا: سندخل في مجتمع.

- لقد مضى وقت طويل منذ كنتِ ماري آن.

- عليك أن تنتظر إلى أن نقوم برحلة بالطائرة مرة أخرى.

- أظن أن عيش الأعالي يُضعف المعنويات كثيراً.

- هل تقصد المعنى الاجتماعي لذلك؟

- لا، بل أتكلم من الناحية الجغرافية. إن كنت تعيشين في قلعة فوق قمة جبل والعالم أسفل منك فإن ذلك يجعلك تحتقرين الناس العاديين، أليس كذلك؟ تشعرين أنك أعلى واحدة وأعظم واحدة. ربما كان هذا ما يشعر به كثير من الناس الذين يتسلقون جبالاً وينظرون أسفل منهم إلى مَن يقبعون في الوديان.

حذّرته ريناتا قائلة: يجب أن تحذر الليلة، سيكون الوضع دقيقاً حساساً.

- هل من تعليمات؟

- أنت رجل مستاء ساخط؛ إنك ضد المؤسسات القائمة

وضد العالم التقليدي، متمرد ولكنك متمرد سرّي. هل يمكنك أن تقوم بهذا الدور؟

- يمكنني المحاولة.

* * *

صارت الطبيعة حولهما أكثر بدائية. دارت السيارة الكبيرة وصعدت في الطرقات وهي تعبر القرى الجبلية وتطل أحياناً من بعد سحيق مخيف على الأضواء التي تنعكس في النهر.

- إلى أين نحن ذاهبان يا ماري آن؟

- إلى «عشّ النسر».

انتهى الطريق عند إحدى المنعطفات. كان يتخلل إحدى الغابات واعتقد ستافورد ناي أنه لمح من وقت لآخر غزلاناً أو حيوانات أخرى، وكان يرى أيضاً رجالاً يرتدون سترات جلدية ويحملون بنادق، واعتقد أنهم حراس. ثم وصلوا أخيراً إلى موقع شاهدوا فيه قلعة كبيرة هائلة تقف على جرف شديد الانحدار، ورأى أن جزءاً من القلعة كان مدمراً على الرغم من أن معظمها كان قد أعيد بناؤه وإصلاحه، وكانت رائعة عظيمة لكن لم يكن فيها ولا فيما توحي به أي شيء جديد. كانت تمثل سلطة الماضي، سلطة مورست عبر أجيال غابرة.

- كانت هذه في الأصل دوقية ليختنزتولز، وقد بنيت القلعة عام ١٧٩٠ بواسطة الدوق لودويغ.

- من يعيش هنا الآن؟ الدوق الحالي؟

- لا، لقد انتهوا جميعاً وذهبوا... اندثروا.

- إذن من يعيش هنا؟

- شخص يملك سلطة الحاضر.

- المال؟

- نعم، هذا صحيح.

- هل سنقابل السيد روبنسن وقد سبقنا بالطائرة لاستقبالنا؟

- السيد روبنسن هو آخر شخص يمكن أن تقابله هنا، أؤكد لك ذلك.

قال ستافورد ناي: أمر مؤسف، فقد أحببت السيد روبنسن. إنه شخص مهم، أليس كذلك؟ مَن يكون في الحقيقة... ما هي جنسيته؟

- لا أظن أحداً عرف ذلك. الكل يروي روايات متناقضة، بعضهم يقول إنه تركي وآخرون يقولون إنه أمريكي وغيرهم يقول إنه ألماني، وهناك من يقول إنه إنكليزي بحت. بعضهم يقول إن أمه كانت من الشركس أو دوقة روسية أو سيدة هندية، وهكذا... لا أحد يعرف. قال لي شخص إن أمه كانت تدعى الآنسة ماكليلان من سكوتلاندا. أظن أن هذا كغيره من الأقوال.

كانت السيارة قد وقفت بهم أسفل رواق كبير مسقوف، ونزل اثنان من الخدم يلبسان زياً خاصاً درجات المنزل فرحّبا بضيفيهما

بانحناء وأخذا الأمتعة من السيارة، وكانت كثيرة. كان ستافورد ناي قد استغرب -بدايةً- لماذا طُلب منه إحضار كل هذه الأمتعة، لكنه بدأ الآن يفهم أن لمثل هذه الأمتعة حاجة من وقت لآخر، وظنّ أنه سيحتاج إليها هذه الليلة. سأل مرافقته بعض الأسئلة عن ذلك فأخبرته أن الأمر كما يعتقد.

التقيا قبل العشاء حيث خرجا في إثر صوت جرس كبير، وعندما توقف في الصالة انتظرها لكي تنضم إليه وهي تنزل الدرج، كانت ترتدي ثوباً من المخمل الأحمر الداكن وحول عنقها عقد من الياقوت وعلى رأسها تاج منه. وتقدم خادم منهما وقادهما خلفه، ثم فتح الباب ونادى معلناً: الدوقة زيركوفسكي، السير ستافورد ناي.

قال السير ستافورد ناي في نفسه: ها قد وصلنا، وأرجو أن نتقن الدور.

نظر بعين الرضا إلى مقدمة قميصه المزدان بأزرار من الياقوت الأزرق والألماس، وبعد لحظة سحب أنفاسه من هول المفاجأة. كان ما رآه بعيداً كل البعد عن أي توقع يمكن أن يخطر له؛ كانت غرفة كبيرة جداً مفرطة في الزخرفة، فيها كراسي وأرائك ومعلّقات من القماش المقصّب والمطرز، وعلى الجدار كانت توجد رسوم لم يميزها جميعاً على الفور لكنه أدرك بسرعة نتيجة ولعه باللوحات الفنية أن بينها بالتأكيد لوحة من رسم سيزان وأخرى لماتيس وربما لرينوار... لوحات لا تقدَّر بثمن.

وعلى كرسي ضخم يوحي بأنه عرشٌ ملكي كانت تجلس امرأة هائلة، رآها ستافورد امرأة حوتاً! لم تكن لديه حقاً كلمة أخرى

لوصفها. امرأة ضخمة كبيرة كأنها قُدَّت من الجبن، تموج بالشحم، يكاد المرء يرى لها أربعة ذقون لفرط انتفاخ أوداجها. كانت ترتدي ثوباً من الساتان البرتقالي وتضع على رأسها تاجاً جميلاً من الأحجار الكريمة، وكانت يداها المستقرتان على الذراعين المزخرفين لكرسيها هائلتين أيضاً، يدين ضخمتين بدينتين ذواتَي أصابع ضخمة بدينة لا شكل لها. ولاحظ أنها كانت تضع في كل أصبع منها خاتم سوليتير وفي كل خاتم حجر سوليتير حقيقي كما ظن، حجر ياقوت أو زمرد أو ألماس أو غير ذلك من الأحجار الكريمة. رآها مرعبة تموج وتتقلب بالشحم، أما وجهها فكتلة كبيرة بيضاء من الشحم المترهل المتجعد وفي وسطه -كما تُغرَس زبيبتان في قالب كعك ضخم- غُرست عينان سوداوان صغيرتان، عينان شديدتا الدهاء والفطنة تنظران إلى العالم وتقيّمانه. ورأى أنها كانت تقيمه هو وليس ريناتا، فقد كانت تعرف ريناتا. لقد جاءت ريناتا إلى هنا بناء على أوامر بعد تحديد موعد، وقد طُلب إليها أن تحضره إلى هنا. تساءل عن السبب، والحق أنه لم يستطع تخمين السبب ولكنه كان واثقاً من وجوده. كانت تنظر إليه هو وتقيّمه وتلخصه هو. هل هو الشخص الذي أرادته؟ بل ليقل (وهذا أفضل تعبيراً): هل هو ما طلبته الزبونة؟

قال في نفسه: عليّ أن أتأكد تماماً من معرفة حقيقة ما تريده، يجب أن أبذل جهدي وإلاّ... وإلاّ فإن بوسعه أن يتخيل تماماً كيف يمكن لها أن ترفع يداً سمينة ملؤها الخواتم وتقول لأحد الخدم الطوال أصحاب العضلات: "خذوه وألقوه من أعلى القلعة"! فكر ستافورد ناي بأنه شيء سخيف، فمثل هذه الأمور لا يمكن

أن تحدث في هذه الأيام. أين أنا؟ بأي نوع من الاستعراضات أو الحفلات التنكرية أو العروض المسرحية أشارك؟

- لقد جئتِ في الموعد المحدد بالضبط يا طفلتي.

كان صوتاً أجشّ متشنجاً كان فيه -ذات يوم- ما يشي بالقوة، بل ربما بالجمال أيضاً، لكن ذلك انتهى الآن.

تقدمت ريناتا وانحنت قليلاً بالتحية، ثم أمسكت باليد السمينة وقرّبتها إلى فمها وقبلتها قبلة مجاملة.

- دعيني أقدم لكِ السير ستافورد ناي، وأقدم لكَ -يا سير ستافورد- ألغْرافين شارلوت فون والدْساوْسُن.

كانت اليد السمينة ممدودة إليه فانحنى فوقها على الطريقة الأجنبية، ثم قالت شيئاً فاجأه: إنني أعرف عمتك.

بدا مذهولاً، ورأى على الفور أنها فرحت لذلك لكنه لاحظ أيضاً أنها توقعت أن يفاجَأ بهذا. ضحكت ضحكة غريبة مزعجة ولكنها لم تكن جذابة وقالت: أو لأقل إنني كنت أعرفها بالأحرى؛ إذ لم أرَها منذ سنوات طويلة جداً. كنّا في سويسرا معاً، في لوزان عندما كنا فتيات. ماتيلدا... الليدي ماتيلدا بالدوين وايت.

قال ستافورد ناي: يا له من خبر رائع آخذه معي إلى الوطن!

- إنها أكبر مني سنّاً. هل صحتها بخير؟

- هي في صحة ممتازة بالنسبة لسنها. إنها تعيش في الريف حياة هادئة، ولكنها تعاني من التهاب المفاصل، الروماتيزم.

- آه، نعم، إنها أمراض الشيخوخة. يجب أن تأخذ حقن البروكايين، هذا ما يعطيه الأطباء هنا في هذه المنطقة، وهو علاج مقنع جداً. هل تعرف عمتك أنك قادم لزيارتي؟

- أظن أنها لا تعرف أي شيء عن ذلك، كل ما تعرفه أنني كنت سأذهب لحضور هذا المهرجان للموسيقى الحديثة.

- والذي أرجو أنك استمتعت به؟

- آه، جداً. إنها قاعة أوبرا جميلة، أليس كذلك؟

- إنها إحدى أجمل القاعات. هل تعرف كم كلّف بناؤها؟

ذكرت رقماً بالملايين من الماركات، وهو ما جعل ستافورد ناي يحبس أنفاسه. ولكن لم تكن هناك ضرورة ليخفي مشاعره هذه، فقد كانت سعيدة من تأثير هذا الرقم عليه.

قالت: ما الذي لا تستطيع الأموال عمله إذا توفرت، إن كان المرء يعرف ويميّز؟ إنها تستطيع أن تعطيك أفضل ما هو متوفر.

قالت الكلمات الأخيرة باستمتاع كبير وهي تتلمظ بشفتيها، الأمر الذي وجده كريهاً، بل وفيه شيء من الشر.

قال وهو ينظر إلى الجدران: أرى ذلك هنا.

- هل تحب الفن؟ نعم، أرى أنك تحبه. هناك على الحائط الشرقي أروع عمل لسيزان في العالم اليوم. البعض يقول إن اللوحة الموجودة في متحف المتروبوليتان في نيويورك أكثر منها روعة، لكن هذا ليس صحيحاً. إن أفضل لوحات ماتيس وأفضل لوحات

سيزان وأفضل لوحات تلك المدرسة العظيمة في الفن موجودة هنا، هنا في عشّي الجبلي هذا.

قال السير ستافورد: أمر رائعٌ، رائعٌ جداً.

بعد ذلك قُدِّم الشراب للضيوف، ولاحظ السير ستافورد ناي أن «شيخة الجبل» لم تشرب شيئاً، وتوقّع أنها ربما كانت تخشى التعرض لارتفاع ضغطها نتيجة هذا الوزن الهائل.

سألته الحوتة الجبلية: وأين التقيت بهذه الطفلة؟

هل كان ذلك فخّاً؟ لم يعرف، لكنه عزم أمره وقال: في السفارة الأمريكية في لندن.

- آه، نعم، هذا ما سمعته. وكيف حال... آه، لقد نسيت اسمها الآن... نعم، ميلي جين، وريثتنا الجنوبية؟ ألا تعتقد بأنها جذابة؟

- فاتنة جداً، لقد نجحت نجاحاً عظيماً في لندن.

- وماذا عن المسكين الممل سام كورتمان، السفير الأمريكي؟

- إنه رجل عاقل بالتأكيد.

ضحكت وقالت: آه، تتكلم بلباقة. حسناً، إنه يقوم بعمله بشكل جيد، يفعل ما يُطلب منه كأي سياسي جيد، كما أن العمل سفيراً في لندن عمل ممتع. تستطيع ميلي جين أن تقدم له هذه الخدمة، بل إنها تستطيع أن تهيئ له سفارة في أي بلد في العالم بسبب غناها. كان والدها يملك نصف النفط في تكساس ويملك

الأراضي ومناجم الذهب وكل شيء... إنه رجل قبيح جلف، ولكن كيف تبدو هي؟ تبدو أرستقراطية صغيرة لطيفة، ليست بالسمجة ولا بالثرية. إنه تصرف ذكي منها، أليس كذلك؟

قال السير ستافورد ناي: أحياناً لا يكون في هذا أية صعوبة.

- وأنت؟ ألست غنياً؟

- أتمنى لو كنت كذلك.

- أليس العمل في وزارة الخارجية مجزياً كثيراً في هذه الأيام؟

- آه، ليس بهذا المعنى. أسافر إلى أماكن مختلفة وأقابل أناساً ممتعين وأرى العالم وأعرف بعض ما يجري حولي.

- بعضاً ممّا يجري... نعم، ولكن ليس كل شيء.

- من شأن ذلك أن يكون صعباً جداً.

- هل تمنيت أن ترى ما... كيف أعبّر عن ذلك؟ أن ترى ما يجري وراء كواليس الحياة؟

قال بصوت جعله لا يشي بأي موقف: أحياناً تأتي للمرء أفكار ما.

- لقد سمعت مَن يقول إنك تمتلك فعلاً هذه الميزة وإنك تكوّن أفكاراً أحياناً حول الأمور، لا تكون أفكاراً تقليدية دوماً؟

قال السير ستافورد ناي ضاحكاً: مرّت أوقات جعلوني أشعر فيها بأنني الولد السيء في العائلة.

ضحكت العجوز شارلوت وقالت: إنك لا تمانع بالاعتراف ببعض الأشياء من وقت لآخر؟

- ولماذا أتظاهر؟ الناس يعرفون دائماً ما نخفيه.

نظرت إليه وقالت: ما الذي تريده من هذه الدنيا أيها الشاب؟

هزّ كتفيه بلامبالاة، ومرة أخرى توجّب عليه أن يلعب دوره غبياً: لا شيء.

- هيا، هيا، هل تتوقع أن أصدق هذا؟

- نعم، يمكنك أن تصدقي. أنا لست طَموحاً. هل أبدو طموحاً؟

- لا، أعترف لك بذلك.

- لا أطلب سوى المتعة والعيشة الهانئة وأن آكل وأشرب باعتدال وأن يكون لي أصدقاء يسلونني.

مالت المرأة العجوز إلى الأمام، فتحت عينيها وأغلقتهما ثلاث مرات أو أربعاً، ثم تكلمت بصوت مختلف بعض الشيء وفيه نبرة صفير: هل يمكنك أن تكره؟ هل أنت قادر على الكراهية؟

- الكراهية مضيعة للوقت.

- فهمت، فهمت. لا توجد على وجهك علامات السخط، هذا صحيح. ومع ذلك أظن أنك على استعداد للسير في طريق معين يقودك إلى مكان معين، وسوف تمشي فيه مبتسماً وكأنك غير مهتم

ولكنك في النهاية وإذا ما وجدت المستشارين الجيدين والمساعدين الجيدين فسوف تستطيع الحصول على ما تريد... إن كان بوسعك أن تريد.

- بالنسبة لهذا، مَن ذا الذي ليس بوسعه أن يريد؟

هزّ رأسه برفق وأضاف: إن رؤيتك عميقة جداً، جداً.

فتح خادمٌ الباب ودخل قائلاً: العشاء جاهز.

كانت طقوس العشاء رسمية تماماً، بل إنها كانت ذات مسحة ملوكية تقريباً. الأبواب الكبيرة في الطرف البعيد من الغرفة كانت مشرعة تظهر من خلالها قاعة طعام احتفالية مضاءة إضاءة قوية، وكان السقف مزخرفاً عُلّقت فيه ثلاث ثريات كبيرة. واقتربت امرأتان في أواسط العمر من سيدتهما كل منهما على جانب من جانبيها، كانتا ترتديان ثياب السهرة وشعرهما الرمادي مصفوفاً صفاً جميلاً ومرتباً، ومع ذلك لم توحيا للسير ستافورد ناي إلاّ بفكرة باهتة عن سجّانتين. فكّر بأنهما ليستا حارستين لأغراض الأمن بقدر ما هما ممرّضتان من الدرجة الرفيعة تتوليان العناية بصحة السيدة شارلوت وزينتها والقيام بأمورها الخاصة.

بعد تبادل الانحناءات وعلامات الاحترام دسّت كل منهما يدها تحت إبط المرأة الجالسة، وقد تضافر المِران الطويل للمرأتين مع أقصى الجهد الذي بذلته المرأة الجالسة بحيث تمكّنا من رفعها وإيقافها بطريقة محترمة. قالت شارلوت: سندخل الآن لتناول العشاء.

تقدمت الطريق بمساعدة المرأتين، وبدت وهي واقفة كتلةً

هلام مترجرجة أكثر من ذي قبل، ومع ذلك كانت ما تزال مرعبة. لا يمكن أن تعتبرها مجرد امرأة عجوز بدينة، فقد كانت امرأة ذات شأن وكانت تعرف أنها ذات شأن وتريد أن تكون ذات شأن.

سار هو وريناتا وراء النساء الثلاث، وعندما عبروا مدخل قاعة الطعام أحس أنها قاعة مآدب رسمية أكثر من كونها قاعة طعام عادية. كان هناك حرس شخصي، شباب طوال القامة شقر الشعر وسيمون يرتدون زياً رسمياً، وعندما دخلت شارلوت القاعة علا صوت قعقعة، إذ استلّ الحرس سيوفهم ثم جعلوها تتقاطع فوق الرؤوس ليشكّلوا ممراً عبرته شارلوت بعد أن عدّلت قامتها، وقد تركتها مرافقتاها لتتقدم بمفردها إلى كرسي ضخم محفور مطعَّم بالذهب عند رأس الطاولة. شبّهه ستافورد ناي بموكب الزفاف أو بموكب عسكري، بل كان موكب زفاف عسكرياً بالتأكيد، عسكرياً تماماً، ولكن لم يكن ينقصه سوى العريس.

كانوا جميعاً من الشباب ذوي الأجسام الضخمة القوية، ورأى أنه لا يوجد فيهم من يزيد عمره على الثلاثين. لم يبتسموا بل كانوا جادين، كانوا... نعم، كانوا مكرَّسين لمهمتهم بإخلاص. قد لا يكون موكباً عسكرياً بقدر ما هو موكب ديني. ظهر الخدم، خدمٌ من عصور ماضية ينتمون إلى ماضي القلعة، إلى زمن ما قبل الحرب العالمية الثانية. كان المشهد يشبه إخراجاً رائعاً لمسرحية تاريخية تحكي فترة معينة، وتلك بطلتها الجالسة على الكرسي أو العرش أو سمّه ما شئت، على رأس الطاولة. لم تكن ملكة أو إمبراطورة بل عجوزاً أكثر ما يميزها وزنها المفرط وبشاعتها الشديدة الغريبة. مَن تكون؟ ما الذي كانت تفعله هنا؟ لماذا؟ لماذا كل هذا التنكر وهذا الحرس؟

دخل أناس آخرون لتناول العشاء، وانحنوا للتنّين الجالس على رأس المائدة ثم أخذوا أماكنهم. كانوا يرتدون ثياب سهرة عادية ولم يتم التعريف بهم. بعد سنوات طويلة من الخبرة في تخمين الناس ودراستهم قيّمهم ستافورد ناي؛ كانوا أنواعاً مختلفة، أنواعاً مختلفة كثيرة التباين. منهم المحامون بالتأكيد، وقد يكون منهم محاسبون أو أصحاب أموال وبعض ضباط الجيش في ملابس مدنية. كانوا من ساكني القلعة، لكنهم كانوا أيضاً (بالمعنى الإقطاعي القديم للكلمة) أناساً أُحسِنَ إعدادهم.

وصل الطعام، وكان منوَّعاً ومن ذوق رفيع. أكلت المرأة البدينة، أكلت بشراهة مستمتعةً بطعامها. ثم جاء من الخارج صوت جديد، صوت سيارة رياضية ذات محرك قوي مرّت من جانب النافذة بسرعة البرق. صرخ الحرسُ في الغرفة، وكانت صرخة عالية: عاش، عاش، عاش فرانز!

تحرك الحرس من الشباب بخفة من يؤدي حركة عسكرية حفظها عن ظهر قلب. كان الجميع قد وقفوا على أقدامهم، وحدها المرأة العجوز ظلت جالسة لا تتحرك وقد رفعت رأسها عالياً، ورأى ستافورد ناي أن حماسة جديدة سرعان ما ستغمر الغرفة.

اختفى الضيوف الآخرون أو ساكنو المنزل الآخرون بطريقة ذكّرت ستافورد ناي -على نحو ما- بالسحالي عندما تختفي بين شقوق الجدران. شكّلَ حرسُ الشرف من الأولاد ذوي الشعر الذهبي الذين يحملون السيوف عند مدخل القاعة تشكيلة جديدة وسحبوا سيوفهم في الهواء وحيّوا سيدتهم، فأومأت برأسها اعترافاً

بجميل ما صنعوا فأغمدوا سيوفهم ثم استداروا وخرجوا من باب الغرفة في طابور. كانت تتابعهم بنظراتها ثم حولت نظرها إلى ريناتا أولاً ثم إلى ستافورد ناي.

قالت: ما رأيك فيهم؟ أولادي، أطفالي. نعم، أطفالي. هل عندك كلمةٌ يمكن أن تصفهم؟

قال ستافورد ناي: أظن ذلك. إنهم رائعون، رائعون يا مدام.

تكلم معها كما لو كانت ملكة، فأحنت رأسها وابتسمت فتضاعفت التجاعيد على مساحة وجهها كله، وجعلها ذلك تبدو مثل التمساح تماماً.

أحسّ أنها امرأة مخيفة. ماذا يمكن أن يكون هذا المكان غير قاعة مهرجان أخرى يُقدَّم فيها استعراض. فُتحت الأبواب ثانية وبقوة، ودخلت فرقة الرجال الشقر بطابورٍ كما حدث من قبل، لكنهم لم يشرعوا سيوفهم هذه المرة بل أنشدوا... أنشدوا بجمال غير عادي في النبرة والصوت.

أحس ستافورد ناي بعد سنوات طويلة من موسيقى البوب بمتعة لا توصف. إنها أصواتٌ مدرَّبة ولم تكن مجرد أصوات تصرخ وتزعق، مدربة على يد سادة الفن الغنائي، من غير المسموح لهم أن يُجهِدوا حبالهم الصوتية أو يخرجوا بنشاز. قد يكونون الأبطال الجدد للعالم الجديد لكن ما أنشدوه لم يكن موسيقى جديدة، بل كانت موسيقى سمعها من قبل... لا بد أن هناك أوركسترا في مكان ما في أعلى القاعة. كانت الموسيقى إعداداً أو توليفاً لمجموعة من ألحان فاغنر الأولية، بدءاً من لحن «بريسليد» ووصولاً للأصداء البعيدة

للحن «راين». اصطفّ فيلقُ النخبة مرة أخرى في طابورين استعداداً لدخول شخصٍ ما، ولم يكن الداخل هذه المرة الإمبراطورة العجوز فقد كانت جالسة على كرسيها تنتظر القادم.

وأخيراً وصل، وتغيرت الموسيقى لدى دخوله لتصدر ذلك اللحن الأساسي الذي بات ستافورد ناي يحفظه الآن عن ظهر قلب، لحن «الشاب سيغفريد»، نداء سيغفريد بالبوق يعلو بشبابه وانتصاره وتمكنه من عالم جديد جاء الشاب سيغفريد ليفتحه ويحكمه.

ومن بين الصفّين المكوَّنين من أتباعه الشباب دخل شاب من أجمل الشباب الذين رأتهم عينا ستافورد ناي. كان ذا شعر ذهبي وعينين زرقاوين وجسم متناسق جداً، لقد جاء من عالم الأساطير. الأسطورة، الأبطال... كل هذا كان هناك. جماله وغروره وثقته بنفسه. سار بين صفّين من حراسه إلى أن وقف أمام الجبل الأنثوي البشع، تلك المخلوقة التي كانت جالسة هناك على عرشها. جثا على ركبة واحدة ورفع يدها إلى شفتيه ثم رفع يده لتحيتها وهو يقف على قدميه وأخرج الصيحة التي سمعها ستافورد ناي من الآخرين: «هيل»! لم تكن لهجته الألمانية واضحة كثيراً، ولكن ستافورد ناي ظن أنه سمع الشاب يتمتم: «هيل لأمنا العظيمة».

ثم قلّبَ البطل الشاب الوسيم بصرَه من جانب إلى آخر. بدا أنه يعرف ريناتا قليلاً ولو أنه لم يظهر اهتماماً كبيراً لوجودها، لكنه عندما حدّق إلى ستافورد ناي أظهر اهتماماً واضحاً ومحاولة تقييم. قال ستافورد ناي في نفسه: الحذر، الحذر! عليه أن يلعب دوره الآن، أن يلعب الدور المتوقَّع منه... لو كان يدري فقط ما هو ذلك

الدور! ما الذي كان يفعله هنا؟ ما الذي يفترض أن يفعله هو أو الفتاة هنا؟

تكلم البطل وقال: إذن لدينا ضيوف؟ ثم أضاف مبتسماً بنوع من غرور الشاب الذي يعرف أنه متفوق على أي شخص آخر في هذا العالم: مرحباً بالضيوف، مرحباً بكما.

بدأ جرس كبير يقرع في مكان ما في أعماق القلعة. لم يكن قرعاً جنائزياً بل كان صوته يوحي بالانضباط والنظام. قالت العجوز شارلوت: علينا أن ننام الآن. ناموا، وسنلتقي صباح الغد في الساعة الحادية عشرة.

نظرت إلى ريناتا والسير ستافورد ناي وقالت: سوف تؤخذان إلى غرفتيكما، وأرجو أن تناما جيداً.

كان ذلك هو الإذن الملكي بالانصراف. ورأى ستافورد ناي ذراع ريناتا وهي ترتفع بالتحية الفاشستية، لكنها لم تكن ترفعها لشارلوت وإنما إلى الشاب ذي الشعر الذهبي. ظن أنها قالت: «هيل فرانز جوزيف»، وعمل كما عملت تماماً.

تكلمت شارلوت معهما قائلة: أيعجبكما أن تبدآ يومكما صباح الغد بركوب الخيل إلى الغابة؟

قال ستافورد ناي: هذا من أحب الأشياء إليّ.

- وأنت يا طفلتي؟

- نعم، وأنا أيضاً.

- هذا جيد، سوف نرتب الأمر. طابت ليلتكما، إنني سعيدة باستضافتكما هنا. أعطني ذراعك يا فرانز جوزيف، سوف نذهب إلى القاعة الصينية فلدينا الكثير مما ينبغي مناقشته، كما أن عليك أن تغادر في وقت مناسب صباح الغد.

رافق الخدم ريناتا وستافورد ناي إلى غرفتَيهما، وتردد ناي لحظة عند الباب متسائلاً: هل يمكنهما الحديث معاً لبعض الوقت؟ قرر عكس ذلك، فما دامت جدران القلعة تحيط بهما فمن الأفضل الحذر. لا أحد يعرف ماذا يوجد، فقد تكون كل غرفة مجهَّزة بميكروفونات تنصّت.

ومع ذلك يجب أن يسألها أسئلة معينة عاجلاً أو آجلاً. إن أشياء معينة قد أثارت في ذهنه الخوف والإحساس بالشر، كان يتم إقناعه وإغراؤه بشيء ما، ولكن ما هو ذلك الشيء؟ ومَن الذي يمارس ذلك معه؟

كانت غرفة النوم مرتَّبة أنيقة مع أنها قابضة للصدر. الستائر الثمينة من المخمل، بعضها قديم ويعطي رائحة كأنها ستائر مهترئة لطّفتها رائحةُ التوابل. وتساءل: كم مرة جاءت ريناتا إلى هنا؟

* * *

الفصل الحادي عشر
الشباب والجمال

بعد أن تناول طعام الإفطار صباح اليوم التالي في غرفة إفطار صغيرة في الطابق الأرضي وجد ريناتا في انتظاره، وكانت الخيول في انتظارهما عند الباب. كان كلاهما قد أحضر معه ثياب الركوب، إذ يبدو أنه قد تم التنبؤ بكل ما يمكن أن يحتاجانه.

ركبا وانطلقا نزولاً على طريق القلعة بعدما تحدثت ريناتا مع سائس الخيل مطولاً.

- سألني إن كنّا نريده أن يرافقنا فقلت له إنني أعرف الطرق هنا معرفة جيدة.

- فهمت. لقد جئت إلى هنا من قبل إذن؟

- لم آت هنا كثيراً في السنوات الأخيرة. في وقت مبكر من حياتي كنت أعرف هذا المكان جيداً.

نظر إليها نظرة حادة لكنها لم تبادله بمثلها، وبينما كانت تركب الحصان وتسير بجانبه راقب صفحة وجهها: الأنف الرفيع

المعقوف والرأس المحمول بفخر على رقبة نحيلة... ولاحظ أنها تتقن ركوب الخيل. ومع ذلك كان يحس بشيء من القلق في ذلك الصباح، ولم يكن واثقاً لماذا.

عاد بذاكرته إلى قاعة المطار: المرأة التي جاءت لتقف إلى جانبه، كأس الشراب على الطاولة... لم يرَ في ذلك الأمر ما لا ينبغي أن يكون، لا في ذلك الوقت ولا بعد ذلك. كانت مجازفة وافق على خوضها. لماذا إذن تثير تلك التجربة قلقه الآن بعد مضي وقت طويل عليها؟

سارا بحصانيهما في سير بطيء عبر أشجار الغابة. إنها منطقة جميلة وغابة جميلة، ورأى حيوانات ذات قرون عن بعد. إنها جنة لمحبّي التريض ولمحبي أسلوب الحياة القديم، جنة كان بها... ماذا؟ أفعى؟

شدّ عنان الفرس فأصبح الفرَسان يسيران سيراً. كانا وحيدين هو وريناتا، لا ميكروفونات ولا جدران لها آذان... لقد حان الوقت لأسئلته. قال بإلحاح: من هي؟ ما هي؟

- الإجابة سهلة. سهلة جداً بحيث لا تكاد تُصدَّق.

- حسناً؟

- إنها النفط والنحاس ومناجم الذهب في جنوب إفريقيا، والأسلحة في السويد، واليورانيوم وتطوير الذرة في الشمال... إنها كل هذه الأشياء.

- ومع ذلك لم أسمع عنها، لم أعرف اسمها، لم أكن أعرف...

- لم تُرِد للناس أن يعرفوا.

- هل يستطيع المرء التكتم على هذه الأشياء؟

- بسهولة، إن كنت تملك كميات كافية من النفط واليورانيوم والأسلحة وغيرها. يمكن للمال أن يروّج ويعلن، كما يمكن له أن يحافظ على الأسرار ويحوط الأمور بالكتمان.

- ولكن من هي عملياً؟

- كان جدها أمريكياً، وأظن أن ثروته كانت في مجال السكك الحديدية بشكل رئيسي، وربما كان واحداً من حيتان المال في شيكاغو في ذلك الوقت. الأمر يشبه العودة إلى التاريخ لاكتشاف الحقيقة. ثم تزوج امرأة ألمانية أظن أنك سمعت بها، فقد اعتادوا أن يطلقوا عليها اسم بيلندا الكبيرة. كانت عائلتها تسيطر على تجارة الأسلحة والسفن وأكثر ثروة أوروبا الصناعية، وقد ورثت أباها.

قال السير ستافورد ناي: بين هذين الاثنين ثروة لا تصدق وبالتالي السلطة. هل هذا ما تريدين قوله لي؟

- نعم؛ لم يكن الأمر مجرد وراثتها ثروة طائلة، فقد كانت تكوّن لها ثروة أيضاً. لقد ورثت عقلاً مفكراً وكانت قطباً مالياً لحسابها الخاص. كل شيء تلمسه يتضاعف ويتحول إلى مبالغ هائلة لا تصدق. تأخذ بالنصيحة وبآراء الآخرين، لكنها تستخدم

رأيها دائماً في النهاية. وهي تزدهر دائماً وتزيد ثروتها باستمرار، ممّا جعل من الصعب تصديق ذلك... المال يأتي بالمال!

- نعم، أفهم هذا. لا بد للمال أن يزداد إن كان هناك فائض منه. ولكن... ماذا كانت تريد؟ ما الذي حصلت عليه؟

- لقد قلتها أنت قبل قليل: السلطة!

- وهل تعيش هنا أم أنها...؟

- إنها تزور أمريكا والسويد. نعم، إنها تزور البلدان ولكن زياراتها ليست كثيرة. هنا المكان الذي تفضل أن تكون فيه، في وسط الشبكة كعنكبوت ضخم يتحكم بكل الخيوط... خيوط المال وخيوط أخرى أيضاً.

- عندما تقولين: خيوطاً أخرى...

- الفنون والآداب والموسيقى والسينما والمؤلفون والكتّاب. البشر... الشباب.

- نعم، يمكن للمرء أن يعرف ذلك، من تلك اللوحات. إنها مجموعة رائعة.

- في القلعة قاعات عدة مليئة بمثل هذه اللوحات. هناك لوحات لرامبرانت وجيوتوس ورافائيل، وهناك صناديق جواهر... بعض من أفضل الجواهر في العالم.

- كل هذا ملك لعجوز قبيحة بدينة. هل هي راضية؟

- ليس بعد، لكنها في طريقها إلى ذلك.

- إلامَ تتجه؟ ما الذي تريده؟

- إنها تحب الشباب. ذلك هو أسلوبها للسلطة، أن تتحكم بالشباب. العالم الآن مليء بالشباب المتمرد الثائر، وقد تم إذكاء ذلك. فلسفة حديثة، فكر حديث، كتّاب تمولهم وتتحكم بهم.

- ولكن كيف يمكن...؟

- لا يمكنني أن أخبرك لأنني لا أعرف. إنه موضوع هائل التشعب. إنها وراء هذا إلى حد ما، تدعم جمعيات خيرية غربية ومفكرين جادين ذوي نزعة إنسانية أو مثالية وتجمع مِنَحاً وتبرعات عديدة لطلاب وفنانين وأدباء.

- ومع ذلك تقولين إنها لم...

- نعم، إن الأمر لم يتكامل بعد. إن ما يتم التخطيط له هو انتفاضة هائلة، وهناك من يؤمن بها وبأنها الجنة الجديدة والأرض الجديدة. هذا ما يَعِدُ به القادة منذ آلاف السنين. تَعِدُ به الأديان ويَعِدُ به السياسيون... جنة بسيطة يسهل نيلها كتلك التي آمن بها الحشاشون والتي وعد بها شيخ الحشاشين أتباعه، بل أعطاها لهم من وجهة نظرهم.

- هل تقف وراء المخدرات أيضاً؟

- نعم، دون قناعة منها بالطبع. إنها مجرد وسيلة لجعل الناس يرضخون لإرادتها، كما أنها طريقة لتدمير الناس، الضعفاء منهم.

الناس الذين لا ترى فيهم فائدة رغم أنهم أظهروا دلائل مبشرة ذات مرة. إنها لا تتعاطى المخدرات شخصياً، فهي قوية، لكن المخدرات تدمر الناس الضعاف بسهولة أكثر من أي شيء آخر.

- والقوة؟ ماذا عن القوة؟ لا يمكنك أن تفعلي كل شيء بالدعاية.

- نعم، بالطبع. الدعاية هي المرحلة الأولى ووراءها يوجد تكديس هائل للأسلحة. أسلحة تذهب إلى بلاد محرومة ثم إلى أماكن أخرى. دبابات ومدافع وأسلحة نووية تذهب إلى إفريقيا وإلى أمريكا الجنوبية. يوجد الكثير من أعمال التسليح تجري في أمريكا الجنوبية: شباب يتدربون، مستودعات ضخمة، أسلحة وذخيرة...

- إنه كابوس! كيف عرفت كل هذا يا ريناتا؟

- جزء منه ممّا قيل لي أو من معلومات تلقيتها، وجزء آخر عرفته لأنني كنت أداة في إثبات وجوده.

- أنت! أنت وهي؟

- هناك دائماً شيء من السخف وراء كل المشاريع الضخمة العظيمة.

ضحكت فجأة وأضافت تقول: لقد كانت يوماً ما على علاقة حب مع جدي. قصة سخيفة... لقد عاش في هذا الجزء من العالم وكانت له قلعة تبعد عن هذا المكان ميلاً أو ميلين.

- هل كان رجلاً عبقرياً؟

- أبداً. كان مجرد رياضي وسيم جذّاب بالنسبة للنساء. ولذلك فهي الوصية عليّ الآن نوعاً ما، كما أنني واحدة من أتباعها أو عبيدها! إنني أعمل لها كما أبحث لها عن أناس يعملون لها، وأنفذ أوامرها في أماكن مختلفة من العالم.

- هل تفعلين ذلك حقاً؟

- ماذا تقصد بهذا؟

قال السير ستافورد ناي: مجرد تساؤل.

لقد تساءل فعلاً. ونظر إلى ريناتا وفكر في المطار ثانية. كان يعمل لصالح ريناتا، كان يعمل مع ريناتا. هي التي أحضرته إلى هذه القلعة. مَن الذي أخبرها أن تحضره إلى هنا؟ شارلوت الضخمة البدينة القابعة وسط شبكتها العنكبوتية؟ كانت له سمعة، سمعة في أنه لا يتحلى بالالتزام والرصانة في دوائر دبلوماسية معينة. قد يكون مفيداً لهؤلاء الناس، لكنه مفيد بطريقة مذله وضيعة. ثم فكر فجأة متسائلاً عن غموض ريناتا: لقد جازفت معها في مطار فرانكفورت، لكنني كنت على حق؛ فقد نجح الأمر ولم يحدث لي أي شيء. ولكن من تكون؟ ما حقيقتها؟ لا أدري، لا يمكنني الجزم. لا يمكن لأي كان أن يتأكد من أي شخص في عالم اليوم، أي شخص على الإطلاق. ربما طُلِبَ منها أن تحصل عليّ... تحصل عليّ لأكون لعبة بين يديها، ولذلك ربما كان ذلك الأمر في مطار فرانكفورت عملاً مخططاً له بذكاء. أنه يلائم ميلي للمجازفة ومن شأنه أن يجعلني أثق بها.

قالت: دعنا نُجري الخيل ثانية، لقد مشت بنا طويلاً.

- لم أسألك ماذا تمثلين أنت في هذا كله؟

- إنني أتلقى الأوامر.

- ممّن؟

- هناك معارضة. توجد معارضة دائماً، ثمة أناس يشكّون فيما يجري وبكيفية تهيئة العالم وجعله يتغير وكيفية حدوث ذلك التغير مع المال والثروة والسلاح والمثالية والشعارات الرنانة. هناك أناس يقولون إن ذلك ينبغي أن لا يحدث.

- وهل أنت معهم؟

- أنا أقول هذا.

- ماذا تقصدين بهذا يا ريناتا؟

قالت: إنني أقول هذا.

- ذلك الشاب في الليلة الماضية...

- فرانز جوزيف؟

- هل هذا اسمه؟

- إنه الاسم الذي يُعرف به.

- ولكن له اسماً آخر. أليس كذلك؟

- هل تعتقد ذلك؟

- إنه الشاب سيغفريد، أليس كذلك؟

- هل رأيته هكذا؟ هل فهمت أنه كذلك وأن ذلك هو ما يرمز إليه؟

- أعتقد ذلك. الشباب، الشباب البطولي، الشباب الآري. لا بد أنه الشباب الآري في هذا الجزء من العالم. ما زالت هناك وجهة النظر تلك: الجنس المتفوق، السوبرمان. لا بد أن يكون ذلك الجنس من العرق الآري.

- آه، نعم، لقد استمر ذلك منذ زمن هتلر، وهي نظرة لا تظهر كثيراً على الملأ كما لا يتم التركيز عليها كثيراً في أجزاء أخرى من العالم. كما قلت فإن أمريكا الجنوبية هي إحدى المعاقل الرئيسية، وجنوب إفريقيا أيضاً.

- ماذا يفعل الشاب سيغفريد؟ ما الذي فعله إلى جانب إظهار حُسنه وتقبيل يد حاميته؟

- آه، إنه خطيب مفوه، يخطب فنرى أتباعه مستعدين لاتباعه حتى الموت.

- هل هذا صحيح؟

- إنه يعتقد ذلك.

- وأنت؟

- أعتقد أنني يمكن أن أصدق ذلك. إن الخطابة فن مخيف؛ لا تعرف ما الذي يفعله الصوت وما يمكن أن تفعله الكلمات، على الرغم من أنها كلمات غير مقنعة في ذاتها. إن قوتها تكمن في الطريقة التي تُقال بها. صوته يرن كالجرس والنساء يصحن ويبكين

ويغُشى عليهن عندما يخاطبهن... سترى ذلك بنفسك.

لقد رأيت حرس شارلوت الليلة الماضية وهم يرتدون أحسن الثياب. الناس يحبون أن يرتدوا أحسن الثياب في هذه الأيام. ستراهم في كل بلاد العالم في مظهرهم المختار، تختلف مظاهرهم باختلاف بلدانهم، سترى بعضهم ذا شعر طويل وقد أطلقوا لحاهم، والفتيات في ثيابهن البيضاء المُسدلة يتحدثن عن السلام والجمال والعالم الرائع الذي هو عالم الشباب الذي سيكون عالمهم عندما يدمرون العالم القديم. لقد كانت دولة الشباب الأصلية غرب البحر الإيرلندي، أليس كذلك؟ مكان بسيط جداً، كانت دولة شباب تختلف عما نخطط له الآن، رمالاً فضية وشمساً ساطعة وغناء للأمواج... ولكننا نريد الآن الفوضى ونريد التدمير والتخريب. الفوضى وحدها تستطيع إفادة من يسير وراءها. إنه أمر مخيف.

- إذن فأنت ترين العالم اليوم هكذا؟

- أحياناً.

- وماذا عليّ أنا أن أفعل الآن؟

- تأتي مع مرشدتك... وأنا مرشدتك. سآخذك إلى الجحيم، سأريك الوحشية والألم والعنف كيف تُعبَد، وسوف أريك الأحلام العظيمة في جنة السلام والجمال. لن تستطيع تمييزها أو معرفة حقيقتها، ولكن عليك أن تقرر أمرك.

- هل أثق بك يا ريناتا؟

- إنه خيارك. تستطيع أن تهرب مني أن شئت أو تبقى معي

وترى العالم الجديد، العالم الجديد الذي يتشكل الآن.

قال السير ستافورد ناي بعنف: عالم كرتوني زائف.

نظرت إليه متسائلة فقال: مثل أليس في بلاد العجائب! أوراق اللعب، الأوراق الكرتونية ترتفع كلها في الهواء ويتطاير من حولك الصبيان والبنات والشيوخ كل الأشياء.

- تعني... ما الذي تعنيه بالضبط؟

- أعني أنه عالم غير حقيقي؛ عالم يقوم على الإيحاء. الأمر اللعين كله مجرد إيحاء.

- إلى حد ما، نعم.

- الكل يتظاهر، يؤدي دوراً ويقدم عرضاً. إنني أقترب أكثر من معنى الأشياء، أليس كذلك؟

- إلى حد ما نعم، وإلى حد ما لا.

- شيء واحد أريد سؤالك عنه لأنه يحيرني. لقد أمرتك شارلوت الضخمة بإحضاري لكي أراها... لماذا؟ ما الذي تعرفه عني؟ بماذا تظن أنني يمكن أن أفيدها؟

- لا أعرف بالضبط. ربما أرادتك رجلاً يمارس السلطة من خلف الستار، رجلاً يعمل من خلف واجهة زائفة. من شأن ذلك أن يناسبك تماماً.

- لكنها لا تعرف عني أي شيء.

- آه، هكذا!

انفجرت ريناتا فجأة بنوبة ضحك ثم قالت: يا للسخافة! الهراء القديم ذاته يكرر نفسه ثانية.

- لا أفهمك يا ريناتا.

- نعم، لأن الأمر بسيط جداً. سيفهمه السيد روبنسن.

- هلاّ تكرمت وشرحت لي ما تتحدثين عنه؟

- إنها المعادلة القديمة نفسها: ليست العبرة فيمن تكون، بل فيمن تعرف. لقد كانت عمتك ماتيلدا وشارلوت في المدرسة معاً.

- هل تقصدين...

- فتيات معاً.

حدق إليها، ثم ألقى برأسه إلى الوراء وانفجر ضاحكاً.

* * *

الفصل الثاني عشر
مهرّج البلاط

غادرا القلعة في منتصف النهار بعد أن ودّعا مضيفتهما، ثم سارت السيارة بهما في طريق ملتو تاركة القلعة خلفها على ارتفاع شاهق، ووصلا أخيراً بعد ساعات عديدة من القيادة إلى معقل محصَّن في دولومايت في شكل مُدرَّج في الجبال حيث كانت تعقد اجتماعات وحفلات فنية ولقاءات لمختلف منظمات الشباب.

ريناتا هي التي جاءت به إلى هذا المكان وهي مرشدته، ومن مقعده على إحدى الصخور أصغى وراقب ما كان يجري. ازداد فهمه قليلاً لما كانت تتحدث عنه في وقت مبكر من ذلك اليوم؛ هذا التجمع الجماهيري الكبير تدبّ فيه الحيوية والحماسة مثل كل التجمعات الجماهيرية، سواء دعا إليها زعيم ديني أو في حشد لكرة القدم أو في المظاهرات الضخمة التي كانت تتحرك للهجوم على السفارات والشرطة والجامعات وغيرها.

لقد جاءت به هناك لكي يرى معنى تلك العبارة الواحدة: الشاب سيغفريد... فرانز جوزيف (إن كان هذا هو اسمه الحقيقي) كان يخطب بالمجتمعين. كان صوته الذي يرتفع وينخفض بنبرته

المثيرة الغريبة وجاذبيته العاطفية يسيطر ويتحكم بذلك الحشد من الشابات والشباب الذين كانوا يئنّون، بل يكادون ينوحون نواحاً. بدت كل كلمة نطق بها محمَّلة بالمعاني وذات وقع لا يصدَّق عليهم، وكانت الجموع تتجاوب مثل أوركسترا موسيقية، وكان صوته يعمل عمل عصا قائد الفرقة الموسيقية. ومع ذلك، ما الذي قاله ذلك الصبي؟ ماذا كانت رسالة الشاب سيغفريد؟ عندما انتهى الخطاب لم يتذكر كلمة ممّا قاله، لكنه عرف بأنه تأثر بكلماته وأغدقت عليه الوعود وأثيرت حماسته. والآن انتهى، واندفع الجمع حول المنصة الصخرية يصرخون ويصيحون. وفكّر ناي: ما هذا العالم الذي نعيش فيه هذه الأيام؟ لقد بات كل شيء مسخَّراً لإثارة العواطف، أما الانضباط والحزم وضبط النفس فلم يعد يُحسَب لأي منها أي حساب. لا شيء يهم سوى الشعور. وتساءل: أي عالم يمكن لهذه المشاعر أن تصنعه؟!

كانت مرشدته قد أمسكت به من ذراعه وسحبته بعيداً عن الجمع. عادا إلى سيارتهما وانطلق بهما السائق عبر طرقات بدا أنه يعرفها جيداً، إلى بلدة ذات فندق صغير على سفح أحد الجبال حيث حُجزت لهم غرف هناك.

خرجا يتمشيان خارج الفندق فور وصولهما فصعدا سفح الجبل إلى أن وصلا إلى مقعد جلسا عليه صامتين لبضع لحظات، وهناك تمتم ستافورد ناي ثانية: عالم كرتوني زائف!

جلسا ينظران لبضع دقائق إلى الوادي أسفل منهما، ثم قالت ريناتا: حسناً؟

- ماذا تريدين سؤالي؟

- ما رأيك بما أريتك إياه حتى الآن؟

- لست مقتنعاً.

تنهدت بعمق بشكل غير متوقع وقالت: هذا ما كنت أرجو أن تقوله.

- ليس فيه شيء صحيح، أليس كذلك؟ إنه عرض ضخم، عرض قام به مخرج... وربما مجموعة كاملة من المخرجين. وتلك المرأة المتوحشة تدفع للمخرج، تستأجر المخرج. نحن لم نرَ المخرج، إن ما شاهدناه اليوم هو النجم الممثل فقط.

- ما رأيك فيه؟

- وهو غير حقيقي أيضاً... مجرد ممثل، ممثل من الدرجة الأولى تم إخراج دوره بشكل رائع.

فاجأه صوتٌ سرعان ما أدرك أنه ضحكة ريناتا. نهضت من مقعدها وبدت فجأة منفعلة سعيدة، وبدت عليها مسحة سخرية في الوقت نفسه. قالت: عرفت ذلك... عرفت أنك ستفهم، كنت أعرف أنك ستظل ثابتاً. كنتَ دائماً هكذا تدرك كل شيء تراه في حياتك، أليس كذلك؟ لقد عرفتَ المخادعين وأصحاب الحِيَل، عرفتَ كل شيء وكل إنسان وقيّمته بحسب حجمه الحقيقي. لا حاجة لأن تذهب إلى ستراتفورد لتشاهد مسرحيات شكسبير حتى تعرف الدور الذي أوكل إليك؛ لا بد للملوك وعظماء الرجال من مهرج... مهرج الملك الذي يقول الحقائق للملك ويتكلم بالمنطق والفطرة السليمة ويسخر من كل الأشياء التي تخدع الآخرين.

- أهذا هو دوري إذن؟ مهرج البلاط؟

- ألا تشعر أنت بذلك؟ هذا ما نريده... هذا ما نحتاج إليه. لقد قلت إنه عالم زائف وكرتوني، عرض كبير متقَن وجميل، وكنت على حق في هذا. لكن الناس ينخدعون، يعتقدون بأن شيئاً ما رائعٌ أو أنه مهم جداً، لكنه ليس كذلك بالطبع. وما على المرء إلاّ... إلاّ أن يعثر على طريقة يُري بها الآخرين ذلك السخف، يُريهم أن كل شيء سخيف، مجرد خداع سخيف. هذا ما سنفعله أنا وأنت.

- وهل ترين أننا سنقوم بكشف كل هذا الزيف في النهاية؟

- أتفق معك بأن المهمة تبدو بعيدة الاحتمال، لكنك تعرف أنه عندما يتم إرشاد الناس إلى أن أمراً ما غير حقيقي وأنه مجرد خدعة ضخمة... حسناً، سيكون علينا أن نقدم لهم أدلة وحقائق.

- وهل لدينا مثل هذه الأشياء؟

- نعم. ما أحضرته معي وأنا في طريق العودة عبر فرانكفورت وما ساعدتني في إحضاره إلى إنكلترا بأمان.

- لا أفهم.

- لم يئن الأوان... ستعرف ذلك لاحقاً، أما الآن فلدينا دور نؤديه؛ إننا راغبان ومستعدان، بل متلهفان، لتشرّب معتقداته. إننا نحب الشباب ونقدسه، نحن أتباع الشاب سيغفريد ومن المؤمنين به.

- يمكنك أنت أن تؤدي هذا بنجاح دون شك، لكني لست متأكداً من نفسي. لم أكن أبداً ناجحاً في الإخلاص لأي شيء. إن

مهرج الملك لا يكون تابعاً أعمى، بل هو الفاضح الكبير للزيف. لا أحد سيقدّر ذلك كثيراً الآن، أليس كذلك؟

- بالطبع لن يقدّروا. لا تظهر هذا الجانب من نفسك، إلاّ إذا كنت -بالطبع- تتحدث عن سادتك والمسؤولين عنك والسياسيين والدبلوماسيين ووزارة الخارجية والمؤسسة الحاكمة... عندها يمكنك أن تظهر المرارة والحقد وتكون ساخراً وقاسياً بعض الشيء.

- ما زلت لا أفهم دوري في هذا الحملة العالمية.

- إنه دور قديم جداً، دور يفهمه الجميع ويقدرونه وفيه منفعة لك. هذا هو عملك. لم يتم تقديرك في الماضي ولكن الشاب سيغفريد وكل ما يرمز إليه سوف يلوّح لك بأمل المكافأة لأنك تعطيه كل الأسرار الداخلية التي يريدها عن بلدك، وسوف يعدك بمنصب في السلطة في ذلك البلد عندما يحين الوقت المناسب.

- تلمّحين إلى أن هذه حركة عالمية، هل هذا صحيح؟

- إنها كذلك بالطبع، إنها مثل واحد من تلك الأعاصير التي تحمل أسماء... فلورا أو آني الصغيرة. إنها تأتي من الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب، لكنها تأتي من العدم وتدمر كل شيء. هذا ما يريده الجميع في أوروبا وآسيا وأمريكا. آه، نعم، إنها حركة عالمية دون شك، يديرها الشباب بكل حيويتهم المتقدة، وليست لديهم المعرفة ولا الخبرة لكن لديهم الرؤية والحيوية وهم مدعومون بالمال، أنهر وأنهر من الأموال تنصبّ عليهم. كان يسود الكثير من المادية فطالبنا بشيء آخر وحصلنا عليه، ولكن بما أنه قائم على الكراهية فإنه لن يفضي إلى أي هدف. ألا تتذكر كيف كان

الجميع يسيرون عام ١٩١٩ بوجوه ضاحكة قائلين إن الشيوعية هي الحل لكل شيء وأن العقيدة الماركسية ستأتي بجنة جديدة على أرض جديدة؟ إن كثيراً من الأفكار النبيلة تتردد في الأفق، ولكن مع مَن تعمل الأفكار؟ ليس أمامك -في نهاية الأمر- إلاّ البشر ذاتهم الذين كنت تنفذها معهم دائماً. يمكنك أن تصنع الآن عالماً ثالثاً أو هكذا يظن الجميع، لكن عندما يقوم البشر أنفسهم بإدارة الأمور فسوف يديرونها بالطريقة ذاتها... ما عليك إلاّ أن تنظر إلى التاريخ.

- وهل يهتم أحد بالنظر إلى التاريخ هذه الأيام؟

- لا، إنهم يفضلون النظر إلى مستقبل لا يمكن التنبؤ به. لقد أوشك الناس ذات يوم على النظر إلى العلم على أنه الحل لكل شيء، وظن الناس أن آراء فرويد ستكون الحل التالي للبؤس البشري وأنه لن يبقى المزيد ممن يعانون من أمراض عقلية. ولو أن أحداً قال وقتها إن المصحات العقلية ستغدو أكثر اكتظاظاً لما صدّقه أحد.

قاطعها ستافورد ناي: أريد أن أعرف شيئاً.

- ما هو؟

- ما هي خطوتنا التالية؟

- أمريكا الجنوبية، وقد نمر بآسيا في طريقنا إلى هناك، ولا بد أن نذهب إلى الولايات المتحدة بالتأكيد. الكثير يجري هناك ويثير الاهتمام فعلاً، وخصوصاً في كاليفورنيا.

- في الجامعات؟ كم يسأم المرء من الجامعات؛ إنها تكرر نفسها كثيراً!

جلسا صيامتين لبعض الوقت. بدأ ضوء النهار يخفت لكن قمة الجبل كانت حمراء بعض الشيء. ثم قال ستافورد ناي بنبرة فيها تشوّق وحنين: لو كان بالإمكان سماع مزيد من الموسيقى الآن، في هذه اللحظة، فهل تعلمين ما سأطلبه؟

- المزيد من موسيقى فاغنر؟

- أنت على حق؛ المزيد من موسيقى فاغنر. كنت سأطلب لحن «هانز ساش» وهو يجلس تحت شجرته القديمة ويقول عن العالم: مجنون، مجنون، كله مجنون.

- نعم، هذا يعبّر عما نحن فيه، وهي موسيقى رائعة أيضاً، ولكننا لسنا مجنونَين بل عاقلَين.

- في منتهى العقل، وهنا ستكمن الصعوبة. هل ستطول بنا الحياة يا ماري آن؟

- قد لا تطول.

- هذه هي العزيمة... أنا معك يا مرشدتي! وهل سنحصل على عالم أفضل نتيجة لجهودنا هذه؟

- لا أظن ذلك، لكنه قد يكون عالماً ألطف.

- هذا جيد. إلى الأمام!

* * *

الكتاب الثالث

في الوطن وفي الخارج

الفصل الثالث عشر
اجتماعٌ في باريس

جلس خمسة من الرجال في غرفة في باريس، وكانت غرفة شهدت الكثير من الاجتماعات التاريخية من قبل، لكن هذا الاجتماع كان من نوع مختلف، ومع ذلك فقد كان يَعِدُ بأن لا يكون أقل تاريخية من الاجتماعات الأخرى.

كان يرأسه السيد غروسجين، وكان رجلاً قلقاً يبذل غاية جهده في المرور على الموضوعات الشائكة بسهولة ويسر وجاذبية كانت تساعده في الماضي كثيراً، لكنه لم يُشعر بأن ذلك يساعده كثيراً اليوم. كان السنيور فيتيلي قد وصل من إيطاليا بطريق الجو قبل ساعة، وكانت إشاراته حماسية وسلوكه غير متزن. كان يقول: لقد تجاوز الأمر كل حد، تجاوز كل حد تخيله المرء.

قال المنسيور غروسجين: هؤلاء الطلبة... ألسنا جميعاً نعاني منهم؟

- هذه المسألة أكبر من الطلبة... بماذا نقارنها؟ سرب من النحل، كارثة طبيعية مُركَّزة أكثر مما يمكننا تصوره. إنهم ينظمون

مسيرات ولديهم أسلحة، وقد تزودوا بطائرات في مكان ما. يبدو أنهم يعتزمون السيطرة على شمال إيطاليا بأكمله، لكنه عمل جنوني! إنهم أطفال لا أكثر، ومع ذلك لديهم قنابل ومتفجرات. في مدينة ميلانو وحولها يفوق عددهم عدد الشرطة. إنني أسألكم عن الذي يمكننا فعله؟ الجيش؟ الجيش أيضاً في حالة تمرد. يقولون إنهم مع الشباب وإنه لا أمل للعالم إلاّ في الفوضى وإلغاء الحكومات، ويتحدثون عما يسمونه عالماً ثالثاً... ولكن ذلك لا يمكن أن يحدث.

تنهد السيد غروسجين وقال: الفوضى وإلغاء الحكومات مسألة رائجة بين الشباب، نعرف هذا من كل المتاعب التي عانى منها بلدنا وإمبراطوريتنا الاستعمارية. وماذا يمكننا عمله؟ الجيش؟ إنه يدعم الطلبة في نهاية الأمر.

قال السيد بواسونييه: الطلبة، آه، الطلبة!

كان السيد بواسونييه وزيراً في الحكومة الفرنسية يرى في كلمة «طلبة» شيطاناً رجيماً، ولو أنه سُئل لاعترف بتفضيله الزكام الآسيوي، بل حتى انتشار الطاعون، فكلاهما أفضل من أنشطة الطلبة في رأيه! كان يحلم أحياناً بعالم خالٍ من الطلبة، ولطالما كانت تلك أحلاماً رائعة، ولكن السيد بواسونييه لم يعد يرى الكثير منها مؤخراً!

قال المنسيور غروسجين: وقضاتنا، ما الذي حدث للسلطات القضائية عندنا؟ القضاة يرفضون فرض أحكام قضائية على الشباب الذين يقدَّمون للمحاكمات، الشباب الذين حطموا الممتلكات،

الممتلكات الحكومية والممتلكات الخاصة وكل أنواع الممتلكات. ويود المرء لو يعرف لماذا؟ كنت أقوم ببعض التحريات في الفترة الأخيرة، يقولون إن هناك حاجة لرفع مستوى المعيشة بين أعضاء السلطة القضائية وخصوصاً في مناطق الأقاليم.

قال السيد بواسونييه: يجب أن تحذر مما تقترحه.

- يا صديقي، ولِمَ الحذر؟ الصراحة واجبة في الأمور. لقد حدثت عندنا أعمال احتيال، احتيالات ضخمة، وهناك أموال يتم تداولها الآن، أموال لا نعرف من أين تأتي لكن المحافظ قال لي (وأنا أصدقه في هذا) إنهم بدؤوا يجمعون بعض المعلومات عن المكان الذي تذهب إليه هذه الأموال. هل يمكن أن نتأمل فيما يجري ونفترض الوصول إلى دولة فاسدة يمولها مصدرٌ خارجي معين؟

قال السيد فيتيلي: وفي إيطاليا أيضاً، في إيطاليا، آه، يمكنني أن أقول لكم أشياء. نعم، أستطيع أن أخبركم بما نشك فيه، ولكن من هذا الذي يفسد علينا عالمنا؟ مجموعة من رجال الصناعة؟ مجموعة من حيتان المال؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟

قال السيد غروسجين: يجب وقف هذا العمل، يجب اتخاذ إجراءات، إجراءات عسكرية، إجراءات من سلاح الجو... هؤلاء الفوضويون النهابون، إنهم من كل الطبقات. يجب سحق هذه الأعمال.

قال بواسونييه بارتياب: السيطرة عليهم باستخدام قنابل الغاز المسيل للدموع كانت فكرة ناجحة تماماً.

قال السيد غروسجين: القنابل المسيلة للدموع لا تكفي. يمكن الحصول على النتيجة ذاتها إذا ما أرغمنا الطلبة على تقشير كميات من البصل لأن الدموع ستنهمر من أعينهم. الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك.

قال السيد بواسونييه بصوت مصدوم: هل تقترح علينا استخدام الأسلحة الذرية؟

- الأسلحة الذرية؟ يا لها من مزحة!

- أتريد أن تقول إن مجموعات المتظاهرين من الطلبة يمكنها تحطيم قواتنا الضاربة؟

- هذا ما أريد قوله بالضبط؛ لقد تلقيت تحذيراً من مثل هذه الأمور، من تكديس الأسلحة وأشكال عديدة من وسائل الحرب الكيماوية ومن أشياء أخرى... لقد تلقيت تقارير من بعض علمائنا البارزين. إن الأسرار تتسرب، ومخازن الأسلحة السرية... أسلحة الحرب سُرقت. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ما الذي سيحدث؟

تمت الإجابة على السؤال بطريقة غير متوقعة وبسرعة أكبر مما كان يظنه السيد غروسجين؛ فقد فُتح الباب واقترب سكرتيره منه والاهتمام بادٍ على وجهه. نظر السيد غروسجين إليه باستياء: ألم أقل إنني لا أريد أن يقطع أحدٌ علينا جلستَنا؟

- نعم يا سيدي، لكن أمراً غير عادي قد حدث.

مال إلى أذن سيده وقال هامساً: المارشال هنا، إنه يطلب الدخول.

- المارشال؟ تقصد...

أومأ السكرتير برأسه عدة مرات ليؤكد أن هذا ما كان يقصده، فنظر السيد بواسونييه إلى زميله متحيراً.

- إنه يطلب الإذن بالدخول ولا يرضى بالرفض.

نظر الرجلان الآخران في الغرفة إلى غروسجين أولاً ثم إلى الإيطالي الغاضب. قال وزير الداخلية السيد كوان: لو...

لكنه توقف عند تلك الكلمة بعد أن فُتح الباب بقوة ودخل منه رجل، رجل معروف جداً، رجل لم تكن كلمته قانوناً فقط بل كانت فوق القانون في فرنسا لسنوات طويلة مضت. إن رؤيته في هذه اللحظة مفاجأة لا تلقى الترحيب من الجالسين هناك.

قال المارشال: آه، مرحباً بكم يا زملائي الأعزاء. لقد جئت لمساعدتكم. إن بلدنا في خطر، ويجب القيام بإجراء ما، إجراء فوري! لقد جئت لأضع نفسي تحت تصرفكم. إنني أتولى كامل المسؤولية عن التصرف في هذه الأزمة. قد يكون هناك خطر، وأنا أعرف أن هناك خطراً، لكن الشرف فوق الخطر، إنقاذ فرنسا فوق كل الأخطار. إنهم يسيرون في هذا الاتجاه الآن، قطعان كبيرة من الطلبة ومن المجرمين الذين أُطلقوا من السجون، وبعضهم كان قد ارتكب جرائم قتل. إنهم يهتفون لأسماء ويغنون الأغاني، يهتفون بأسماء معلميهم وفلاسفتهم ومَن يقودهم في طريق العصيان المسلح هذا. هؤلاء الذين سيقضون على فرنسا ما لم نفعل شيئاً. أنتم تجلسون هنا وتتحدثون وتستنكرون، لكن لا بد من عمل شيء أكثر

من هذا. لقد أرسلت في طلب فرقتين ووضعت القوات الجوية في حالة تأهب، وأرسلنا برقيات مشفرة خاصة إلى جيراننا من الحلفاء، إلى أصدقائي في ألمانيا لأنها حليفتنا الآن في هذه الأزمة.

وسكت قليلاً ثم مضى قائلاً: ينبغي قمع أعمال الشغب. التمرد، العصيان المسلح! الخطر على الرجال والنساء والأطفال والممتلكات. سأذهب الآن لتهدئة العصيان، لأتكلم معهم كأب لهم وقائد. هؤلاء الطلبة وحتى هؤلاء المجرمون أبنائي، إنهم شباب فرنسا، وسوف أذهب لأتكلم معهم عن ذلك وسوف يصغون إليّ وسوف نعيد النظر في تشكيل الحكومة. يمكن استئناف دراستهم تحت رعايتهم وإشرافهم هم... إن الإعانات التي تقدَّم لهم غير كافية، وقد حُرموا من الأشياء الجميلة ومن القيادة، وقد جئت لأتعهد لهم بكل هذا. إنني أتكلم باسمي شخصياً وسوف أتكلم باسمكم أيضاً، باسم الحكومة، فقد بذلتم جهدكم وتصرفتم بأفضل ما تسمح به خبراتكم، ولكن الأمر يحتاج إلى قيادة أعلى، إنه يحتاج إلى قيادتي أنا. سأذهب الآن، لديّ قوائم ببرقيات مشفَّرة أخرى أريد أن أبعثها. لقد فكرت في كل شيء، خطتي سوف تسير. هيا يا أصدقائي المخلصين، رافقوني.

- أيها المارشال، لا يمكننا أن نسمح... لا يمكن أن تعرّض نفسك إلى الخطر. يجب أن...

- لن أصغي لأي شيء تقولونه، وأنا أتقبل قدري ومصيري.

سار المارشال نحو الباب ثم قال: إن مُساعديّ في الخرج، حرسي الشخصي المختار. سأذهب الآن لكي أخاطب هؤلاء

الشباب المتمردين، أزهار الجمال والرعب الصغيرة لأخبرهم أين هو واجبهم.

ثم خرج من الباب بأبهة ممثل رئيسي يؤدي دوره المفضل.

قال السيد بواسونييه: يا إلهي، إنه يعني ما يقول!

قال السيد فيتيلي: سوف يجازف بحياته. مَن يدري؟ إنها شجاعة، إنه رجل شجاع. إنها شهامة، نعم، ولكن ماذا سيحدث له؟ قد يقتلونه في الحالة التي هم عليها الآن.

تنهد السيد بواسونييه بفرح وارتياح. رأى أن هذا قد يكون صحيحاً، نعم، قد يكون صحيحاً. قال: هذا ممكن. نعم، قد يقتلونه.

قال السيد غروسجين بحذر: لا يمكن للمرء أن يتمنى ذلك بالطبع.

كان السيد غروسجين يتمناه فعلاً. كان يأمل ذلك رغم أن تشاؤمه الطبيعي قاده إلى الفكرة الثانية وهي أن الأمور نادراً ما تسير وفق ما يريده المرء. والواقع أنه رأى نفسه يواجه احتمالاً أفظع بكثير، كان يمكن تماماً أن يغري المارشال بطريقة أو بأخرى مجموعات كبيرة جداً من الطلبة المتحمسين المتعطشين للدماء بالإصغاء إلى ما يريد قوله وأن يثقوا بوعوده فيصرّوا على إعادته إلى السلطة التي كانت له ذات يوم. لقد كان ذلك من ضمن تقاليد المارشال وماضيه، لقد حدث مثل ذلك مرة أو مرتين خلال حياته المهنية، وقد كانت جاذبيته الشخصية مؤثرة إلى الحد الذي جعل

السياسيين سابقاً يتجرعون الهزيمة منه من حيث لا يتوقعونها.

ثم صاح: يجب أن نوقفه.

قال السيد فيتيلي: نعم، نعم، لا يمكن السماح بأن يفقده العالم.

قال السيد بواسونييه: إن المرء يخاف، إن لديه كثيراً من الأصدقاء في ألمانيا وله اتصالات كثيرة جداً، كما أنهم يتحركون بسرعة في ألمانيا في المسائل العسكرية. قد ينتهزون هذه الفرصة بلهفة.

قال السيد غروسجين وهو يمسح العرق عن حاجبه: يا إلهي! ماذا سنفعل؟ ماذا يمكننا أن نفعل؟ ما هذا الصوت؟ إنني أسمع أصوات بنادق، هل هذا صحيح؟

قال السيد بواسونييه مواسياً: لا، لا، إن ما تسمعه هو صوت صواني القهوة في مطعم الموظفين.

قال السيد غروسجين الذي كان يحب الدراما كثيراً: ثمة عبارة مقتطفَة بوسعي استخدامها لو أتيح لي فقط أن أتذكرها... عبارة مقتبسة من شكسبير: «أما من أحد يخلصني من هذا...».

قال السيد بواسونييه: الكاهن المتمرد في مسرحية «بيكيت».

* * *

الفصل الرابع عشر
اجتماعٌ في لندن

في قاعة مجلس الوزراء في المبنى رقم ١٠ في داوننغ ستريت جلس السيد سيدريك لازنباي، رئيس الوزراء، عند رأس الطاولة ونظر إلى أعضاء حكومته المجتمعين دون أي سرور ملحوظ. كان التعبير الظاهر على وجهه كئيباً بالتأكيد، الأمر الذي كان يمنحه -بشكل ما- راحة معينة. لقد بدأ يحسب أنه لا يستطيع أن يُرخي تعابير وجهه بحيث تظهر تعاستها إلاّ في خلوة اجتماعه بحكومته، حيث يستطيع التخلي عن الصورة التي يُظهرها عادة أمام العالم، صورة التفاؤل الحكيم القانع التي خدمته جيداً في الأزمات المختلفة في حياته السياسية.

نظر حوله إلى غوردن تشيتويند الذي كان عابساً، وإلى السير جورج باكهام الذي كان القلق بادياً على وجهه وهو يفكر ويتساءل كما هي العادة، ثم نظر إلى الرزانة والهدوء العسكري البادي على الكولونيل مونرو، ثم إلى مارشال الجو كينوود العابس الذي لا يكلف نفسه عناء إخفاء عدم ثقته بالسياسيين. كان هناك أيضاً

الأدميرال بلانت، و هو رجل ضخم الجسم كان يضرب الطاولة بأصابع يده وينتظر الفرصة المناسبة التي يحين فيها دوره.

كان مارشال الجو يقول: الوضع ليس جيداً، علينا الاعتراف بهذه الحقيقة. لقد اختطفت أربعٌ من طائراتنا خلال الأسبوع الماضي. اختطفت إلى ميلانو حيث أخرجوا منها الركاب وطاروا بها إلى مكان آخر في إفريقيا، حيث كان هناك طيارون من السود في انتظارهم هناك.

قال الكولونيل مونرو متأملاً: القوة السوداء!

قال لازنباي: أو القوة الحمراء؟ أشعر بأن كل مصاعبنا تنشأ من العقيدة الروسية. لو استطعنا الاتصال مع الروس... أرى حقاً أن زيارة شخصية على مستوى عالٍ...

قال الأدميرال بلانت: ابقَ حيث أنت يا رئيس الوزراء، لا تلعب دور الأحمق مع الروس ثانية. إن كل ما يريدونه في الوقت الحالي هو تجنب كل هذه الفوضى. إنهم لا يعانون من مشكلات مع طلابهم كما نعاني نحن، وكل ما يهمهم هو مراقبة الصينيين ليروا ما هي خطوتهم التالية.

- أعتقد أن التأثير الشخصي...

قال الأدميرال بلانت بفظاظة كما هي عادته: ابقَ هنا واعتن ببلدك.

قال غوردن تشيتويند وهو ينظر إلى الكولونيل مونرو: أليس من الأفضل أن نسمع... نسمع تقريراً عما يحدث بالفعل؟

قال الكولونيل مونرو: تريد الحقائق؟ صحيح، كلها حقائق كريهة. أظن أنك لا تريد تفصيلات عمّا حدث هنا بقدر ما تريد معلومات عن الوضع العالمي بشكل عام؟

- صحيح.

- حسناً، في فرنسا ما زال المارشال في المستشفى بعد رصاصتين في ذراعه، والدوائر السياسية هناك تعيش في حالة من الفوضى. أماكن كثيرة من البلاد يسيطر عليها الآن جنود ما يسمى بسلطة الشباب.

قال غوردن تشيتويند بذعر: هل تعني أن لديهم أسلحة؟

- لديهم الكثير منها. لا أدري حقاً من أين حصلوا عليها؛ هناك بعض الظنون في هذا المجال... لقد أرسلت شحنة كبيرة من الأسلحة من السويد إلى غرب إفريقيا.

قال السيد لازنباي: وما علاقة هذا بالأمر؟ من يهتم؟ دعهم يحصلوا على كل الأسلحة التي يريدونها في غرب إفريقيا، يمكنهم المضي في قتل بعضهم بعضاً.

- حسب تقاريرنا الاستخبارية ثمة شيء غريب بعض الشيء في هذه المسألة. ها هي قائمة بالأسلحة التي أُرسلت إلى غرب أفريقيا، والمثير في الأمر أنها أرسلت إلى هناك لكن أعيد تصديرها إلى الخارج من جديد. لقد استُلمت وتم إقرار استلامها وربما دُفعت أثمانها أو لم تُدفع، لكنها أرسلت إلى الخارج من جديد قبل مضي

خمسة أيام على استلامها... لقد أرسلت إلى الخارج واتجهت إلى مكان آخر.

- ولكن ما هي الفكرة من هذا؟

قال مونرو: يبدو أن الفكرة هي أنها لم تكن مرسلة في الأصل إلى غرب إفريقيا. لقد دُفعت أثمان تلك الأسلحة وأرسلت إلى مكان آخر، ويبدو أنها قد تكون انتقلت من إفريقيا إلى اليونان وإلى تركيا أو إلى أماكن أخرى. كما أرسلت شحنة من الطائرات إلى مصر، ومن مصر أرسلت إلى الهند، ومن الهند أُرسلت إلى روسيا.

- لقد ظننت أنها أرسلت من روسيا.

- ومن روسيا ذهبت إلى براغ... إنه عمل جنوني لا يصدَّق.

قال السير جورج: لا أفهم، أنا محتار.

- لا بد من وجود منظمة مركزية في مكان ما توجّه الإمدادات المختلفة: طائرات وأسلحة وقنابل ومتفجرات ومواد تُستخدَم في الأسلحة الجرثومية... كل هذه الشحنات تتحرك في اتجاهات غير متوقعة ويتم تسليمها عبر الطرق البرية إلى أماكن المشكلات ويستخدمها قادة سلطة الشباب وفرقهم العسكرية إن صح التعبير، ويذهب معظمها إلى قادة الحركات الفدائية الشابة ودعاة الفوضوية الذين يستلمون أحدث الأسلحة... على الرغم من أننا نشك في أنهم يدفعون قيمتها.

قال سيدريك لازنباي مدهوشاً: هل تعني أننا نواجه شيئاً أشبه بحرب على مستوى عالمي؟

رفع الرجل الهادئ صاحب الوجه الآسيوي الجالس في آخر الطاولة (ولم يكن قد تكلم بعد) رفع وجهه وهو يبتسم ابتسامة مغولية وقال: هذا ما يُدفع المرء دفعاً إلى اعتقاده الآن. ملاحظاتنا تقول لنا...

قاطعه لازنباي قائلاً: يجب أن تتوقفوا عن الملاحظة، يجب على الأمم المتحدة أن تحمل السلاح وتقمع كل ذلك.

ظل الوجه الهادئ ساكناً وقال: سيكون ذلك مناقضاً لمبادئنا.

رفع الكولونيل مونرو صوته وأكمل تلخيصه للموقف: يوجد قتال في أجزاء معينة من كل بلد. توجد أربع فرق قوة أو خمسٌ مختلفة في أمريكا الجنوبية وكوبا وبيرو وغواتيمالا وغيرها، وبالنسبة للولايات المتحدة فأنتم تعلمون أن واشنطن قد اشتعلت كلها عملياً... الغرب الأمريكي اجتاحته القوات المسلحة لسلطة الشباب وشيكاغو تحت الأحكام العرفية. هل تعرفون عن سام كورتمان؟ لقد قُتل الليلة الماضية على عتبات السفارة الأمريكية هنا.

قال لازنباي: كان يجب أن يحضر اجتماعنا هذا اليوم، كان سيعطينا آراءه حول الوضع.

قال الكولونيل مونرو: لا أظن أن ذلك كان سيساعدنا كثيراً، لقد كان رجلاً لطيفاً لكنه لم يكن يقظاً تماماً.

ارتفع صوت لازنباي مضطرباً: ولكن من الذي يقف وراء هذا كله؟ قد يكون الروس بالطبع...

لم يزل بوسعه أن يتخيل نفسه متجهاً إلى موسكو.

هزّ الكولونيل مونرو رأسه وقال: أشك في ذلك.

قال لازنباي: أهو زعيم جديد ذو جاذبية شخصية، أم منطقة نفوذ جديدة تماماً، أم الصينيون...؟

قال الكولونيل مونرو: ليسوا الصينيين، لكنك تعرف أن هناك صحوة كبيرة للفاشية الجديدة في ألمانيا.

- لا أظنك ترى حقاً أن الألمان يمكن أن...

- لا أظن أنهم وراء كل هذا الأمر بالضرورة، ولكن عند الحديث عن الإمكان... نعم، فأعتقد أنهم يمكن أن يكونوا وراءه. لقد فعلوا مثل ذلك من قبل وأعدّوا للأمور قبل سنوات من بدايتها وخططوا لها، وجعلوا كل شيء جاهزاً بانتظار كلمة «انطلق». إنهم مخطّطون جيدون، مخططون رائعون ذوو عمل جماعي ممتاز. إنني معجب بهم، لا يسعني إلاّ الإعجاب بهم.

- لكن ألمانيا تبدو هادئة وتُدار بشكل جيد.

- نعم، إلى حد ما بالطبع. ولكن هل تعرف أن أمريكا الجنوبية مليئة بالألمان، بالفاشستيين الجدد الشباب؟ كما أن لديهم اتحاداً كبيراً للشباب هناك. يسمون أنفسهم الآريين المتفوقين أو شيئاً من هذا القبيل. ما زال هناك الكثير من الهراء القديم مثل الصليب المعقوف وأساليب التحية، وهناك شخص يديرها يدعى «الشاب ووتان» أو «الشاب سيغفريد» أو اسماً كهذا... هناك الكثير من الهراء الآري.

طرق أحدهم الباب ودخل السكرتير قائلاً: البروفسور إيكشتاين هنا يا سيدي.

قال سيدريك لازنباي: يفضَّل أن نُدخله. إن كان هناك أحد يمكنه أن يخبرنا عن آخر ما توصلت إليه الأبحاث من أسلحة فإنه هو، وقد يكون في جعبتنا شيء نستطيع بواسطته وضع نهاية سريعة لهذا السخف.

إلى جانب كون السيد لازنباي رحالة محترفاً إلى بلاد أجنبية ليقوم بدور صانع سلام كان يحتفظ بمخزن ضخم من التفاؤل نادراً ما تُظهر النتائج صحتَه.

قال مارشال الجو: إن سلاحاً سرياً جديداً من شأنه أن يفيدنا.

حين تنظر لأول وهلة إلى البروفسور إيكشتاين (الذي يعتبره الكثيرون أفضل علماء بريطانيا) يبدو لك شخصاً عديم الأهمية تماماً، فقد كان رجلاً ضئيل الجسم ذا سالفتين قديمتي الطراز ممتدتين حتى أسفل حنكيه وتلازمه سعلة ناتجة عن الربو. كان يتصرف مثل رجل همّه الاعتذار عن وجوده، وكان يصدر أصواتاً من الغمغمة والهمهمة وينفخ بأنفه ثم يسعل ثانية ويصافح مصافحةً خَجِلة وهو يُقدَّم للحاضرين. كان يعرف الكثير منهم وكان يحيّي من يعرفهم بهزة عصبية من رأسه، ثم جلس على الكرسي الذي أشير إليه ونظر حوله نظرات مبهمة، ثم رفع يده إلى فمه وبدأ يقرض أظفاره.

قال السير جورج باكهام: قادة الأجهزة المختلفة موجودون هنا، إننا متلهفون جداً على سماع رأيك حول ما يمكننا عمله.

قال البروفسور إيكشتاين: آه، عمله؟ نعم، نعم، عمله؟

بقي الجميع صامتين، وقال السير جورج: العالم يسير سريعاً نحو حالة من الفوضى.

- يبدو ذلك... هذا ما بدا ممّا قرأته في الصحف على الأقل، وهذا لا يعني أنني أثق بذلك. يا للأفكار التي يتوهمها الصحفيون! ليس في بياناتهم وتقاريرهم أية دقة.

قال سيدريك لازنباي مشجّعاً: علمت أنك توصلت إلى بعض الاكتشافات المهمة جداً مؤخراً أيها البروفسور.

تهلل وجه البروفسور إيكشتاين قليلاً وقال: آه، نعم؛ لقد توصلنا إلى ذلك فعلاً. لقد جهزنا الكثير من تلك الأسلحة الكيماوية القذرة، هذا إن كنا سنحتاجها قطّ. أسلحة جرثومية ومواد بيولوجية وغازاً يمكن توصيله عبر تمديدات الغاز العادية وتلويث الهواء وتسميم إمدادات المياه... نعم، إن كنتم تريدون ذلك فأظن أننا نستطيع قتل نصف سكان إنكلترا خلال ثلاثة أيام فقط.

ثم فرك يديه وقال: هل هذا ما تريدونه؟

بدا السيد لازنباي مذعوراً: لا، لا. آه، بالطبع لا!

- حسناً، هذا ما أعنيه. ليس الأمر أننا لا نملك أسلحة فتاكة كافية فلدينا الكثير منها. إن كل ما لدينا فتّاك جداً. إن الصعوبة تكمن في المحافظة على حياة أي إنسان، بما في ذلك نحن. إيه؟ أرواح كل المسؤولين. حسناً، نحن على سبيل المثال.

ثم ضحك ضحكة صغيرة ذات صفير. وأصرّ السيد لازنباي قائلاً: لكن هذا ليس ما نريد.

- إنها ليست مسألة ما تريده أو لا تريده، إنها مسألة المتوفر لدينا. إن كل ما لدينا قاتل جداً. إذا كنتَ تريد مسح كل مَن هم دون الثلاثين عن الخريطة فأظن أن باستطاعتك ذلك، ولكن تذكّرْ أنك ستضطر إلى قتل الكثير من كبار السن أيضاً، فمن الصعب التمييز في ذلك بين جيل وآخر. ولكنني شخصياً سأعارض ذلك، فلدينا بعض من أفضل الباحثين الشباب... صحيح أنهم ذوو عقول شريرة ولكنهم أذكياء.

سأل كينوود فجأة: ما الذي جرى للعالم؟

أجابه البروفسور إيكشتاين: هذه هي النقطة المهمة، إننا لا نعرف. لا نعرف ما الذي يحدث في بلدنا رغم كل الذي نعرفه عن هذا وذاك. إننا نعرف الآن بعض الأشياء التي لم نكن نعرفها عن القمر، ونعرف الكثير عن علم الأحياء، ونستطيع زراعة القلوب والأكباد وحتى الأدمغة بعد وقت قريب كما أتوقع... رغم أنني لا أعرف كيف يمكن لذلك أن ينجح! لكننا لا نعرف مَن الذي يقوم بهذه الفوضى. البعض يفعل ذلك، إنها قوة هائلة تعمل في الخفاء. آه، نعم، لقد برزت لدينا بطرق مختلفة؛ فهناك دوائر الجريمة ودوائر المخدرات وغيرها... مجموعة ذات قوة هائلة توجّهها بعض العقول الجيدة الذكية من وراء الكواليس. لقد رأيناها تستمر وتتفاقم في هذا البلد وغيره وعلى المستوى الأوروبي أحياناً، ولكنها تذهب الآن إلى أبعد من ذلك، إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية،

إلى نصف الكرة الجنوبي، وأظنها ستصل القطب الجنوبي قبل أن يُقضى علينا.

بدا مسروراً بتشخيصه هذا.

- هل هم أناس ذوو نوايا شريرة؟

- حسناً، بوسعك قول ذلك. نوايا شريرة لمجرد النوايا الشريرة، أو نوايا شريرة من أجل المال أو النفوذ، من الصعب معرفة الهدف من هذا كله. حتى أولئك المساكين أصحاب المراتب الدنيا ممّن ينفّذون الأوامر لا يعرفون. يريدون العنف ويحبونه، لا يحبون العالم، لا يحبون موقفنا المادي من الحياة، لا يحبون الكثير من أساليبنا القذرة في جمع المال ولا يحبون الكثير من أعمال الغش والخداع التي نفعلها ولا يحبون رؤية الفقر. إنهم يريدون عالماً أفضل. حسناً، ربما كان بوسعك أن تصنع عالماً أفضل إن فكرت فيه تفكيراً متروياً، لكن المشكلة أنك إن أصررت على انتزاع شيء أولاً فعليك أن تضع شيئاً آخر في مكانه؛ فالطبيعة لن تقبل بالفراغ. صحيح أنه قول قديم ولكنه صحيح. إنه مثل زراعة القلب؛ تنزع قلباً من مكانه ولكن عليك أن تضع قلباً آخر في المكان ذاته. والواقع أنني أعتقد بأن كثيراً من تلك الأشياء يستحسن تركها، لكنني أظن أن أحداً لن يصغي إلي. وعلى أية حال فهذا ليس موضوعي.

اقترح الكولونيل مونرو: غاز ما؟

تهلل وجه البروفسور إيكشتاين وقال: آه، لدينا جميع أنواع الغازات في المخازن، وبعضها غير ضار كثيراً، مجرد غازات رادعة بشكل معتدل. لدينا كل هذه.

ثم أشرق وجهه كأنه بائع أجهزة يريد إرضاء زبائنه.

قال الكولونيل مونرو: إذن لا يمكنك مساعدتنا؟

- لن أستطيع ذلك إلى أن يتم الكشف عن مزيد من المعلومات عن هذا الأمر كله. أنا آسف، لكني أريد أن أؤكد لكم بأن معظم الأشياء التي نعمل عليها هذه الأيام خطيرة جداً... خطيرة حقاً.

نظر إليهم نظرات فيها قلق وعصبية كشيخ ينظر إلى مجموعة من الأطفال تُركوا ليلعبوا ومعهم علبة كبريت يستطيعون بها إشعال المنزل بسهولة.

قال السيد لازنباي: حسناً، شكراً لك يا بروفسور إيكشتاين.

لم يُبدِ صوته أيّ شكر حقيقي. وأدرك البروفسور إدراكاً صائباً بأنه قد أُذن له بالانصراف، فابتسم لكل مَن حوله ثم خرج من الغرفة مسرعاً.

* * *

لم ينتظر السيد لازنباي حتى يغلق الباب من أجل أن ينفس عن مشاعره. قال بمرارة: هؤلاء العلماء كلهم سواء، لا يفيدون إفادة عملية أبداً. لا يأتون بأي شيء معقول أبداً، كل ما يمكنهم فعله هو شطر الذرة ثم تحذيرنا من العبث بها!

قال الأدميرال بلانت بفظاظة: كان الأفضل أن لا نشطرها من البداية. إن ما نريده هو سلاح بسيط، محلي، كنوع من قاتل الأعشاب الضارة الذي يكون انتقائياً ويمكن له أن...

سكت فجأة ثم قال: والآن ماذا...

قال رئيس الوزراء بأدب: نعم أيها الأدميرال؟

- لا شيء، لقد ذكّرني هذا بشيء لكني لا أستطيع أن أتذكر ما هو.

تنهد رئيس الوزراء. سأل غوردن تشيتويند وهو ينظر إلى الساعة في يده: هل يوجد أي علماء آخرين ينتظرون دورهم؟

قال لازنباي: أظن أن العجوز بايكواي موجود هنا. لديه صورة أو رسم ويريد منّا أن نراه.

- رسم لماذا؟

قال السيد لازنباي بغموض: لا أعرف، تبدو صورة كلها فقاعات ودوائر.

- فقاعات ودوائر؟ ماذا يعني هذا؟

- لا أدري، من الأفضل أن ننظر إلى ما عنده.

- وهورشام موجود هنا أيضاً.

قال تشيتويند: ربما كان لديه شيء جديد يريد إخبارنا به.

دخل الكولونيل بايكواي الغرفة. كان يحمل لوحة ملفوفة كبيرة تم فتحها ورفعها بشيء من الصعوبة بمساعدة هورشام، بحيث يستطيع الجالسون خلف الطاولة رؤيتها.

قال الكولونيل بايكواي: ليست مرسومة بدقة بعد ولكنها تعطيكم فكرة تقريبية.

كان ذلك رسماً لأربع دوائر مرسومة داخل مربع كبير؛ كل واحدة منها في ركن من أركان المربع، وفي الوسط دائرة خامسة تغطي جزءاً من هذه الدوائر وتتقاطع معها. وقد كُتب الحرف «أ» في وسط الدائرة الأولى، والحرف «د» في وسط الدائرة الثانية، والحرف «م» في وسط الدائرة الثالثة، والحرف «ع» في وسط الدائرة الرابعة، أما الدائرة الوسطى (التي تتقاطع مع الدوائر الأربع كلها) فقد كُتب فيها الحرف «خ».

- وما الذي تعنيه هذه اللوحة، إن كان لها معنى؟

قال بايكواي: من الأفضل أن تشرح أنت يا هورشام، فأنت تعرف الفكرة العامة.

- أنا لا أعرف إلاّ ما قيل لي؛ إنه مخطط تقريبي لجمعية ذات سيطرة عالمية.

- ومن هم هؤلاء؟

- مجموعات تمتلك مصادر القوة أو تتحكم بها... المواد الأولية للقوة.

- والحروف الهجائية هذه؟

- إنها الحرف الأولى من اسم شخص أو اسم حركي لمجموعة خاصة. إنها دوائر متقاطعة متشابكة تغطي الكرة الأرضية الآن. هذه الدائرة المعلَّمة بحرف الألِف «أ» تشير إلى الأسلحة. ثمة شخص

أو مجموعة من الناس تسيطر على الأسلحة، كل أنواع الأسلحة: متفجرات، بنادق، رشاشات... إن الأسلحة في كل أنحاء العالم يتم إنتاجها وفق خطة ويتم إرسالها ظاهرياً إلى دول نامية أو دول متخلفة، دول في حالة حرب، لكنها لا تبقى في البلد الذي أرسلت إليه بل يتم إعادة تصديرها إلى مكان آخر على الفور: إلى حرب العصابات في قارة أمريكا الجنوبية أو إلى أعمال الشغب والقتال في الولايات المتحدة... وإلى دول متعددة في أوروبا.

حرف الدال «د» يرمز إلى المخدرات... شبكة من الموردين يديرونها من مستودعات ومخازن مختلفة. ويبدو محتمَلاً أن يكون المركز الرئيسي لذلك في آسيا الوسطى حيث يتم إيصالها عبر تركيا وباكستان والهند وآسيا الوسطى.

- وهل يجنون منها أموالاً؟

- مبالغ هائلة جداً. ولكنها أكثر من مجرد تجمع لمروّجي المخدرات؛ إذ إن لها جانباً أكثر شراً. إنها تستخدم تلك المخدرات للإجهاز على الضعفاء من الشباب لتجعلهم عبيداً تماماً، عبيداً لا يستطيعون العيش والحياة أو القيام بأي عمل بلا مخدرات.

صفّر كينوود وقال: أليس هذا عرضاً سيئاً؟ ألا تعرفون أبداً من هم هؤلاء المروّجون؟

- نعرف بعضهم، نعم، ولكن الذين نعرفهم هم الصغار الأقل أهمية وليس الكبار أصحاب النفوذ. إن المقر الرئيسي للمخدرات هو في آسيا الوسطى حسب اعتقادنا، ومن هناك يتم شحنها في

إطارات السيارات وفي جميع أنواع الآلات الصناعية. إنها تُرسَل إلى جميع أنحاء العالم وتعبر كبضاعة عادية إلى حيث يراد لها أن تذهب. وحرف الميم «م» يرمز إلى المال؛ إنها شبكة عنكبوتية من المال تقف خلف هذا الأمر كله... عليكم أن تعمدوا إلى السيد روبنسن ليخبركم عن الأموال، وحسب ما نعرفه فإن المال يأتي بكميات هائلة من أمريكا ومن مركز في بافاريا، ومعظم الأموال تذهب إلى أمريكا الجنوبية. إن أحد المسيطرين الرئيسيين على المال امرأة قوية موهوبة جداً، وهي كبيرة بالسن الآن ولا بد أنها شارفت على الموت، لكنها ما تزال قوية ونشيطة، اسمها شارلوت كراب. كان والدها يمتلك مصانع كراب الضخمة لعربات القطارات في ألمانيا، وهي نفسها كانت امرأة عبقرية وذكية في الأمور المالية وتعاملت في البورصة وكانت تكدس الثروة عن طريق الاستثمارات في كل أنحاء العالم. إنها تملك وسائل النقل والمعدات والمصالح الصناعية، وهي تعيش في قلعة كبيرة في بافاريا ومنها تدير حركة الأموال إلى أجزاء مختلفة من العالم. أما حرف العين «ع» فيرمز إلى العلم... العلوم الكيماوية والبيولوجية الجديدة الخاصة بالحرب. كثير من العلماء الشباب هربوا ولجؤوا إلى هذه الحركة، وثمة نواة لهم في الولايات المتحدة كما نعتقد، وقد نذروا أنفسهم لقضية الفوضوية.

- يحاربون من أجل الفوضوية؟ هذا تناقض في المصطلح. أيمكن أن يستقيم شيء كهذا؟

- ربما كنت ستؤمن بالفوضوية لو كنت شاباً. ستريد عالَماً جديداً وحتى تفعل ذلك عليك أن تدمر العالم القديم... تماماً كما تدمر بيتاً قبل أن تشرع في بناء بيت جديد مكانه. ولكن إن لم

تعرف إلى أين أنت ذاهب أو إلى أين يتم إغراؤك لتذهب، أو حتى دفعك لتذهب، فماذا سيكون شكل هذا العالم الجديد وأين سيكون المؤمنون به عندما يحصلون عليه؟ سيكون بعضهم عبيداً وبعضهم أعماه الحقد وبعضهم أعماه العنف، وبعضهم سيبقون مثاليين... وكان الله في عون هؤلاء!

قال الأدميرال بلانت: وماذا نفعل نحن إزاء هذا كله؟ ما الذي نخطط لفعله تجاه هذا الأمر؟

- ماذا نفعل إزاءه؟ إننا نفعل كل ما بوسعنا أن نقوم به. أؤكد لكم جميعاً بأننا نعمل كل ما بوسعنا؛ لدينا أشخاص يعملون لنا في كل بلد، ولدينا عملاء ومحققون وأشخاص يجمعون المعلومات ويحضرونها إلى هنا.

قال الكولونيل بايكواي: وهو أمر ضروري جداً. أولاً علينا أن نعرف... نعرف مَن معنا ومَن علينا وبعد هذا علينا أن نرى ما يمكن عمله.

- ها هي قائمة بما نعرفه عن قادة العصابة، «م»: شارلوت الكبيرة، بافاريا. «أ»: الأسلحة، ويمثلها إيريك أولافسون، رجل صناعة الأسلحة المشهور في السويد. «د»: المخدرات، ويقال إن الذي يوجهها يدعى ديمترويس، في سميرنا. «ع»: الدكتور سارولنسكي، كولورادو، الولايات المتحدة، وهو فيزيائي كيميائي، مشكوك فيه فقط. «خ»: امرأة تعرف باسم حركي هو خوانيتا، يقال إنها خطيرة لكن لا أحد يعلم اسمها الحقيقي.

* * *

الفصل الخامس عشر
العمة ماتيلدا في رحلة علاجية

جازفت الليدي ماتيلدا قائلة: أظن أن الأمر يتطلب رحلة علاجية؟

قال الدكتور دونالدسون: علاجاً؟

بدا محتاراً لبعض الوقت وفاقداً لسمت الطبيب العالم بكل شيء، تلك الميزة التي رأت الليدي ماتيلدا أنها إحدى السلبيات الناتجة عن اختيار المرء طبيباً شاباً يرعاه بدل اعتماده على طبيب شيخ ألفه لعدة سنوات.

شرحت الليدي ماتيلدا قائلة: هكذا كنّا نسميها في أيام شبابي؛ كنا نخرج في رحلة علاج... إلى مارينباد أوكارلسباد أو بادن. لقد قرأت بالأمس عن هذا المكان الجديد في الصحيفة، إنه مكان جديد تماماً وعصري ويقال إنه يعمل معتمِداً آخر ما توصلت إليه الأفكار الجديدة. وهذا لا يعني أنني أخدع بالأفكار الجديدة، لكني لا أخشاها في الحقيقة. أقصد أنها ربما كانت الأشياء ذاتها تتكرر من

جديد: المياه المعدنية التي يشبه مذاقها طعم البيض الفاسد وآخر أنظمة الحِميَة الغذائية، والمشي في أسوأ الساعات صباحاً لتلقّي العلاج أو المياه المعدنية أو كائناً ما كان اسمها الآن. وأظن أنهم يُجرون تدليكاً للمرء أو ما شابه ذلك، وقد كان ذلك يتم بالتدليك بالأعشاب والطحالب البحرية. ولكن هذا المنتجع موجود في مكان ما بين الجبال، في بافاريا أو النمسا أو مكان مماثل، ولذلك لا أحسب أن العلاج سيكون بالطحالب البحرية. وربما كانت هناك مياه معدنية رائعة إضافة إلى تلك المياه الكبريتية التي يشبه مذاقها مذاق البيض. لقد فهمت أن المنتجع مبنى رائع. الأمر الوحيد الذي يثير المرء هذه الأيام هو أنهم لا يضعون في المباني الحديثة أي درابزين للدرج، فقط أدراج من الرخام ولكن ليس فيها ما يمكن الاستناد عليه.

قال الدكتور دونالدسون: أظن أنني أعرف المكان الذي تقصدينه، لقد نال حظاً واسعاً من الدعاية في الصحافة.

- أنت تعرف حال من هم في مثل سنّي؛ إننا نحب تجربة الأشياء الجديدة. والحق أنني أعتقد أنها تسلية الناس. إنها لا تشعر الواحد منّا بأن صحته سوف تتحسن، ومع ذلك لا أظنك ترى في الأمر فكرة سيئة، أليس كذلك يا دكتور؟

نظر الدكتور دونالدسون إليها. لم يكن صغيراً جداً كما صنفته الليدي ماتيلدا في ذهنها، فقد كان يقترب من الأربعين، وكان لبقاً ولطيفاً وعلى استعداد لتدليل مرضاه العجائز إذا ما رأى ذلك عملاً مرغوباً لا ينطوي على أي خطر فعلي من محاولتهم عمل شيء غير مناسب.

قال: أنا متأكد من أن ذلك لن يضرك أبداً، بل قد تكون فكرة جيدة. إن السفر عمل متعب بالطبع، رغم أن المرء يسافر إلى أماكن مختلفة بسرعة وسهولة هذه الأيام.

- بسرعة، نعم، ولكن ليس بسهولة. السلالم المتحركة والدخول إلى الحافلات والخروج منها، من المطار إلى الطائرة ومن الطائرة إلى مطار آخر ومن المطار إلى حافلة أخرى... كل هذا كما تعرف. ولكني فهمت أن بإمكان المسافر الحصول على كرسي بعجلات في المطارات.

- تستطيعين ذلك بالطبع، إنها فكرة ممتازة. إذا وعدتني باستخدامه وعدم التوهم أن بوسعك السير على قدميك أينما تريدين...

قاطعته مريضته: أعرف، أعرف. أنت تفهم، إنك رجل متفهم جداً بالفعل. إن للمرء كرامته، فبينما تستطيع السير معتمداً على عكازة أو بمساعدة البعض فإنك لا تريد حقاً أن تبدو عاجزاً تماماً أو مقعَداً. لو كنت رجلاً لكان ذلك أسهل، أقصد أن الرجل يستطيع ربط ساقه بواحدة من تلك الضمادات الضخمة كما لو أنه مصاب بداء النقرس... أقصد أن النقرس مرض عادي بالنسبة للذكور فلا أحد يرى في ذلك شيئاً غير عادي. نعم، مقعد متحرك، وأستطيع السفر إلى ميونخ أو إلى مكان مُشابه، وأستطيع ترتيب أمر السيارة هناك.

- ستأخذين الآنسة ليذران معك بالطبع.

- إيمي؟ بالطبع؛ لا يمكنني عمل شيء بدونها. على أي حال

أنت لا ترى ضرراً في مثل هذه الرحلة، أليس كذلك؟

- أعتقد أنها قد تفيدك كثيراً.

- أنت رجل لطيف حقاً.

غمزته الليدي ماتيلدا بطرف عينها، وهي الحركة التي بات يألفها.

- أنت تعتقد أن مما يفرحني ويبعث البهجة في نفسي أن أذهب إلى مكان جديد وأرى وجوهاً جديدة. إنك محق تماماً، ولكن يروق لي أن أتوهم أنني في رحلة علاج مع أنه ليس فيّ ما يستوجب علاجاً. أعني أنني لا أعاني من مرض خطير حقاً باستثناء الشيخوخة، والشيخوخة لا يمكن علاجها لسوء الحظ، بل إنها لا تزداد إلاّ تمادياً، أليس كذلك؟

- المهم هو: هل ستستمتعين بوقتك؟ أظن ذلك. وبالمناسبة، عندما تتعبين من فعل أي شيء توقفي عن فعله.

- سأستمر في شرب كؤوس الماء حتى إن كان الماء بطعم البيض الفاسد، وليس ذلك لأنني أستسيغها أو لأنني أرى فيها فائدة لي، بل سأشربها لأن في ذلك نوعاً من الشعور بحمل النفس على المشقة والمكاره. هذا يشبه ما اعتادت العجائز في قريتنا أن يفعلنه دوماً؛ إذ كنّ يطلبن دواء يتصف بالقوة وذا نكهة قوية من النعنع الحاد، كُنّ يحسبن أن ذلك أكثر نفعاً من كبسولة جميلة صغيرة أو من زجاجة لا يبدو فيها إلاّ سائل كالماء دون أي لون غريب.

- يبدو أنك تعرفين عن الطبيعة البشرية الكثير.

قالت: "هذا لطف كبير منك، وإنني أقدّر لك ذلك يا دكتور".
ثم نادت خادمتها: إيمي...

- نعم يا ليدي ماتيلدا؟

- أرجو أن تحضري لي الأطلس. لقد نسيت موقع بافاريا والمناطق التي تحيط بها.

- أطلس... دعيني أتذكر. لا بد من وجود أطلس في المكتبة كما أظن، لا بد من وجود أكثر من أطلس قديم، وأظن أن بعضها يعود إلى عام ١٩٢٠ أو قريباً من ذلك.

- أرجو أن يكون لدينا أطلس أحدث من ذلك.

قالت إيمي وهي مستغرقة في التكفير: أطلس.

- إذا لم يكن عندنا أطلس فاشتري لنا واحداً وأحضريه معك صباح الغد. سيكون الأمر صعباً جداً لأن أسماء المواقع والبلدان اختلفت الآن ولن أعرف أين أنا، ولكن عليك أن تساعديني في ذلك. اعثري لي على عدسة مكبّرة، أحسب أنني كنت أقرأ وأنا على السرير بالأمس مستعينةً بواحدة، وقد تكون انزلقت بين السرير والجدار.

لم تستغرق تلبية احتياجاتها إلاّ قليلاً من الوقت، وأحست الليدي ماتيلدا أن إيمي قد ساعدتها كثيراً بلطفها المعهود.

- نعم، هذه هي. يبدو أنها ما تزال تدعى مونبروغ أو اسماً

شبيهاً. إما أنها في تايرول أو في بافاريا، يبدو أن كل شيء قد غيّرَ مكانه واكتسب اسماً مختلفاً!

* * *

نظرت الليدي ماتيلدا حولها في غرفة نومها في غاستهاوس، تلك الغرفة المؤثثة بشكل جيد وذات الأجر الباهظ جداً. كانت الغرفة تجمع بين الراحة وبين مظهر من البساطة الصارمة المتقشفة يمكن له أن يجعل ساكنة الغرفة تُقبِل طائعة على اتباع مسار زاهد متقشف من التمارين والحمية الغذائية، بل وحتى جلسات التدليك المؤلمة. رأت أن أثاث الغرفة كان لطيفاً ويلبي كل الأذواق، وعلى الجدار لوحة كبيرة منقوش عليها كلمات بالخط القوطي. لم تكن مهارة الليدي ماتيلدا في اللغة الألمانية تسعفها كثيراً كما كانت من قبل أيام صباها لكنها خمّنت أن كلمات اللوحة تدور حول الفكرة الذهبية الساحرة في العودة إلى الشباب. الشباب لا يمسك فقط بالمستقبل بين يديه، بل إن المسنين أيضاً كانوا يُلقَّنون عقائد تجعلهم يشعرون أن بوسعهم هم أيضاً أن يختبروا شباباً متفتحاً مُزهراً آخر.

قامت بمزيد من البحث في الغرفة. كان كتاب بعنوان «أولمناك دي غوتا» موضوعاً على رف قريب بجانب السرير. كان كتاباً قيماً جداً لا يقدَّر بثمن لهؤلاء الذين يريدون التعرف والتآلف مع الطبقات العليا من المجتمع التي تعود عائلاتها إلى مئات السنين السابقة، وهو كتاب ما زال يُقدَّر ويرجع إليه أبناء الأصول الأرستقراطية أو المهتمون بمثل هذا الموضوع. وفكرت الليدي ماتيلدا أنه سيكون كتاباً مفيداً وأنها ستقرأ قسطاً وافراً منه.

وقريباً من المكتب وموقد البورسلان الأثري كانت توجد كتب مواعظ وخطب لدعاة العالم المحدثين، أولئك الدعاة الذين لا يجدون الآن (أو لم يجدوا حتى عهد قريب) أحداً يسمعهم، هم الآن هنا لكي تُدرَس أفكارهم وتحظى بالقبول من لدن أتباعهم الشباب ذوي الملابس الغريبة وقصّات الشعر المبتكرة والقلوب الجادة المخلصة. ها هي كتب ماركيز وغيفارا وليفي شتراوس وفانون.

إذا ما كانت تريد إجراء أية أحاديث مع الشباب فمن الأفضل لها قراءة شيء عنهم أيضاً.

في تلك اللحظات سمعت دقات خفيفة على الباب، ثم فُتح الباب قليلاً وأطلّ منه وجه إيمي المخلصة. رأت الليدي ماتيلدا فجأة أن أيمي تشبه تماماً نعجة في العاشرة من عمرها، نعجة مخلصة ولطيفة.

- أرجو أن تكوني قد نمت جيداً.

- نعم، يا عزيزتي، لقد نمت نوماً رائعاً. هل أحضرت ذلك الشيء؟

كانت أيمي تعرف دائماً ما كانت تعنيه سيدتها، وسلّمته لها.

- آه، ورقة الحمية الخاصة بي.

قرأتها الليدي ماتيلدا ثم قالت: يا له من نظامٍ بغيض! ما هذا الماء الذي يفترض أن أشربه؟

- إن طعمه غير جيد.

- لم أتوقع له ذلك. عودي بعد نصف ساعة، عندي رسالة أريد منك إرسالها بالبريد.

أزاحت جانباً صينية الإفطار وذهبت إلى المكتب ففكّرت لبضع دقائق ثم كتبت رسالتها، وقالت تحدث نفسها: لا بد لها أن تُحدث الأثر المطلوب.

- أرجو المعذرة يا سيدتي، ما الذي قلته؟

- كنت أكتب إلى صديقتي القديمة التي ذكرتها لك.

- المرأة التي قلتِ إنك لم تشاهديها منذ نحو خمسين عاماً أو ستين؟

أومأت الليدي ماتيلدا بالإيجاب. وبدت إيمي وكأنها تلتمس أعذاراً وهي تقول: أرجو... أقصد... إنني... إنه وقت طويل جداً، إن للناس ذاكرة قصيرة هذه الأيام. أرجو فعلاً أن تتذكرك وتتذكر كل شيء عنك.

قالت الليدي ماتيلدا: ستتذكرني بالطبع، إن الناس الذين لا يمكن أن تنسيهم هم الناس الذين عرفتهم عندما كان عمرك بين عشر سنوات وعشرين سنة. إنهم يبقون في ذاكرتك إلى الأبد؛ يمكنك أن تتذكري شكل القبعات التي كانوا يرتدونها والطريقة التي كانوا يضحكون بها، وأنت تتذكرين عيوبهم وصفاتهم الحميدة وكل شيء عنهم. بينما لا أستطيع مثلاً تذكر أي شخص التقيته قبل عشرين سنة مثلاً، سواء ذُكر اسمه أمامي أو حتى لو رأيته. آه، نعم،

سوف تتذكرني وستتذكر كل شيء عن لوزان. ضعي تلك الرسالة في البريد، لديّ واجب عليّ أن أقوم به.

تناولت كتاب «أولمناك دي غوتا» وعادت إلى سريرها حيث بدأت دراسة جدية لبعض الفقرات التي قد تفيدها. بعض القرابات الأسرية والأنساب المختلفة التي ستكون معرفتها مفيدة لها: مَن تزوّج مَن، وأين يعيش فلان، وما هي المِحَن والمصائب التي أصابت الآخرين... ولم يكن ذلك لأن المرأة التي في ذهنها يُحتمَل أن تكون مذكورة في هذا الكتاب، لكنها عاشت في جزء من العالم جاءت إليه عامدة لتعيش في قلعة يمتلكها في الأصل نبلاء أرستقراطيون، وقد تشبعت بذلك الاحترام والتزلف الذي يبديه السكان المحليون لأبناء العائلات العريقة. وقد كانت الليدي ماتيلدا تعلم جيداً أن تلك المرأة لا تنتمي إلى عائلة عريقة بالتوارث، وقد اضطرت لأن تغطي ذلك النقص بالمال، بمبالغ هائلة لا تصدَّق.

ولم تشكّ الليدي ماتيلدا كليكهيتون أبداً بأنها (وهي ابنة الدوق الثامن) سوف تُدعى إلى احتفال من نوع ما، ربما لشرب القهوة وأكل كعك لذيذ بالكريما!

* * *

دخلت الليدي ماتيلدا واحدة من قاعات الاستقبال الكبيرة في القلعة. كانت السيارة قد قطعت بها مسافة خمسة عشرة ميلاً، وكانت قد اختارت ثيابها بشيء من العناية رغم بعض عدم الاستحسان الذي أبدته إيمي إزاء ذلك. كانت إيمي نادراً ما تقدّم نصيحة، ولكنها كانت متلهفة لنجاح سيدتها في مسعاها -كائناً ما كان هذا المسعى-

بحيث غامرت هذه المرة واعترضت اعتراضاً معتدلاً: ألا تعتقدين أن ثوبك الأحمر أصابه بعض البلى والقِدَم... أعني تحت الذراعين مثلاً، كما أن فيه رقعتين أو ثلاث رقع واضحة جداً.

- أعرف يا عزيزتي، أعرف. إنه ثوب بالٍ لكنه -مع ذلك- من طراز باتو. إنه قديم لكنه كان غالي الثمن جداً، وأنا لا أحاول أن أبدو غنية أو مُترَفة، بل فقيرة من عائلة أرستقراطية. وأي شخص دون الخمسين سيستخفّ بي دون شك، لكن مضيفتي ستكون على استعداد لاستقبال امرأة عجوز بالية الثياب من سلالة عريقة. إن تقاليد العائلة أشياء لا يفقدها المرء بسهولة، فهو يتشرّبها حتى عندما يذهب للعيش في منطقة جديدة. بالمناسبة، سوف تجدين في صندوق ثيابي لفاعاً من ريش.

- هل سترتدين لفاعاً من ريش؟

- نعم، لفاع من ريش النعام.

- يا إلهي! إنه قديم ويعود لسنوات بعيدة.

- صحيح، لكني احتفظت به بعناية شديدة. سترين كيف أن شارلوت ستعرف ما هو؛ سوف تعتقد أن واحدة من أعرق العائلات في إنكلترا وأفضلها قد ألجأتها الأيام إلى ارتداء ثيابها القديمة التي احتفظت بها بعناية منذ سنوات طويلة! كما سأرتدي معطفي المصنوع من جلد الفقمة، إنه مهترئ قليلاً لكنه كان معطفاً رائعاً في زمانه.

وهكذا بعد أن ارتدت ثيابها هذه انطلقت إلى وجهتها، وذهبت إيمي معها كمرافقة أنيقة ولكن على نحو هادئ.

كانت ماتيلدا كليكهيتون مستعدة لما رأته: حوت (كما أخبرها ستافورد)! حوت مترهّل، امرأة عجوز بشعة تجلس في غرفة وحولها صور لا تقدَّر بثمن. نهضت بشيء من العناء عن كرسيها الذي يشبه كرسي العرش والذي كان يناسب عرضاً مسرحياً يصور قصر أمير قديم من أمراء العصور الوسطى أو ما قبلها. هتفت: ماتيلدا!

- شارلوت؟!

- آه، بعد كل هذه السنين! يا له من أمر غريب.

تبادلتا عبارات الترحيب وتحدثتا بالألمانية والإنكليزية معاً. كانت لغة الليدي ماتيلدا الألمانية غير متقنة، أما شارلوت فكانت تتحدث الألمانية بطلاقة والإنكليزية كذلك، رغم أنها بلكنة قوية كمن يخرج الحروف من حلقه، وأحياناً بلكنة أميركية. رأت الليدي ماتيلدا أنها كانت حقاً بشعة بشاعة لا توصف، وأحسّت لبعض الوقت بمحبة لهذه المرأة تكاد تعود إلى الماضي السحيق، ثم سرعان ما تذكرت أن شارلوت كانت فتاة مقيتة جداً؛ لم يكن أحد يحبها وهي نفسها لم تكن تحبها بالتأكيد. ولكن مهما كانت آراؤنا فثمة حنين قوي في ذاكرة الناس إلى أيام المدرسة القديمة. لم تكن تعرف إن كانت شارلوت قد أحبتها أم لا، لكنها تذكرت أن شارلوت كانت تتملّقها بالتأكيد. كانت لديها رؤى معينة، رؤى ربما تزيّن لها الإقامة في قلعة دوق في إنكلترا. وعلى الرغم من أن والد الليدي ماتيلدا كان دوقاً من نسب عريق إلاّ أنه كان من أكثر نبلاء إنكلترا فقراً وإفلاساً، ولم يحافظ على أملاكه إلاّ بسبب زوجته الغنية التي تزوجها وعاملها بمنتهى الأدب واللباقة فيما كانت هي تستلذّ

باضطهاده كلما استطاعت ذلك. كانت الليدي ماتيلدا محظوظة كونها ابنته من زواج ثان له. كانت أمها مطيعة جداً كما كانت ممثلة ناجحة جداً، واستطاعت لعب دور دوقة أكثر من أي دوقة حقيقية.

تبادلتا الذكريات فيما بينهما عن الأيام الخالية وكيف كانتا تعذّبان مدرساتهما، وعن الزيجات المحظوظة وغير المحظوظة التي حدثت لزميلاتهما في المدرسة. ذكرت ماتيلدا بعض العائلات والمصاهرات (المنتقاة من الكتاب الذي كانت تقرأه بالطبع): لا بد أن زواج إلزا كان مخيفاً ورهيباً، لقد تزوجت واحداً من عائلة بوربون دي بارمي، أليس كذلك؟ نعم، نعم، إن المرء ليعرف إلى ماذا سيؤدي ذلك... يا له من حظ عاثر جداً.

حضرت القهوة، كانت قهوة لذيذة ومعها أطباق من الفطائر والكعك اللذيذ.

قالت الليدي ماتيلدا: يجب أن لا ألمس شيئاً منها. إن طبيبي متشدد جداً في هذه المسألة، وقد قال إن عليّ الالتزام بالحمية وأنا هنا. لكنه يوم عطلة، أليس كذلك؟ لتجديد الشباب... إن هذا ما يثيرني كثيراً. ابن أخي الذي زارك قبل مدة قصيرة... نسيت اسم التي أحضرته معها إلى هنا. الكونتيسة... آه، اسمها يبدأ بحرف الزاي، لا أتذكره تماماً.

- الكونتيسة ريناتا زيركوفسكي.

- نعم، هذا هو اسمها. إنها فتاة جذابة جداً على ما أظن، وقد أحضرته لزيارتك، كان عملاً طيباً منها. لقد تأثر كثيراً، كما تأثر أيضاً بمقتنياتك الجميلة وأسلوب حياتك والأشياء الرائعة التي

كان قد سمعها عنك. كيف أن لديك... لا أدري ما هي العبارة المناسبة... كوكبة من الشباب، شباب ذهبي جميل، وهم يتجمعون حولك مفتونين بك. لا بد أنها حياة رائعة هذه التي تحيينها. أما أنا فلا أستطيع اعتماد مثل هذه الحياة؛ إن عليّ أن أعيش حياة هادئة جداً... التهاب المفاصل والروماتيزم، إضافة إلى الصعوبات المالية، صعوبات في المحافظة على بيت العائلة. آه، أنت تعرفين حالنا في إنكلترا... الضرائب!

- إنني أتذكر ابن أخيك هذا، نعم. كان رجلاً مقبولاً، مقبولاً جداً. إنه في السلك الدبلوماسي كما فهمت، أليس كذلك؟

- آه بلى، لكنه... لا أظن أنهم يقدرون مواهبه تقديراً صحيحاً. إنه لا يقول الكثير ولا يشكو، لكنه يشعر بأنه لا يلقى التقدير الذي يستحقه. ما هي هذه السلطات القائمة، أعني أولئك الذين يحتلون المناصب حالياً؟

قالت شارلوت الضخمة: غوغاء!

- مثقفون يفتقرون إلى الكياسة في حياتهم. لو كان ذلك قبل خمسين سنة لكان الوضع مختلفاً، ولكن ترقيته هذه الأيام لم تتقدم كما ينبغي. بل إنني سأقول لك سراً (بيننا بالطبع) وهو أنهم لا يثقون به؛ إنهم يَشُكّون فيه وبأن له ميولاً ثورية ومتمردة.

- إذن فأنت تقصدين أنه لم يكن متعاطفاً مع ما يسمونها بمؤسسة الحكم؟

- صه، يجب أن لا نقول مثل هذه الأشياء.

- إنك تثيرين اهتمامي.

تنهدت ماتيلدا كليكهيتون وقالت: انسبي ذلك -إن شئت- إلى محبة عمةٍ عجوز لابن أخيها. لقد كان ستافورد دوماً أثيراً لديّ؛ إنه ذكي وله جاذبية، وأظن أيضاً أنه يمتلك أفكاراً. إنه يتصور المستقبل مستقبلاً يجب أن يكون مختلفاً كثيراً عمّا نشهده في الوقت الحالي. إن بلدنا في حالة سيئة جداً من الناحية السياسية للأسف، ويبدو أن ستافورد قد تأثر كثيراً بما سمعه منك وبما رآه عندك. لا يسعني إلاّ أن أشعر بأن ما نحتاجه هو المثل الأعلى للعنصر المتفوق.

- يجب ويمكن أن يكون هناك جنس متفوق. كان أدولف هتلر صاحب فكرة صحيحة. كان رجلاً غير ذي أهمية في ذاته، ولكنه كان يمتلك عناصر فنية في شخصيته. وما من شك في أنه كان يمتلك القدرة على القيادة.

- آه، نعم. القيادة، هذا ما نحتاجه.

- كنتم مخطئين في تحالفكم مع مَن تحالفتم معه في الحرب الأخيرة يا عزيزتي. لو أن إنكلترا وألمانيا تحالفتا معاً، ولو كانت لهما نفس المُثُل، مُثُل الشباب والقوة... أمّتان آريتان تجسّدان المُثُل المناسبة. تصوري ما ستكون عليه بلدك وبلدي اليوم؟ لكن ربما يكون تبنّي هذه النظرة بحد ذاته ضيق نظر. المطلوب هو: يا قادة العالم اتحدوا! شباب لهم موهبة القيادة من ذوي الدماء الجيدة، ويجب أن نبدأ عملنا ليس مع الكهول الغارقين في أساليبهم ممّن يكررون أنفسهم كأسطوانة مشروخة، بل يجب أن نبحث بين جمهور الطلبة عن الشباب ذوي القلوب الشجاعة وأصحاب الأفكار العظيمة

المستعدين للتقدم والمستعدين للموت... والمستعدين أيضاً لأن يَقتُلوا، وأن يَقتلُوا دون وخز من ضمير أو ندم؛ لأن من المؤكد أنه بلا عدوانية وبلا عنف وبلا هجوم لا يمكن أن يتحقق نصر. تعالي، لا بد أن أريك شيئاً.

نجحت بعد صراع في النهوض والوقوف على قدميها، وحذت الليدي ماتيلدا حذوها مُظهرة شيئاً من الصعوبة بدورها (ممّا لم يكن حقيقة بقدر ما تظاهرت به).

قالت شارلوت: كان ذلك في عام ١٩٤٠ عندما مضت منظمة شباب هتلر لتبلغ مرحلتها الثانية، عندما حصل هيملر من هتلر على ميثاق جهاز الغستابو الشهير. لقد تم تشكيله لتدمير الشعوب الشرقية، العبيد، كانت الخطة تهدف إلى إفساح المجال أمام سيادة الجنس الألماني، وهكذا تشكلت الأداة التنفيذية للغستابو.

انخفض صوتها قليلاً وبدا فيه -للحظة- نوعٌ من الرهبة الدينية، ثم أكملت تقول: نظام رأس الموت.

ثم مشت في الغرفة بخطوات بطيئة وأشارت إلى لوحة مؤطّرة بالذهب معلّقة على الحائط تعلوها جمجمة، لوحة نظام رأس الموت.

- انظري، إنها من أكثر المقتنيات العزيزة على قلبي. إنها معلقة هنا على جدار غرفتي، وعندما تأتي فرقتي من الشباب الذهبي إلى هذه الغرفة فإنهم يؤدون لها التحية. كما أنه يوجد في أرشيفنا في القلعة هنا ملفات حول تاريخها، بعض تلك الملفات لا يستطيع قراءتها إلاّ أولو العزم والجرأة القلب الميت، ولكن يجب

علينا أن نتعلم كيف نقبل هذه الأشياء. الموتِ في غرف الغاز وفي زنازين التعذيب... إن محاكمات نورمبرغ تتحدث بحقد عن كل تلك الأشياء، ولكنه كان تقليداً عظيماً: القوة من خلال الألم. كانوا يدربون الصغار، الأولاد، حتى لا يتلعثموا أو يترددوا أو يعانوا من أي نوع من الرقة. حتى لينين قال في معرض الدعوة لعقيدته الماركسية: بعداً للعواطف! كانت تلك واحدة من أولى القواعد لصنع دولة كاملة، لكننا كنّا ضيّقي التفكير؛ كنّا نريد أن يقتصر حلمنا العظيم على الجنس الألماني السيد. لكن توجد أجناس أخرى هي الأخرى تستطيع اكتساب السيادة من خلال المعاناة والعنف ومن خلال الممارسة المدروسة للفوضوية. يجب أن نهدم، يجب أن نهدم جميع المؤسسات الرقيقة، وإن لدينا قائداً ما زال يافعاً يكتسب قوة ونفوذاً كل يوم. ما الذي قاله ذلك الرجل العظيم؟ أعطني الأدوات وسأقوم بالعمل... أو شيئاً كهذا. إن قائدنا يمتلك الأدوات وسوف يمتلك المزيد منها، سوف يمتلك الطائرات والقنابل والأسلحة الكيمائية، وسيكون لديه رجال يقاتلون معه، وستكون لديه وسائل المواصلات، سيكون لديه سفن ونفط... سيكون لديه مثل مصباح علاء الدين السحري، تفرك المصباح بيدك فيخرج لك الجني. كل شيء بين يديك: وسائل الإنتاج، ووسائل الثروة، وقائدنا الشاب، قائد بالفطرة وبالشخصية يمتلك هذا كله.

تنفست بصعوبة ثم سعلت، فقالت الليدي ماتيلدا: دعيني أساعدك.

ساعدتها الليدي ماتيلدا في إسناد ظهرها إلى المقعد، ولهثت شارلوت قليلاً وهي تجلس ثم قالت: من المؤسف أن يكون المرء

كبيراً بالسن، لكني سأعيش بما فيه الكفاية؛ سأعيش حتى أرى انتصار العالم الجديد، الجيل الجديد. هذا ما تريدينه لابن أخيك. سأتولى لك ذلك، إن ما يريده هو السلطة في بلده، أليس كذلك؟ هل ستكونين على استعداد لتشجيع الطليعة هناك؟

هزت الليدي ماتيلدا رأسها بأسف وقالت: كنت أملك التأثير والنفوذ ذات يوم، أما الآن... كل هذا قد ذهب الآن.

قالت صديقتها: سيعود ثانية يا عزيزتي. لقد أحسنت صنعاً بمجيئك إليّ؛ إن لديّ نفوذاً.

- إنها قضية عظيمة.

* * *

قالت إيمي عندما كانتا عائدتين بالسيارة إلى غاستهاوس: أرجو أن تكوني قد سعدت بلقاء صديقتك القديمة.

قالت الليدي ماتيلدا: لو أنكِ سمعت كل ما قلتُه من كلام تافه لما صدقتِ أذنيك.

* * *

الفصل السادس عشر
بايكواي يتحدث

قال الكولونيل بايكواي وهو ينفض رماد السيغار عن معطفه: الأخبار من فرنسا سيئة جداً، سمعت وينستون تشرشل يقول هذه العبارة في الحرب الأخيرة. كان رجلاً يستطيع التحدث بكلمات واضحة ودون فائض كلام لا داعي له، وكانت كلماته مؤثره جداً وترشدنا إلى ما كنا نريد معرفته. حسناً، لقد مضى وقت طويل منذ ذلك الحين، ولكني أقولها اليوم مرة أخرى: الأخبار القادمة من فرنسا سيئة جداً.

سعل وتحشرج ونفض مزيداً من رماد السيغار عن نفسه ثم قال: الأخبار من إيطاليا سيئة جداً أيضاً، وأظن أن أخبار روسيا ربما كانت سيئة جداً لو سمحوا بتسريبها. لديهم متاعب هناك أيضاً: مجموعات طلابية تتظاهر في الشوارع، وتحطيم زجاج المحلات، ومهاجمة السفارات... والأخبار من الشرق سيئة جداً كذلك. أما الأخبار من الأرجنتين فيمكن أن نسميها بالغريبة، بل غريبة جداً في الحقيقة. الأرجنتين والبرازيل وكوبا، كلها توحّدت الحركة الجديدة

فيها وهي تسمي نفسها «الدول المتحدة للشباب الذهبي» أو اسماً شبيهاً بهذا. ولديهم جيش أيضاً، جيش مدرب تدريباً مناسباً ومسلح تسليحاً مناسباً ويمتلك قيادة مناسبة. لديهم طائرات وقنابل وأشياء لا يعلمها إلاّ الله، ويبدو أن معظمهم يعرف ماذا يفعل بها ممّا يجعل الأمر أكثر سوءاً. وهناك -كما هو واضح- حشود تُنشد وتغني أغاني البوب وأغاني الفولكلور المحلي القديم وألحاناً حماسية قديمة...

ثم أكمل يقول: بل لقد سمعت أن شيئاً مشابهاً يجري في البلاد المتحضرة بدءاً منا نحن. أحسب أن البعض منا ما زال بالإمكان تسميته متحضراً، أليس كذلك؟ لقد قال أحد ساستنا بالأمس إننا كنا أمة رائعة وإن ذلك عائد بشكل رئيسي إلى أننا كنّا منفتحين، فلدينا مظاهرات، ونحن نحطم الأشياء ونضرب أي شخص إن لم يكن لدينا شيء آخر نفعله، وقد تخلصنا من شجاعتنا وطاقتنا الحيوية عن طريق إظهار العنف وأظهرنا طهارتنا الأخلاقية عن طريق خلع معظم ثيابنا! لا أدري عن أي شيء كان يتحدث... السياسيون هكذا دائماً، لكنهم يستطيعون جعل كلامهم يبدو جيداً ومقبولاً، ولذلك هم سياسيون.

سكت ونظر إلى الرجل الذي كان يتحدث معه. قال السير جورج باكهام: مؤسف، مؤسف جداً. لا يكاد المرء يصدق؛ إنه أمر مقلق. هل هذا هو كل ما لديك من أخبار؟

- أليست هذه كافية؟ من الصعب إرضاؤك! الفوضوية العالمية في الطريق إلينا... هذا ما لدينا. ما زالت تتأرجح بعض الشيء ولم تثبت نفسها بعد، ولكنها على وشك تثبيت نفسها. الواقع أنها تقترب كثيراً من ذلك.

- ولكن ألا يمكننا القيام بإجراء مضاد لهذا كله؟

- ليس بالسهولة التي تظنها. قنابل الغاز المسيل للدموع يمكنها وقف أعمال الشغب لفترة من الزمن وإعطاء الشرطة فرصة لالتقاط الأنفاس، ولدينا بالطبع الكثير من الأسلحة البيولوجية والقنابل النووية والأسلحة الأخرى... لكن ما الذي سيحدث برأيك لو أننا بدأنا باستخدام تلك الأسلحة؟ ستكون مجزرة جماعية لكل المتظاهرين ولرُوّاد الأسواق ولربّات البيوت والعجائز المتقاعدين في بيوتهم ولنسبة لا بأس بها من سياسيينا المتبجّحين وهم يقولون لنا إننا لم نعالج الأزمة بشكل جيد... ثم -إضافة إلى هؤلاء جميعاً- أنا وأنت... ها، ها!

أضاف الكولونيل بايكواي يقول: وعلى أية حال إن كنت تبحث عن الأخبار فقط فقد علمت أن لديك بعض الأخبار الساخنة التي وصلتك اليوم، أخبار في غاية السرية من ألمانيا، من سعادة الوزير هينريك سبايس نفسه.

- وكيف علمت بهذا بالله عليك؟ يُفترض أن يكون سراً!

قال الكولونيل بايكواي مستخدماً عبارته الأثيرة: "إننا نعرف كل شيء هنا... هذا هو سبب وجودنا". ثم أضاف: علمت أنه أحضر دكتوراً وديعاً أيضاً.

- نعم، وهو يدعى الدكتور ريشاردت، أظن أنه عالم فذ.

- لا، إنه طبيب يعمل في مصحة عقلية.

- يا إلهي! طبيب نفسي؟

- ربما، فالذين يديرون المصحات العقلية معظمهم أطباء نفسيون. وإذا كنا محظوظين فسيكون إحضاره إلى هنا بهدف فحص رؤوس بعض الشباب الذين يثيرون الفتن والقلاقل. إن رؤوسهم محشوَّة بالفلسفة الألمانية وفلسفة كتّاب فرنسيين أموات... وقد يتركونه يفحص رؤوس بعض من الشخصيات القضائية البارزة عندنا، أولئك الذين يرأسون المحاكم هنا ويقولون إننا يجب أن نكون حذرين جداً كيلا نفعل أي شيء قد يدمّر شخصية الشاب أو يؤثّر في نفسيته. سنكون في وضع أكثر أماناً لو أرسلوهم جميعاً ليحصلوا على الإعانة الوطنية ليعتاشوا منها، وبوسعهم وقتها العودة إلى بيوتهم والامتناع عن أي عمل والاستمتاع بقراءة المزيد من الفلسفة. أنا من طراز قديم، أعرف هذا ولا حاجة بك لأن تخبرني به.

- علينا أن نأخذ طرق التفكير الحديثة بالاعتبار. يشعر المرء، أو يرجو المرء... حسناً، من الصعب القول...

قال الكولونيل بايكواي: لا بد أن هذا يقلقك كثيراً، أن تجد صعوبة في قول الأشياء.

رنّ جرس هاتفه، فأصغى قليلاً ثم سلّم السماعة إلى السير جورج.

قال السير جورج: نعم، نعم، إنني موافق. أظن... لا، لا، ليس وزارة الداخلية... تقصد أنه سري؟ حسناً، أظن أن من الأفضل أن نستخدم...

نظر السير جورج حوله بحذر، فقال الكولونيل بايكواي مازحاً: ما من لاقطات سرية هنا.

قال السير جورج باكهام بهمسة عالية خشنة: كلمة السرّ هي «الدانوب الأزرق». نعم، نعم، سأحضر بايكواي معي. آه، نعم، بالطبع. نعم، نعم، اتصل به. نعم، قل له بأنك شخصياً تريده أن يأتي ولكن عليه أن يتذكر بأن اجتماعنا يجب أن يبقى سرياً تماماً.

قال بايكواي: إذن لا نستطيع الذهاب بسيارتي فهي معروفة جيداً؟

- هنري هورشام قادم لأخذنا بسيارة الفولكسفاغن.

- جميل. أتعلم أن هذا مثير جداً؟

قال السير جورج: ألا تعتقد أن...

- لا أعتقد ماذا؟

- أقصد... إنني... أرجو أن لا تستاء من اقتراحي. فرشاة ملابس؟

ضرب الكولونيل بايكواي على كتفة ضرباً خفيفاً فتطاير رماد السيغار في الغرفة ممّا أصاب السير جورج بالاختناق. ثم صاح الكولونيل بايكواي وهو يضرب على زر جرس على مكتبه: ناني.

دخلت امرأة متوسطة العمر وهي تحمل فرشاة ملابس، ظهرت فجأة كأنها جنّي استدعاه مصباح علاء الدين. قالت: أرجو أن تحبس أنفاسك قليلاً يا سير جورج، فقد يكون هذا موجعاً بعض الشيء.

وفتحت له الباب فخرج من الغرفة بينما قامت بتنظيف ثياب

الكولونيل بايكواي الذي كان يسعل ويتذمر قائلاً: إنهم أناس مزعجون هؤلاء... دائماً يريدونك بهندام مرتب مثل الدمية.

- ما كنت لأصف مظهرك بهذا الوصف أيها الكولونيل. لقد آن لك أن تعتاد على طريقة تنظيفي بعد كل هذه الفترة، كما أنك تعلم أن وزير الداخلية يعاني من الربو.

- إنها مشكلته، فهو لا يولي مسألة مكافحة التلوث في شوارع لندن أهمية مناسبة.

- هيا يا سير جورج، لنسمع ما جاء صديقنا الألماني ليقوله. يبدو أن الأمر عاجل.

* * *

الفصل السابع عشر
هينريك سبايس

كان السيد هينريك سبايس رجلاً قلقاً، ولم يحاول إخفاء هذه الحقيقة. وقد أقرّ بلا مواربة بأن الوضع الذي جاء هؤلاء الرجال الخمسة لمناقشته معاً هو وضع خطير، وفي الوقت نفسه أحضر معه ذلك الإحساس بالثقة التي كانت ذخره الرئيسي في التعامل مع الحياة السياسية التي أصبحت صعبة في ألمانيا في الآونة الأخيرة.

كان رجلاً صلباً، رجلاً مفكراً قادراً على إشاعة العقلانية في أية اجتماعات يحضرها. لم يكن يعطي انطباعاً بأنه رجل لامع الذكاء، وذلك كان مُطَمئناً بحد ذاته، فقد كان السياسيون الأذكياء مسؤولين عن ثلثَي الأزمات الوطنية في أكثر من بلد، أما الثلث الثالث من المشكلات فقد سبّبه أولئك السياسيون الذي لم يستطيعوا إخفاء حقيقية أنهم كانوا عاجزين -رغم انتخابهم بشكل ديمقراطي من قبل حكوماتهم- عن إخفاء ضآلة رصيدهم من الأحكام الصائبة والمنطق ومن أية ميزات عقلية في الواقع.

قال المستشار: أرجو أن تعلموا أن هذه ليست زيارة رسمية بأي معنى من المعاني.

- آه، مفهوم، مفهوم.

- لقد وصلتني معلومة معينة رأيت أن من الضروري أن أشرككم فيها. إنها تلقي ضوءاً مثيراً على أحداث معينة حيّرتنا وبثّت الحزن والأسى في نفوسنا. أقدّم لكم الدكتور ريشاردت.

تم التعارف بين الحضور. كان الدكتور ريشاردت رجلاً ضخم الجسم يبدو عليه الارتياح، وكان معتاداً على قول «آه» و«نعم» من وقت لآخر.

- الدكتور ريشاردت مسؤول عن مؤسسة كبيرة في منطقة كارلسروهي، وهو يعالج فيها مرضى النفس والأعصاب. أظن أنني على صواب في قولي بأنك تعالج فيها ما بين خمسمئة مريض إلى ستمئة، أليس كذلك؟

قال الدكتور ريشاردت: آه، بلى.

- وقد علمت أنك لديك مرضى يعانون من أنواع مختلفة من الأمراض العقلية؟

- آه، نعم. عندي أمراض عقلية مختلفة، لكني مهتم اهتماماً خاصاً بنوع واحد محدد من الأمراض العقلية وأكاد لا أعالج غيره حصراً.

تحول إلى الحديث باللغة الألمانية وتطوّع السيد سبايس على الفور بتقديم ترجمة مختصرة حتى يفهم زملاؤه الإنكليز ما قاله. وكان هذا تصرفاً ضرورياً ولبقاً، فقد كان اثنان منهم يفهمان جزئياً ما يقوله وواحد لم يفهم، أمّا الآخران فقد كانا محتارَين حقاً.

أوضح السيد سبايس: لقد حقق الدكتور ريشاردت نجاحاً عظيماً في علاجه لما يمكن أن أصفه أنا بعباراتي العامية «جنون العظمة»؛ أن تعتقد بأنك رجل غير ما أنت عليه، وأن تنتابك أفكار بأنك أكثر أهمية من حقيقتك، أفكار بأنك كنت تعاني من عقدة جنون الاضطهاد...

قاطعه الدكتور ريشاردت قائلاً: آه، لا؛ ليس جنون الاضطهاد. لا، أنا لا أعالج ذلك، ليس في مشفاي من هو مصاب بهوس الاضطهاد، على العكس، فهم يحملون الأوهام التي يحملونها لأنهم يرغبون في أن يكونوا سعداء. وهم كذلك، وأستطيع إبقاءهم سعداء، ولكن إذا ما عالجتهم فلن يكونوا سعداء، ولذلك عليّ أن أجد علاجاً يعيد لهم سلامة عقولهم مع بقاء سعادتهم كما هي. إننا نسمي هذه الحالة العقلية تحديداً...

ثم قال كلمة ألمانية طويلة شديدة الوقع تتألف من ثمانية مقاطع على الأقل.

أكمل السيد سبايس بسرعة: من أجل أصدقائنا الإنكليز سأظل أستخدم عبارة «جنون العظمة» على الرغم من معرفتي بأن هذه العبارة ليست العبارة التي تستخدمونها هذه الأيام يا دكتور ريشاردت. وكما قلت: يوجد في عيادتك ستمئة مريض.

- وفي أحد الأوقات، وهو الوقت الذي أريد الإشارة إليه، كان عندي ثمانمئة مريض.

- ثمانمئة؟

- كان أمراً مثيراً، مثيراً جداً.

- لنبدأ من البداية. لقد كان لديك من الأشخاص المرضى مَن...

أوضح الدكتور ريشاردت بسرعة: لدينا مَن يدّعي الألوهية. هل تعني ذلك؟

بدا السيد لازنباي ذاهلاً بعض الشيء وهو يقول: آه، نعم، نعم، هذا مثير جداً.

- لدينا شابان يحسبان أنهما من الأنبياء، لكن هذا ليس شائعاً كما هو الحال مع من يدّعون الألوهية. ثم هناك آخرون. كان عندي (في الوقت الذي أودّ الإشارة إليه) أربعة وعشرون أدولف هتلر، ويجب أن تعلموا بأن هذا كان في الوقت الذي كان فيه هتلر على قيد الحياة. نعم، أربعة وعشرون أو خمسة وعشرون أدولف هتلر!

ثم راجَعَ صفحات دفتر ملاحظات صغير أخرجه من جيبه وقال: لقد كتبت بعض الملاحظات هنا. نعم، وخمسة عشر نابليوناً... نابليون شخصية معروفة ومحبوبة دائماً! وعشرة بشخصية موسوليني وخمسة يتقمصون شخصية يوليوس قيصر، وحالات أخرى كثيرة غريبة جداً ومثيرة جداً. لكني لن أزعجكم بذلك في هذه اللحظة، وما دمتم غير متخصصين بالطب فإن هذا لن يثير اهتمامكم. سنأتي إلى الحادث الذي يهمنا.

تكلم الدكتور ريشاردت ثانية لفترة أقصر وتابع السيد سبايس ترجمته: جاء ذات يوم مسؤول حكومي، كان شخصية تلقى كل

تقدير واحترام الحكومة القائمة في ذلك الوقت. تذكّروا أن ذلك كان في أثناء الحرب، سأسمّيه في الوقت الحالي «مارتن ب»، وستعرفون مَن أعنيه. أحضر معه رئيسه... حسناً، دعونا لا نتكلم بالألغاز؛ لقد أحضر معه الفوهرر نفسه.

قال الدكتور ريشاردت: آه، نعم. وكان شرفاً عظيماً بالطبع أن يأتي للتفتيش. كان لطيفاً ومهذباً، وقال لي إنه تلقّى تقارير ممتازة عن النجاح الذي حققته، وقال إن بعض المتاعب قد وقعت في الفترة الأخيرة، حالات مرَضية في صفوف الجيش، وإنه ظهر فيه أكثر من مرة رجال يعتقدون أنهم نابليون، وأحياناً يعتقدون أنهم الضباط المعاونون لنابليون وأحياناً يتصرفون وفق ذلك فيعطون أوامر عسكرية، ولذلك كانوا يتسببون في مشكلات عسكرية. كنت سعيداً بأن أعطيه معلومات مِهَنية قد تفيده، لكن مارتن الذي رافقه قال إن ذلك غير ضروري وإن الفوهرر العظيم لم يكن يرغب في أن يزعج نفسه بمثل هذه التفاصيل، وقال بأنه ما من شك في أنه من الأفضل لو جاء أطباء مؤهلون ذوو تجربة كاختصاصيي الأعصاب وأجروا مشاورات بهذا الشأن. إن ما كان يريده هو... هو أن يرى الأحوال في المشفى. وأدركت على الفور ما الذي كان يريد أن يراه، ولم يكن ذلك ليدهشني بالتأكيد؛ فقد كان ذلك من الأعراض التي يستطيع المرء تمييزها. لقد كان التوتر والإجهاد في حياة الفوهرر قد بدأ يظهر عليه بالفعل.

قال الكولونيل بايكواي على نحو غير متوقع وهو يضحك: أحسب أنه كان قد بدأ في ذلك الوقت بالاعتقاد بأنه الإله نفسه!

قال الدكتور ريشاردت: طلب مني أن أطلعه على أشياء معينة، قال إن مارتن كان قد أخبره بأن عندي عدداً كبيراً من المرضى يعتقدون بأنهم أدولف هتلر. وشرحت له أن ذلك أمر شائع وطبيعي بسبب الاحترام والإجلال الذي يكنّونه لهتلر ولذلك كان من الطبيعي أن تنتهي الرغبة الشديدة لأحدهم في تمثّل الفوهرر بأن يتماهى معه في نهاية المطاف ويرى نفسه فيه. كنت قلقاً بعض الشيء عندما ذكرت هذا لكني دهشت إذ وجدت بأنه أظهر علامات كبيرة على الرضا، وأحمد الله لأنه فهمهما على أنها عبارة إطراء له، أقصد هذه الرغبة الشديدة لدى الناس بأن يتقمصوا شخصية. ثم سألني بعدها إن كان باستطاعته مقابلة بعض هؤلاء المرضى الذين يعتقدون بأنهم أدولف هتلر. وتشاورنا لبعض الوقت، وبدا مارتن متشككاً، وقد أخذني جانباً وأكّد لي أن هتلر يرغب عملياً بخوض هذه التجربة. أما ما كان يشغل بال مارتن فهو ضمان عدم تعرض هتلر لأية مجازفات، فلو أن أي واحد من الهتلرات المزعومين هؤلاء الذين يعتقدون أنفسهم هكذا كان يميل إلى العنف أو الخطر... طمأنته إلى أنه لا حاجة للقلق، واقترحت عليه أن أجمع مجموعة من أكثر «هتلراتنا» وداً ومسالمة لكي يقابلهم. وقد أصرّ مارتن على أن الفوهرر مهتم جداً بمقابلتهم والاختلاط بهم دون أن أرافقه. قال إن المرضى لن يتصرفوا تصرفاً طبيعياً إذا رأوا رئيس المشفى موجوداً، لا سيما وأنه لا يوجد أي خطر. وأكدت له مرة أخرى أنه لا يوجد أي خطر، ومع ذلك قلت إنني سأكون مسروراً لو أن مارتن قام بمرافقته. لم يكن في ذلك أية صعوبة، ورتّبنا كل شيء.

أرسلنا تعميماً إلى «الفوهررات» ليجتمعوا في غرفة من أجل

مقابلة زائر رفيع المقام مهتم بتبادل بعض الملاحظات معهم، وقدمنا مارتن والفوهرر إلى المجتمعين، ثم خرجت من الغرفة وأغلقت الباب وتحادثت مع المرافقَين اللذين حضرا مع الفوهرر ومارتن. قلت إن الفوهرر كان يبدو في حالة قلق واضحة، ولا شك أنه كان يعاني من متاعب كثيرة في تلك الفترة. كان ذلك قبل نهاية الحرب بوقت قصير جداً، عندما كانت الأمور تسوء وتتدهور، وقد قال لي الاثنان إن الفوهرر نفسه كان يشعر بالاكتئاب الشديد في الفترة الأخيرة لكنه كان مقتنعاً بأنه يستطيع إنهاء الحرب لصالحه إذا ما التزمت هيئة أركانه بالأفكار التي كان يطرحها باستمرار.

قال السير جورج باكهام: أظن أن الفوهرر كان في ذلك الوقت... أقصد، لا شك أنه كان في حالة...

قال السيد سبايس: لا حاجة بنا للتركيز على هذه النقاط. كان خارجاً تماماً عن طوره، فقد اضطر مساعدوه إلى تولّي العديد من مسؤوليات السلطة ونزعها منه، ولكن بوسعك معرفة هذا كله بشكل جيد من الأبحاث التي قمتم بها في بلدي.

- إننا نتذكر أنه في محاكمات نورمبرغ...

قال السيد لازنباي بحزم: أنا متأكد أنه لا حاجة للإشارة إلى محاكمات نورمبرغ؛ لقد انتهى كل ذلك الآن وتركناه وراءنا. نريد أن نتطلع إلى الأمام حيث المستقبل العظيم في السوق المشتركة بمساعدة حكومتكم وزملائكم الأوروبيين الآخرين. الماضي ولّى ومضى.

قال السيد سبايس: صحيحٌ تماماً، ولكن الماضي هو ما نتحدث

عنه الآن. بقي «مارتن ب» وهتلر وقتاً قصيراً جداً في غرفة الاجتماع، ثم خرجا بعد سبع دقائق. وقد أعرب مارتن للدكتور ريشاردت عن رضاه التام على ما شاهداه وقال إن سيارتهما في الانتظار ولا بد أن يذهب مع هتلر على الفور حيث إن لديهما موعداً آخر. وغادرا المكان على عجل.

ساد الصمت الغرفة، ثم سأل الكولونيل بايكواي: ثم ماذا؟ هل حدث شيء؟

قال الدكتور ريشاردت: كان سلوك أحد المرضى الذين يزعمون أنهم هتلر غير عادي. كان رجلاً يشبه هتلر كثيراً، حيث كان هذا يعطيه ثقة خاصة فيما كان يزعمه. وقد أصرّ بعد لقائه بهتلر الحقيقي وبقوة أكثر على أنه الفوهرر، وقال إنه يجب أن يذهب إلى برلين فوراً ليرأس هناك اجتماعاً لهيئة الأركان. والواقع أنه تصرف دون أن يظهر علامات التحسن الطفيف التي كان قد أظهرها في وقت سابق؛ بدا وكأنه قد اختلف إلى حد جعلني لا أفهم هذا التغير الذي حدث فجأة. والواقع أنني ارتحت عندما جاء أقاربه بعد يومين ليأخذوه معهم إلى البيت من أجل علاجه علاجاً خاصاً في المستقبل هناك.

قال السيد سبايس: وتركته يذهب؟

- كان طبيعياً أن أتركه يذهب؛ كان معهم طبيب مسؤول، وكان هو مريضاً طوعياً وليس مجنوناً مسجلاً رسمياً، ولذلك كان من حقه الخروج متى شاء. وهكذا غادر.

قال السير جورج باكهام: لا أفهم...

- السيد سبايس لديه نظرية.

قال سبايس: إنها ليست نظرية؛ إن ما أقوله لكم حقيقة أخفاها الروس ونحن أخفيناها، وقد ظهرت أدلة وبراهين كثيرة عليها. هتلر، الفوهرر الحقيقي، ظلّ في المصح بإرادته في ذلك اليوم، والذي غادر مع السيد مارتن هو أحد المرضى الذين يشبهونه تماماً. إن جثة ذلك المريض هي التي عُثِر عليها بعد ذلك في الملجأ تحت الأرض. لن أحوم حول الموضوع فلا حاجة لأن نخوض في تفصيلات غير ضرورية.

قال لازنباي: علينا جميعاً أن نعلم بالحقيقة.

- لقد تم تهريب الفوهرر الحقيقي من خلال طريق سري تحت الأرض كان معَدّاً سلفاً، حيث ذهب إلى الأرجنتين وعاش هناك لبضع سنين. وقد رُزق بولد هناك من فتاة آرية جميلة تنتمي إلى عائلة عريقة، والبعض يقول إنها كانت إنكليزية، وقد ساءت حالة هتلر العقلية ومات مجنوناً وهو يحسب أنه يقود جيوشه في الميدان. ربما كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي كان يمكنه الهروب من ألمانيا بها، وقد قبلها.

- وهل تعني أنه لم يتسرب شيء من المعلومات حول هذا الأمر طوال هذه السنين ولم يُعرف أي شيء؟

- انتشرت إشاعات، الإشاعات موجودة دائماً. لقد قيل -إن

كنتم تذكرون- إن إحدى بنات القيصر في روسيا نجت من المذبحة الجماعية التي وقعت لعائلتها.

قال جورج باكهام: لكن ذلك كان... كذباً، كذباً تماماً.

- لقد أثبتت مجموعة من الناس بطلان ذلك، لكن مجموعة أخرى قبلت الحقيقة وصدّقتها، وكلا المجموعتين كانت تعرفها. مجموعة تقول إن أناستاسيا كانت أناستاسيا فعلاً والأخرى تقول إن دوقة روسيا الكبرى لم تكن في الحقيقة إلاّ فتاة من الفلاحين. أي منهما صحيحة؟ إشاعات! وكلما طال أمد الإشاعة كلما قلّ تصديق الناس لها، باستثناء أصحاب العقول الرومانسية الخيالية الذين يستمتعون في التصديق. وكثيراً ما أشيع أن هتلر على قيد الحياة وليس ميتاً؛ لم يقل أحد أبداً بثقة وجزم إنه فحص جثته، الروس أعلنوا ذلك لكنهم لم يقدّموا أي دليل.

- هل تريد أن تقول... يا دكتور ريشاردت، هل تؤيد هذه الرواية الغريبة؟

- آه، أنت تسألني، لكني أخبرتك بالجزء المتعلق بي. كان «مارتن ب» هو الذي جاء إلى مصحي بالتأكيد، وكان مارتن هو الذي أحضر معه الفوهرر، وكان هو الذي عامله كفوهرر والذي تكلم معه بكل الاحترام والتبجيل الذي يخاطب به المرء الفوهرر. وبالنسبة لي فقد سبق لي أن عشت مع بضع مئات من الفوهررات والنابليونات واليوليوس قيصرات... إذا صح التعبير. يجب أن تعلم بأن الهتلرات الذين عاشوا في مصحّي كانوا متشابهين وكان يمكن أن يكونوا في معظمهم أدولف هتلر، هم أنفسهم ما كانوا ليصدقوا

بكل تلك العاطفة والحماسة أنهم هتلر ما لم يكن لديهم شبه أساسي به، يضاف إليه المكياج والزي والتمثيل المستمرّ لدور هتلر. لم أكن قد قابلت أدولف هتلر من قبل، بل كنت أرى صوره في الصحف فقط، وكنت أكوّن صورة تقريبية عن شخصيتنا العبقرية العظيمة وكيف كانت تبدو، ولكن المرء لا يعرف إلاّ الصور التي يريد لها الفوهرر أن تظهر.

وهكذا أتى، وكان الفوهرر. هكذا قال مارتن، وهو أوثق مَن ينبغي تصديقه في هذا الموضوع. لم تكن لديّ أية شكوك وأطعت الأوامر؛ رغب هتلر أن يذهب بمفرده إلى غرفة للالتقاء بنخبة من... ماذا يسميهم المرء؟ بنخبة من النّسَخ المتطابقة عنه. دخل ثم خرج. ربما حصل تبادل في الثياب، وعلى أية حال لم تكن الملابس تختلف كثيراً. هل كان هو الذي خرج أم أن أحد الذين تقمصوا شخصيته خرج ومارتن يدفع به، ثم تم اقتياده بعيداً بالسيارة بينما يمكن أن يكون الرجل الحقيقي قد بقي في المصح، وربما كان مستمتعاً بلعب دوره هو، وربما كان يعلم أنه بهذه الطريقة وحدها يمكنه الهروب خارج البلد التي توشك أن تستسلم في أية لحظة. كان مشوّش الذهن أصلاً وكان غاضباً وثائراً لأن أوامره لم تعد تلقى الطاعة الفورية كما كانت من قبل، تلك الأوامر والرسائل الغريبة العنيفة التي كان يرسلها إلى هيئة أركانه والأشياء المستحيلة التي كان عليهم أن يحاولوا عملها. ربما شعر بأنه لم يعد في موقع القائد المطلق، ولكن كان معه اثنان أو ثلاثة من الرجال المخلصين له، وقد وضعوا له خطة ليخرجوه من هذا البلد ومن أوروبا إلى مكان في قارة مختلفة يستطيع فيه جمع أنصاره النازيين، الشباب الذين

يؤمنون به إيماناً كبيراً وحماسياً. كان يمكن للصليب المعقوف أن يظهر ويرتقي هناك من جديد.

لقد لعب دوره، ولا شك أنه استمتع به. نعم، كان من شأن ذلك أن يلائم حال رجل كان عقله يترنح ويتداعى؛ كان سيُظهر لهؤلاء الآخرين بأنه يستطيع لعب دور أدولف هتلر أفضل منهم، كان يضحك مع نفسه من فترة لأخرى وكان أطبائي ينظرون فيرون بعض التغيير. وماذا في ذلك؟ أحد المرضى يبدو مضطرباً اضطراباً غير عادي. لم يكن في ذلك الشيء الكثير، كان يحدث دائماً مع من يدّعون أنهم نابليون أو يوليوس قيصر، كلهم كان يمكن للإنسان العادي أن يقول إنهم يبدون في بعض الأيام أكثر جنوناً من الأيام الأخرى. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها شرح ما حدث. إذن فإن الدور الآن للسيد سبايس لكي يتكلم.

قال وزير الداخلية: غريب!

قال سبايس: نعم، غريب. ولكن الأشياء الغريبة يمكن أن تحدث في التاريخ، في حياتنا الواقعية، بغض النظر عن مدى غرابتها.

- ألم يشكّ أحدٌ، ألم يعلم أحد؟

- كان عملاً مخططاً له تخطيطاً جيداً ومدروساً بعناية؛ كان طريق الهروب جاهزاً، ولم تكن تفاصيله الدقيقة معروفة معرفةً واضحة لكن بوسع المرء أن يعيد تلخيص أهمها: إن بعض الأشخاص المعنيين الذين نقلوا شخصية مُعيَّنة من مكان إلى آخر وبصيغ مختلفة من التنكّر وبأسماء مختلفة، بعض هؤلاء الناس

عندما قمنا بتحرياتنا وعدنا إلى الماضي وجدنا أنهم لم يعيشوا المدة التي كان من الطبيعي أن يعيشوها.

- أتقصد بسبب كشفهم للسر أو احتمال ثرثرتهم؟

- كان جهاز الغستابو يتولى هذه المسألة. مكافآت سخية، مديح، وعود بمناصب رفيعة في المستقبل، ثم... الموت هو الحلّ الأسهل. وكان الغستابو معتاداً على الموت؛ كانوا يعرفون طرقه المختلفة وطرق التخلص من الجثث. نعم، سوف أخبركم بهذا الأمر، وقد كنا نحقق فيه منذ وقت طويل. لقد علمنا بالأمر شيئاً فشيئاً وقمنا بالتحريات وحصلنا على وثائق ومستندات حتى ظهرت الحقيقة؛ فقد وصل أدولف هتلر إلى أمريكا الجنوبية بالتأكيد ويقال إنه تزوج ورزق بطفل، وقد طُبعت على قدم الطفل علامة الصليب المعقوف، طُبعت وهو طفل رضيع. وقد سمعت من عملاء موثوقين يمكنني أن أصدّقهم أنهم رأوا تلك القدم المدموغة في أمريكا الجنوبية. وهناك نشأ الطفل وشبّ تحت حراسة مشددة وتم إعداده، تم إعداده كما يُعَدّ الدالاي لاما لقدره العظيم! لأن تلك كانت هي الفكرة التي تفسر وجود الشباب المتعصب؛ كانت الفكرة أعظم من الفكرة التي بدؤوا بها. لم يكن هذا مجرد إحياء للنازية الجديدة أو للجنس الألماني الجديد المتفوق. صحيح أن ذلك كان جزءاً من الفكرة، ولكن هناك أشياء كثيرة أخرى إلى جانب تلك الفكرة، فقد أصبحت تضمّ شباب الكثير من الدول والأمم الأخرى، جنس الشباب المتفوق في كل بلد أوروربي تقريباً، كي يتوحدوا معاً ويوحدوا جنود الفوضوية ليدمروا العالم القديم، ذلك العالم المادي، ويبشروا بعصبة إخاء عظيمة جديدة

قائمة على القتل والجريمة والعنف، عصبة عازمة على التدمير ثم على القفز إلى السلطة. ولديهم الآن قائدهم، قائد تسري في عروقه الدماء الصحيحة، ورغم أنه نشأ دون شبه كبير بوالده المتوفى إلا أنه جرماني ذهبي الشعر أبيض البشرة، شبيه بأمه كما يُفترَض... ولد ذهبي، ولد يمكن للعالم كله أن يقبله، الألمان أولاً لأن ذلك كان عنوان عقيدتهم وموسيقاهم ومنها الشاب سيغفريد، ولذلك نشأ وكبر بصفته الشاب سيغفريد الذي سيحكمهم جميعاً ويقودهم إلى النصر. ستوحَّد دول أوروبا ودول أمريكا الجنوبية معاً، وبعد ذلك كله: الحياة الجديدة المجيدة!

قال السيد لازنباي: إنه هراء سخيف. عندما نضع حداً لهذا كله فإن كل شيء سينهار. هذا سخيف جداً، ما الذي يمكنهم عمله؟

بدا سيدريك لازنباي بَرِماً متشكياً. وهزّ سبايس رأسه الحكيم بأسف وقال: ربما تسألون. سأخبركم بالإجابة وهي "إنهم لا يعرفون"؛ إنهم لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، لا يعرفون ما الذي سيحدث لهم.

- هل تعني أنهم ليسوا القادة الحقيقيين؟

- إنهم الأبطال الشباب الزاحفون، يشقون طريقهم إلى المجد على سلالم العنف والألم والكراهية، ولهم أنصارهم الآن ليس في أمريكا الجنوبية وأوروبا فقط فقد انتقلت هذه العقيدة إلى الشمال، في الولايات المتحدة توجد أيضاً أحداث شغب يقوم بها الشباب، إنهم ينظمون المسيرات والمظاهرات ويسيرون خلف لواء الشاب سيغفريد. لقد تعلموا أساليبه، تعلموا القتل والتلذذ بالألم وتعلموا

قوانين رأس الموت، قوانين هتلر. لقد تم تدريبهم وهم يُلقَّنون التعاليم بسرية تامة، لا يعرفون لماذا يتدربون لكننا نعرف، أو على الأقل البعض منا. وأنتم في هذا البلد؟

قال الكولونيل بايكواي: ربما أربعة أو خمسة منا يعرفون.

- في روسيا يعرفون، وفي أمريكا بدؤوا يعرفون، يعرفون أن هناك أتباعاً للبطل الشاب سيغفريد تجمعهم الأساطير الجرمانية وأن الشاب سيغفريد هو القائد...

قال السيد سبايس وهو يخفض صوته: لكن هذا ليس الحقيقة البسيطة كلها بالطبع؛ فهناك بعض الشخصيات المتنفذة وراء هذا الأمر. رجال أشرار بعقول من الدرجة الأولى، حوت مالي من الدرجة الأولى، وصناعي عظيم يسيطر على المناجم والنفط ومخازن اليورانيوم ويمتلك علماء من أعلى المستويات، وهؤلاء هم المعنيون، لجنة من الرجال الذين لا يبدون بحد ذاتهم ممن يثيرون الاهتمام على نحو خاص ولكنهم -مع ذلك- يسيطرون، يسيطرون على مصادر القوة ويسيطرون بوسائل معينة خاصة بهم على الشباب العبيد! فعن طريق السيطرة على المخدرات يكتسبون عبيداً، عبيداً في كل بلد ممن يتورطون شيئاً فشيئاً في تعاطي المخدرات ويصبحون في النهاية خاضعين تماماً. إن حاجتهم إلى المخدرات تجعلهم عبيداً، وبمرور الوقت يصبح هؤلاء العبيد لا فائدة منهم بسبب اتكالهم على المخدرات. إنهم لا يستطيعون إلاّ الجلوس في فتور ولامبالاة يحلمون الأحلام الجميلة، وهكذا يتركونهم يموتون!

- يا عزيزي المستشار! لا أستطيع في الحقيقة تصديقك... أقصد، أقصد إن كانت هذه الميول موجودة فلا بد من القضاء عليها باتخاذ إجراءات قوية وصارمة. أقصد أننا لا نستطيع الاستمرار في السكوت على أمر كهذا، لا بد أن نتخذ موقفاً حازماً... موقفاً صلباً.

قال السيد لازنباي: على رسلك يا جورج.

ثم أخرج غليونه فنظر إليه، ثم أعاده إلى جيبه ثانية وأكمل يقول: أظن أن أفضل خطة أراها هي السفر إلى روسيا. فهمت من كلامك أن الروس يعرفون هذه الحقائق؟

قال السيد سبايس: إنهم يعرفون معرفة كافية، ولكن إلى أي مدى سيعترفون بمعرفتهم؟ هذا ما تصعب معرفته. ليس سهلاً أبداً حمل الروس على المصارحة والمكاشفة؛ إن لهم مشكلاتهم الخاصة على الحدود مع الصين، وربما كانوا أقلّ تصديقاً منا بالمرحلة المتطورة التي وصلت إليها الأمور.

- سأجعل من مهمتي مهمة خاصة.

- لو كنت مكانك لبقيت مكاني هنا يا سيدريك.

كان المتكلم هو اللورد ألتاماونت بصوته الهادئ من حيث كان يجلس مائلاً في كرسيه بشيء من السأم، ثم أضاف بصوت ينم عن سلطة فيها شيء من اللين: نحن بحاجة إليك هنا يا سيدريك، أنت رئيس حكومتنا ويجب أن تبقى هنا. إن لدينا عملاءنا المدربين ومبعوثينا المؤهلين للمهمات الخارجية.

سأله السير جورج بارتياب: عملاء؟ ما الذي يمكن للعملاء فعله في هذه المرحلة؟ يجب أن نسمع تقريراً من... آه، هورشام، أنت هنا! لم أنتبه لوجودك هنا من قبل. أخبرنا، أي عملاء لدينا وما الذي يمكنهم فعله؟

قال هنري هورشام بهدوء: لدينا بعض العملاء الممتازين، عملاء يحضرون لنا المعلومات. السيد سبايس أحضر لكم معلومات هو أيضاً، معلومات حصل عليها من عملائه. المشكلة الآن (وقد كانت دوماً كذلك) هي أنه لا أحد يرغب في تصديق المعلومات التي يحضرها العملاء... وما عليكم إلا قراءة مجريات الحرب الأخيرة لتروا صدق ذلك.

- إن جهاز الاستخبارات بالتأكيد...

- لا يريد أحدٌ أن يصدّق أن العملاء أذكياء فعلاً! لكنهم أذكياء؛ إنهم مدرَّبون تدريباً عالياً وتسعة أعشار تقاريرهم تكون صحيحة. ما الذي يحدث إذن؟ المسؤولون الكبار يرفضون تصديقها أو لا يريدون تصديقها، ويذهبون إلى أبعد من ذلك فيرفضون العمل بموجب هذه التقارير.

- الحق يا عزيزي هورشام أنني لا أستطيع...

التفت هورشام إلى الألماني وقال: حتى في بلدكم أنتم يا سيدي، ألم يحدث هذا؟ كانت تصلكم تقارير صحيحة لكنكم لم تكونوا تعملون وفقاً لها. عندما تكون الحقيقة مُرّة بغيضة فإن الناس لا يريدون معرفتها.

- أجد نفسي ملزَماً بالموافقة. يمكن أن يحدث ذلك، وهو يحدث فعلاً. ليس كثيراً لكنه... لكنه يحدث أحياناً.

بدا السيد لازنباي عصبياً مرة أخرى وهو يعبث بغليونه وقال: دعونا لا نجادل في أمر المعلومات؛ المسألة هي مسألة العمل وفق المعلومات التي نحصل عليها. إن هذه ليست مجرد أزمة محلية فقط، إنها أزمة دولية، ولا بد من اتخاذ القرارات على أعلى المستويات. علينا أن نتصرف. مونرو، يجب تدعيم الشرطة بقوات من الجيش، يجب اتخاذ إجراءات عسكرية. يا سيد سبايس، كنتم دائماً أمة عسكرية عظيمة، يجب على القوات المسلحة سحق التمرد والعصيان قبل أن تفلت الأمور من بين أيدينا. إنني متأكد من أنك موافق معي على هذه السياسة.

- أتفق معك على هذه السياسة، نعم، لكن هذا العصيان المسلح أصبح فعلاً خارج أيدينا. إن لديهم أدواتهم وأسلحتهم ومتفجراتهم وقنابلهم والأسلحة الكيماوية والغازات الأخرى.

- ولكن بوجود الأسلحة النووية في أيدينا...

- إنهم ليسوا مجرد تلاميذ مدرسة ساخطين. إن مع هذا الجيش من الشباب علماء، علماء شبان في البيولوجيا والكيمياء والفيزياء... وإن إشعال حرب نووية في أوروبا...

كان سبايس يهز رأسه وأكمل يقول: لقد تعرضنا بالفعل إلى محاولة تسميم إمدادات المياه في كولون بمرض التيفوئيد.

نظر سيدريك لازنباي حوله كمن يبحث عن أمل وقال: الوضع كله لا يُصدَّق. شيتويند، مونرو، بلانت؟

كان الأدميرال بلانت هو الوحيد الذي أجابه مما كان مبعث استغراب بسيط من لازنباي. قال بلانت: لا أعرف ما هو دور البحرية في هذا. إن هذا النوع من المهمات ليس اختصاصنا، وأنصحك يا سيدريك -إن كنت تريد أن تفعل أفضل شيء بالنسبة لك- بأن تأخذ غليونك وكمية كبيرة من التبغ وتهرب إلى أبعد مسافة عن ساحة الحرب النووية التي تفكرون بإشعالها. اذهب وعسكر في القطب الجنوبي أو في مكان لايصله النشاط الإشعاعي إلاّ بعد وقت طويل. لقد حذرنا البروفسور إيكشتاين وهو يدرك ما يقوله.

* * *

الفصل الثامن عشر
استدراك من بايكواي

انتهى الاجتماع عند هذه النقطة، وقد انقسم المجتمعون في ترتيب محدد؛ فالمستشار الألماني مع رئيس الوزراء والسير جورج باكهام وغوردن شيتويند والدكتور ريشاردت غادروا لتناول الغداء في مبنى رئاسة الوزراء في داوننغ ستريت، وبقي الأدميرال بلانت والكولونيل مونرو والكولونيل بايكواي وهنري هورشام ليُبدو ملاحظاتهم بحرّية أكثر مما لو كانت الشخصيات الكبيرة حاضرة معهم.

كانت الملاحظات الأولى التي قيلت غير مترابطة إلى حد ما. قال الكولونيل بايكواي: أحمد الله أنهم أخذوا جورج باكهام معهم. إنه يقلق ويتململ ويتساءل ويخمّن... إنه يصيبني بالكآبة أحياناً.

قال الكولونيل مونرو: كان يجب أن تذهب معهم أيها الأدميرال. لا أظن أن غوردن شيتويند أو جورج باكهام يستطيعان منع رئيس وزرائنا من السفر لإجراء مشاورات عالية المستوى مع الروس أو الصينيين أو الأرجنتينيين... أو أي بلد آخر يذهب به خياله إليه.

قال الأدميرال بفظاظة: عندي أعمال أخرى أريد القيام بها، سأذهب إلى الريف لرؤية صديق قديم.

ثم نظر إلى الكولونيل بايكواي بشيء من الفضول وقال: هل فاجأك حقاً الخبر عن هتلر يا بايكواي؟

هز الكولونيل بايكواي رأسه وقال: لا؛ كنا نعرف كل شيء عن الإشاعات التي تقول بأن أدولف هتلر قد ظهر في أمريكا الجنوبية وأنه أبقى أفكاره وشعاراته حية لعدة سنوات، واحتمال صدق هذه الإشاعة يبلغ خمسين بالمئة. وأياً كان الرجل، أكان مجنوناً أم شخصاً منتحلاً شخصيته أم أنه هتلر الحقيقي، فقد مات بسرعة. وهناك قصص سيئة حول ذلك أيضاً، فهو لم يكن مصدر قوة لأنصاره ومؤيديه.

قال بلانت: جثة مَن تلك التي كانت في الملجأ؟ هذا سؤال ما زال موضع نقاش. لم يَجرِ التعرف على صاحبها وتحديده بشكل جازم، وقد حرص الروس على تولي ذلك.

نهض وأومأ للآخرين محيّياً، ثم ذهب نحو الباب. قال مونرو وهو مستغرق في التفكير: أظن أن الدكتور ريشاردت يعرف الحقيقة، على الرغم من أنه كان حذراً ولم يُفصح عن شيء.

قال هورشام: وماذا بخصوص المستشار؟

قال الأدميرال وهو يدير رأسه إلى الوراء عند الباب: رجل عاقل. كان يسير ببلده في الطريق التي يريدها عندما بدأ هؤلاء الشباب يعبثون بالعالم المتحضر... أمر مؤسف.

الفصل الثامن عشر

استدراك من بايكواي

انتهى الاجتماع عند هذه النقطة، وقد انقسم المجتمعون في ترتيب محدد؛ فالمستشار الألماني مع رئيس الوزراء والسير جورج باكهام وغوردن شيتويند والدكتور ريشاردت غادروا لتناول الغداء في مبنى رئاسة الوزراء في داوننغ ستريت، وبقي الأدميرال بلانت والكولونيل مونرو والكولونيل بايكواي وهنري هورشام ليُبدو ملاحظاتهم بحرّية أكثر مما لو كانت الشخصيات الكبيرة حاضرة معهم.

كانت الملاحظات الأولى التي قيلت غير مترابطة إلى حد ما. قال الكولونيل بايكواي: أحمد الله أنهم أخذوا جورج باكهام معهم. إنه يقلق ويتململ ويتساءل ويخمّن... إنه يصيبني بالكآبة أحياناً.

قال الكولونيل مونرو: كان يجب أن تذهب معهم أيها الأدميرال. لا أظن أن غوردن شيتويند أو جورج باكهام يستطيعان منع رئيس وزرائنا من السفر لإجراء مشاورات عالية المستوى مع الروس أو الصينيين أو الأرجنتينيين... أو أي بلد آخر يذهب به خياله إليه.

قال الأدميرال بفظاظة: عندي أعمال أخرى أريد القيام بها، سأذهب إلى الريف لرؤية صديق قديم.

ثم نظر إلى الكولونيل بايكواي بشيء من الفضول وقال: هل فاجأك حقاً الخبر عن هتلر يا بايكواي؟

هز الكولونيل بايكواي رأسه وقال: لا؛ كنا نعرف كل شيء عن الإشاعات التي تقول بأن أدولف هتلر قد ظهر في أمريكا الجنوبية وأنه أبقى أفكاره وشعاراته حية لعدة سنوات، واحتمال صدق هذه الإشاعة يبلغ خمسين بالمئة. وأياً كان الرجل، أكان مجنوناً أم شخصاً منتحلاً شخصيته أم أنه هتلر الحقيقي، فقد مات بسرعة. وهناك قصص سيئة حول ذلك أيضاً، فهو لم يكن مصدر قوة لأنصاره ومؤيديه.

قال بلانت: جثة مَن تلك التي كانت في الملجأ؟ هذا سؤال ما زال موضع نقاش. لم يَجرِ التعرف على صاحبها وتحديده بشكل جازم، وقد حرص الروس على تولي ذلك.

نهض وأومأ للآخرين محيّياً، ثم ذهب نحو الباب. قال مونرو وهو مستغرق في التفكير: أظن أن الدكتور ريشاردت يعرف الحقيقة، على الرغم من أنه كان حذراً ولم يُفصح عن شيء.

قال هورشام: وماذا بخصوص المستشار؟

قال الأدميرال وهو يدير رأسه إلى الوراء عند الباب: رجل عاقل. كان يسير ببلده في الطريق التي يريدها عندما بدأ هؤلاء الشباب يعبثون بالعالم المتحضر... أمر مؤسف.

ثم نظر إلى الكولونيل مونرو بحدة وقال: ماذا عن الأعجوبة ذي الشعر الذهبي؟ ابن هتلر. هل تعرف عنه أي شيء؟

قال الكولونيل بايكواي على نحو غير متوقع: لا حاجة للقلق.

ترك الأدميرال يد الباب وعاد وجلس. قال الكولونيل بايكواي: كل ذلك هراء لا أساس له، إن هتلر لم يكن لديه ولد أبداً.

- لا يمكنك التأكد من هذا.

- بل نحن واثقون. إن فرانز جوزيف (أو الشاب سيغفريد)، القائد المعبود، مجرد محتال عادي، دجال صغير. إنه ابن نجار أرجنتيني وامرأة شقراء جميلة كانت مغنية أوبرا ألمانية من الدرجة الثانية، وقد ورث حُسنَ مظهره وصوته الغنائي عن أمه، وقد تم اختياره بعناية للدور الذي يلعبه الآن وهُيِّئ للنجومية. عندما كان في بداية شبابه عمل ممثلاً محترفاً، وقد دمغ على قدمه بصليب معقوف ولُفِّقت من أجله قصة مليئة بالتفاصيل الرومانسية المثيرة. لقد عومل مثل الدالاي لاما.

- وهل عندك دليل على هذا؟

قال الكولونيل بايكواي: لدينا الوثائق الكاملة، أحد أفضل عملائي حصل عليها؛ شهادات خطية معزَّزة بالأَيْمان، وصور فوتوغرافية، وبيانات موقَّعة بما فيها بيان من الأم، وشهادة طبية بتاريخ الجرح على قدمه، ونسخة من شهادة الميلاد الأصلية باسمه الحقيقي كارل أغويليروس... ودليل موقَّع حول هويته المزعومة باسم فرانز جوزيف، وكل صندوق الخدع الأخرى. لقد هربت

عميلتي بهذه الوثائق في الوقت المناسب، وقد تتبعوها وكادوا يمسكون بها لو أنها لم تَلقَ بعض أنحنٰ في مطار فرانكفورت.

- وأين هذه الوثائق الآن؟

- في مكان آمن، بانتظار اللحظة المناسبة لتفجير فضيحة من الدرجة الأولى لهذا الدجال الرهيب.

- هل تعرف الحكومة بهذا؟ ورئيس الوزراء؟

- إنني لا أخبر السياسيين أبداً بكل ما أعرف، إلاّ عندما لا أجد مفراً من ذلك أو عندما أتأكد تماماً من أنهم سيفعلون الشيء الصحيح.

قال الكولونيل مونرو: أنت حقاً شيطان عجوز يا بايكواي.

قال الكولونيل بايكواي بحزن: ينبغي لأحد ما أن يكون كذلك!

* * *

الفصل التاسع عشر

السير ستافورد ناي يستقبل زُوّاراً

كان السير ستافورد ناي يستضيف ضيوفاً. ولم يكن يعرف هؤلاء الضيوف من قبل باستثناء واحد منهم كان يعرفه جيداً بالشكل. كانوا شباباً وسيمين جادّين وأذكياء، أو هكذا حكم عليهم. وكانوا يعتنون بشعورهم ويصففونها جيداً، وكانت ثيابهم حسنة التفصيل إلاّ أنها ليست من طراز قديم.

عندما نظر السير ستافورد إليهم لم يستطع إنكار إعجابه بمظهرهم، وفي الوقت ذاته تساءل عمّا كانوا يريدونه منه. كان يعرف أن أحدهم ابن أحد ملوك النفط، أما الثاني فقد شغل نفسه بالسياسة منذ أن ترك الجامعة وكان عمه يمتلك سلسلة مطاعم، أما الثالث فكان شاباً كثّ الحاجبين يجلس عابساً وكأن الشكوك الدائمة أصحبت طبيعة ثانية لديه.

قال ذلك الذي كان يبدو القائد الأشقر لهذه المجموعة الثلاثية: نشكرك يا سير ستافورد على سماحك لنا بزيارتك.

بدا في صوته لين العريكة، وكان اسمه كليفورد بينت. ومضى

قائلاً: هذا رودريك كيتلي وهذا جيم بروستر، وكلنا قلقون على المستقبل. هل لي أن أشرح الأمر على هذا النحو؟

قال السير ستافورد ناي: أظن أن الإجابة على هذا السؤال هي: ألسنا جميعاً قلقين؟

قال كليفورد بينت: نحن غير راضين عن الطريقة التي تسير بها الأمور. الثورة والفوضوية وكل هذا لا بأس به كفلسفة، وأظن -بصراحة- أن بوسعنا القول إننا نمرّ جميعاً بمرحلة من التعلق بهذه الفلسفة، ولكن المرء يعبرها ويخرج دوماً من الجانب الآخر. نريد للناس أن يكونوا قادرين على متابعة دراساتهم دون مقاطعتها، نريد المظاهرات ولكن لا نريد مظاهرات قطّاع طرق وعنف بل مظاهرات واعية. إن ما نريده بصراحة (أو هذا ما أعتقده) هو وجود حزب سياسي جديد. إن جيم بروستر هذا كان يولي اهتماماً جاداً لأفكار جديدة تماماً وخطط جديدة تخص القضايا النقابية، وقد حاولوا إسكاته ومحاصرته بلغطهم ولكنه مستمر في الحديث، أليس كذلك يا جيم؟

قال جيم بروستر: إن معظمهم من العجائز الحمقى ذوي العقول المشوشة.

- نريد سياسة عاقلة وجادة للشباب وأسلوباً حكومياً أكثر ترشيداً للإنفاق، نريد أن نحصل من التعليم على أفكار مختلفة دون أن تكون أفكاراً خيالية أو طنانة، ثم سنحتاج إلى تنفيذ هذه الأفكار إذا فزنا بمقاعد في البرلمان واستطعنا تشكيل حكومة بعد ذلك... وأنا لا أرى سبباً يمنعنا من هذا. يوجد في حركتنا الكثير من الناس،

إننا نمثل الشباب بقدر ما يمثلهم دعاة العنف، نمثل الاعتدال ونهدف إلى تشكيل حكومة متفهمة، كما أننا نبحث عن رجال من العاملين في السياسة بغض النظر عن معتقداتهم السياسية إذا رأينا أنهم رجال واعون. لقد جئنا إلى هنا لنرى إن كنا نستطيع إثارة اهتمامك بأهدافنا. إنها ما تزال في طور التغيّر في الوقت الحالي، لكننا تطورنا بما يكفي لمعرفة الرجال الذين نريدهم. ربما أقول إننا لا نريد الأشخاص الموجودين لدينا في الوقت الحالي كما لا نريد الرجال الذين قد يوضعون مكان أولئك، وبالنسبة للحزب الثالث فيبدو أنه انتهى وخرج من السباق رغم وجود بعض الأشخاص الجيدين فيه والذين يعانون نتيجة كونهم أقلية، لكني أعتقد أنهم سيتغيرون ويتبنون نهجنا في التفكير. نريد إثارة اهتمامك بقضيتنا، فعندما يحل ذلك اليوم (الذي قد لا يكون بعيداً كما نظن) نريد شخصاً قادراً على وضع سياسة خارجية ناجحة وصحيحة. إن العالم يعيش في فوضى أسوأ ممّا نشهده هنا، لكن هدفنا ليس إعادة العالم ليقف على قدميه من جديد بل جعل إنكلترا تقف على رجليها من جديد، وأن نحصل على الرجال المناسبين لهذا العمل. لدينا عدد كبير من الشبّان المستعدين لإدارة البلاد بشكل يحقق مصالحها، لكننا نريد بعض الرجال الأكبر سنّاً أيضاً، رجالاً في الأربعينيات أو الخمسينيات من أعمارهم. وقد جئنا إليك لأننا سمعنا عنك أشياء؛ إننا نعرف عنك الكثير وأنت من تلك النوعية التي نريدها.

قال السير ستافورد: أتظنون في أنفسكم الحكمة؟

- نظن ذلك.

ضحك الشاب الثاني ضحكة خفيفة وقال: نأمل أن تتفق معنا في هذا الظن.

- لست واثقاً من ذلك؛ فأنتم تتحدثون في هذه الغرفة بحرية تامة.

- إنها غرفة جلوسك.

- نعم، نعم، إنها شقتي وغرفة جلوسي، لكن ما تقولونه ربما كان خطيراً بالنسبة لكم ولي في آن واحد.

- آه، أظن أنني فهمت ما تعنيه.

- إنكم تعرضون عليّ شيئاً؛ أسلوباً في الحياة، وظيفة جديدة. كما تقترحون عليّ قطع بعض الروابط المعينة. إنكم تقترحون عليّ شكلاً من أشكال الغدر والخيانة.

- نحن لا نقترح عليك الهروب من هذا البلد إلى أي بلد إن كان هذا ما تعنيه.

- لقد عدت مؤخراً من الخارج. كانت رحلة مثيرة جداً، وقد قضيت الأسابيع الثلاثة الماضية في أمريكا الجنوبية. هناك شيء أريد قوله لكم: لقد شعرت منذ عودتي إلى إنكلترا بأنني مُراقَب.

- مُراقَب؟ ألا يمكن أن تكون قد تخيلت ذلك؟

- لا، لا أظن أنني كنت أتخيل؛ فهذه هي الأشياء التي تعلمت ملاحظتها من خلال وظيفتي. لقد كنت في مناطق بعيدة جداً وفي أجزاء مثيرة من هذا العالم، وقد اخترتم أن تزوروني لتستطلعوا

رأيي في عرض معين، ولكن لو التقينا في مكان آخر غير هذا لكان الوضع أكثر أماناً.

نهض ففتح باب الحمام وفتح الصنبور، ثم قال: ممّا تعلمته من الأفلام التي كنت أراها قبل سنوات أنك إذا كنت تريد التغطية على حديثك عندما تكون غرفة ما مزروعة بأجهزة تنصت فافتح صنبور المياه! ما من شك عندي بأنني من طراز قديم وأن هناك أساليب أفضل في التعامل مع هذه الأشياء الآن، وعلى أية حال نستطيع التحدث بوضوح أكثر الآن على الرغم من اعتقادي بضرورة توخي الحذر.

ثم أكمل يقول: إن أمريكا الجنوبية مكان مثير جداً من العالم. إن اتحاد دول أمريكا الجنوبية صار يضمّ الآن كوبا والأرجنتين والبرازيل وبيرو وبعض الدول الأخرى التي لم تستقر بعد ويتأكد انضمامها، لكنها على الطريق. نعم، أمر مثير جداً.

سأله جيم بروستر المرتاب: وما هي آراؤك حول الموضوع؟ ماذا تقول حول هذه الأمور؟

قال السير ستافورد: سأواصل الحذر. سأكون موضع ثقتكم أكثر إذا لم يكن كلامي طائشاً، لكني أعتقد أن ذلك سيتم عمله بشكل جيد بعد أن أغلق صنبور الماء.

قال كليف بينت: أغلقه يا جيم.

ابتسم جيم وأطاع الأمر.

فتح ستافورد ناي أحد أدراج الطاولة وأخرج منه آلة موسيقية

صغيرة كالناي وقال: لست عازفاً متمرساً بعد.

وضعها بين شفتيه وبدأ يعزف لحناً. عاد جيم بروستر يصيح: ما هذا؟ أهي سيمفونية سنؤديها؟

قال كليف بينت: اخرس أيها الجاهل؛ أنت لا تعرف عن الموسيقى شيئاً.

ابتسم ستافورد ناي وقال: أرى أنك تشاطرني ولعي بموسيقى فاغنر. لقد حضرت مهرجان الشباب هذا العام واستمتعت بحفلاته الموسيقية كثيراً.

ثم أعاد اللحن من جديد. وقال جيم بروستر: ليس باللحن الذي أعرفه. قد يكون لحن أنترناشيونال أو العلَم الأحمر أو غير ذلك... ما هو بالله عليك؟

قال كيتيلي: إنه اللحن الرئيسي لإحدى الأوبرات. ثم أغلق فمك، إننا نعرف كل ما نريد معرفته.

قال ستافورد ناي: إنها دعوة النفير يطلقها بطل شاب.

رفع يده عالياً بحركة سريعة، حركة من الماضي تعني «هايل هتلر»، ثم همس بصوت خفيف: سيغفريد الجديد.

نهض الثلاثة جميعاً. قال كليفورد بينت: أنت على حق، يجب أن نكون جميعاً حذرين جداً.

ثم صافحه وهو يقول: نحن سعداء بأن نعرف أنك ستكون معنا؛ أعتقد أن أحد الأشياء التي سيحتاجها هذا البلد في مستقبله،

مستقبله العظيم، هو وزير خارجية من الدرجة الأولى.

ثم خرجوا من الشقة. وراقبهم ستافورد ناي وهم يخرجون من الباب ويدخلون المصعد وينزلون، ثم ابتسم ابتسامة غريبة وأغلق الباب، ونظر إلى ساعة معلقة على الجدار ثم جلس على كرسي مريح. عاد بتفكيره إلى ذلك اليوم قبل أسبوع عندما افترق عن ماري آن في مطار كندي؛ كانا قد وقفا هناك لا يستطيع أي منهما الكلام، وكان ستافورد ناي أول من كسر حاجز الصمت فقال: هل تعتقدين أننا سنلتقي ثانية؟

- وهل من سبب يمنعنا من ذلك؟

- أظن أن هناك كثيراً من الأسباب.

نظرت إليه ثم حولت نظرها بسرعة قائلة: لا بد من مثل هذه المواقف الوداعية. إنها جزء... جزء من العمل.

- العمل؟ إن ما يعنيك دائماً هو العمل، أليس كذلك؟

- هذا هو الواجب.

- أنت محترفة، أما أنا فمجرد هاو. إنك...

سكت قليلاً ثم قال: ماذا أنت؟ من أنت؟ لا أعرف، أليس كذلك؟

- بلى.

عندها نظرت إليه، وظن أنه رأى الحزن في وجهها، رأى شيئاً

يكاد يكون ألماً. قال: إذن يجب عليّ أن... أظن أنك ترين أن عليّ أن أثق بك؟

- لا، ليس هذا. هذا أحد الأشياء التي تعلمتها أو علمتني إياها الحياة؛ لا يوجد أحد يمكن الوثوق به. تذكّر هذا... دائماً.

- إذن فهذا هو عالمك، عالم الشك والخوف والخطر؟

- أنا أرغب في البقاء على قيد الحياة.

- أعرف.

- وأريدك أن تظل على قيد الحياة أنت أيضاً.

- لقد وثقتُ بك في فرانكفورت.

- كانت تلك مخاطرة.

- كانت مخاطرة تستحق الخوض. أنت تعرفين ذلك كما أعرفه تماماً.

- تقصد لأن...

- لأننا كنا معاً. والآن ها هم ينادون على رحلتي. هل محكوم على رفقتنا أن تبدأ في مطار وتنتهي هنا في مطار آخر؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ ماذا ستفعلين؟

- لأفعل ما يجب عليّ فعله؛ إلى بالتيمور، إلى واشنطن، إلى تكساس... لأفعل ما طُلِب مني فعله.

- وأنا؟ لم يطلب مني أحدٌ أن أفعل شيئاً. هل عليّ العودة إلى لندن، وماذا سأفعل هناك؟

- انتظِرْ.

- أنتظرُ ماذا؟

- انتظر من سيتقربون إليك، وهم لا شك فاعلون.

- وماذا سأفعل عندها؟

ابتسمت له ابتسامة مفاجئة مرحة كان يعرفها جيداً. قالت: تصرف وفقاً للظروف؛ سوف تعرف كيف تتصرف على أفضل وجه. سيعجبك الأشخاص الذين سيتقربون منك إذ سيتم اختيارهم بعناية. إنه مهم، مهم جداً أن نعرف من هم هؤلاء.

- يجب أن أذهب، وداعاً يا ماري آن.

أجابته بالألمانية: مع السلامة.

* * *

في شقته بلندن رنّ جرس الهاتف، ولاحظ ستافورد ناي أن رنينه جاء في لحظة فريدة التوقيت، إذ أعاده من ذكرياته الماضية في نفس اللحظة التي كان يتذكر بها لحظة الوداع. تمتم مع نفسه وهو ينهض ليأخذ السماعة: مع السلامة، أرجو ذلك.

تكلم على الطرف الآخر صوت ذو لهجة متحشرجة يعرفها ستافورد ناي حق المعرفة: ستافورد ناي؟

أجابه الجواب الذي يناسبه: لا دخان بلا نار.

قال الكولونيل بايكواي: يقول طبيبي إن عليّ الإقلاع عن

التدخين. مسكين، الأفضل له أن يقلع هو عن هذا الأمل. هل من أخبار؟

- آه، نعم. ثلاثون قطعة من الفضة... أقصد أنهم وعدوني بها.

- أيها الخنزير اللعين.

- نعم، نعم، اهدأ.

- وماذا قلت؟

- عزفت لهم لحناً، لحن نفير سيغفريد. كنت أسير وفق نصيحة عمّة لي، وقد نجحت جيداً.

- يبدو لي عملاً مجنوناً.

- هل تعرف أغنية تدعى خوانيتا؟ لا بد أن أتعلم هذه أيضاً لأنني قد أحتاجها.

- هل تعرف من هي خوانيتا؟

- أظن ذلك.

- همم... عجباً. لا بد أنك سمعت عنها في بالتيمور آخر مرة.

- ماذا عن فتاتك اليونانية دافني ثيودوفانوس؟ ترى أين هي الآن.

- ربما كانت جالسة في أحد مطارات أوروبا بانتظارك.

* * *

الفصل العشرون
الأدميرال يزور صديقة قديمة

قال الأدميرال بلانت متذمراً: لقد ظننت أنكم فارقتم الحياة كلكم هنا.

لم تكن ملاحظته هذه موجهة إلى واحد من أولئك الخدم الذين كان الأدميرال يحبّ أن يراهم وهم يفتحون له الباب الأمامي، بل كانت موجهة إلى المرأة الشابة المسماة إيمي والتي لم يستطع أن يتذكر اسم عائلتها. ومضى قائلاً: لقد اتصلت بكم أربع مرات خلال الأسبوع الماضي، وقالوا لي إنكم سافرتم إلى الخارج.

- كنّا في الخارج بالفعل، وقد عدنا من السفر لتوّنا.

- ما كان ينبغي لماتيلدا أن تخرج وتهيم في الخارج وهي في مثل هذا السن. سوف تموت بارتفاع الضغط أو بالسكتة القلبية أو غير ذلك في واحدة من هذه الطائرات الحديثة التي تتجول وهي مليئة بالمتفجرات التي أصبحت توضع فيها. لم تعد الطائرات آمنةً أبداً.

- طبيبها هو الذي أوصى بهذا.

- آه، كلنا يعرف كيف يفكر الأطباء.

- والحق أنها عادت من هناك بمعنويات مرتفعة جداً.

- أين كانت إذن؟

- آه، كانت في رحلة علاجية في ألمانيا أو... لا أدري إن كانت في ألمانيا أو النمسا. في ذلك المكان الجديد، غولدن غاستهاوس.

- آه، نعم؛ أعرف المكان الذي تقصدين. إنه مرتفع التكاليف، أليس كذلك؟

- يقال إنه يحقق نتائج باهرة.

قال الأدميرال بلانت: قد تكون مجرد طريقة مختلفة لقتلكِ بصورة أسرع. كيف كان استمتاعك أنت بها؟

- لم أستمتع كثيراً في الحقيقة، كانت المناظر الطبيعية جميلة جداً ولكن...

سُمع صوت حازم من الطابق العلوي: إيمي، إيمي! ما الذي تفعلينه بحديثك في الصالة كل هذا الوقت؟ أحضري الأدميرال بلانت إلى هنا، أنا بانتظاره.

قال الأدميرال بلانت بعد أن حيّا صديقته القديمة: كنت تتسكعين في الخارج. سوف تقتلين نفسك في يوم من الأيام بهذه الطريقة، تذكري كلامي.

- لا، لن أفعل؛ لا توجد صعوبةٌ أبداً في السفر هذه الأيام.

- الركض في كل هذه المطارات وعلى السلالم وفي الحافلات...

- أبداً، كنت أجلس على كرسي متحرك.

- قبل سنة أو سنتين عندما رأيتك قلت إنك لن تسمحي لنفسك باستخدام هذا الكرسي، قلت إن لديك من الكبرياء ما يجعلك تنكرين حاجتك له.

- حسناً، لقد اضطررت للتخلي عن بعض كبريائي في هذه الأيام يا فيليب. تعال واجلس هنا وأخبرني عن سبب زيارتك لي هكذا فجأة، لقد أهملت زيارتي مدة طويلة خلال العام الماضي.

- لم أكن في صحة جيدة، كما أنني كنت أقوم ببعض الأعمال. أنت تعرفين طبيعتها، حيث يطلبون نصيحتي مع أنهم لا يقصدون أبداً الأخذ بها. إنهم لا يستطيعون ترك سلاح البحرية وشأنه... تباً لهم.

قالت الليدي ماتيلدا: أراك بخير.

- وأنت نفسك لا تبدين في صحة سيئة يا عزيزتي، إن الحيوية تشعّ من عينيك.

- لقد ازداد صممي عمّا كان في آخر مرة رأيتني بها، يجب أن ترفع صوتك قليلاً.

- حسناً، سأرفع صوتي.

- ماذا تريد أن تشرب؟

- عصير الليمون.

نهضت إيمي وغادرت لتحضر العصير، فقال الأدميرال: وعندما تحضره تخلصي منها مرة أخرى. هل تسمعين؟ أريد أن أتحدث إليك، أريد أن أتحدث معك على انفراد.

جاء العصير، وأشارت الليدي ماتيلدا إلى إيمي لكي تنصرف فغادرت الغرفة، وبدا عليها وكأنها تُرضي نفسها بذلك وليس سيدتها. كانت شابةً لبقة.

قال الأدميرال: إنها فتاة لطيفة، لطيفة جداً.

- ألهذا طلبتَ مني التخلص منها والتأكد من إغلاقها الباب؟ حتى لا تسمعك وأنت تمتدحها؟

- لا؛ بل كنت أريد استشارتك.

- بخصوص ماذا؟ صحتك أم المكان الذي يوجد فيه خدم جدد، أم بخصوص ما تزرعه في حديقة بيتك؟

- أريد أن أستشيرك بكل جدية. رأيت أنك قد تستطيعين أن تتذكري شيئاً.

- يا عزيزي فيليب، كم هو مؤثر أن تعتقد بأنني أستطيع تذكر أي شيء! إن ذاكرتي تزداد سوءاً عاماً بعد آخر؛ لقد توصلت إلى نتيجة مفادها أن المرء لا يتذكر إلاّ أصدقاء الشباب فقط. حتى إنني أتذكر فتيات مخيفات كُنّ معي في المدرسة على الرغم من أنني لا أريد ذلك، وهذا -في الحقيقة- هو ما كنتُ بصدده في سفري.

- أين كنت؟ تزورين مدارس؟

- لا، لا. لقد ذهبت لرؤية صديقة مدرسة قديمة لم أرها منذ ثلاثين، أربعين... بل خمسين سنة أو نحو ذلك.

- وكيف وجدتها؟

- بدينة جداً، وأقذر وأكثر إثارة للرعب مما أتذكره عنها.

- أظن أنك صاحبة ذوق غريب جداً يا ماتيلدا.

- حسناً، هيا أكمل. قل لي ما الذي تريد مني تذكره؟

- لا أدري إن كنت تتذكرين صديقاً آخر لك يدعى روبرت بورتمان؟

- روبي بورتمان؟ أتذكّره بالطبع.

- ذلك الرجل العالم، العالم المرموق.

- بالطبع؛ لم يكن من النوع الذي ينساه المرء أبداً. لا أدري ما الذي جعلك تتذكره.

- الحاجة العامة.

قالت الليدي ماتيلدا: غريب ما تقوله، فقد فكرت بالأمس بنفس الأمر.

- فكرت بماذا؟

- بأن ثمة حاجة له أو لأحد مثله... إن كان ثمة أحدٌ مثله.

- لا يوجد مثله. اسمعيني يا ماتيلدا، الناس يتحدثون إليك كثيراً ويقولون لك أشياء. أنا شخصياً قلت لك أشياء.

- كنت أتساءل دائماً عن السبب، لأنك لا يمكن أن تصدق أنني سأفهم تلك الأشياء أو أستطيع وصفها، وقد كانت هذه الحالة تنطبق على روبي بورتمان أيضاً، بل أكثر من انطباقها عليك.

- لكنني لا أفشي لك أسرار البحرية.

- كما أنه لم يخبرني بأسرار علمية هو أيضاً؛ أقصد أنه كان يخبرني بطريقة عامة فقط.

- نعم، لكنه اعتاد أن يتحدث معك بشأنها، أليس كذلك؟

- كان يعجبه قول أشياء من شأنها أن تدهشني أحياناً.

- لا بأس إذن، فهذا ما أريده؛ أريد أن أعرف إن كان قد سبق له التحدث معك (عندما كان يستطيع الحديث بطريقة صحيحة) عن شيء يُدعى «المشروع ب».

فكّرت ماتيلدا: المشروع ب؟ يبدو الاسم مألوفاً بصورة غامضة. كان معتاداً على الحديث عن المشروع كذا أو المشروع كذا أحياناً أو عن العملية كذا أو غيرها، ولكن يجب أن تدرك بأنني لم أكن أفهم أي شيء من هذا، وكان هو يعلم هذه الحقيقة لكنه كان يحبّ إثارتي وإدهاشي، وكان يشرح تلك الأمور كما يمكن لساحر أن يشرح طريقة إخراج ثلاثة أرانب من قبعة دون أن تعرف كيف فعل ذلك. «المشروع ب»؟ نعم، كان ذلك منذ زمن طويل... بقي منفعلاً متحمساً جداً لفترة ما، وكنت أقول له في بعض الأحيان: كيف يسير «المشروع ب»؟

- أعرف، أعرف أنك امرأة لبقة دائماً. يمكنك أن تتذكري

دائماً ما الذي كان الناس يفعلونه أو يهتمون به، وحتى لو لم تكوني تعلمين أوليات الموضوع فقد كنتِ تُظهرين اهتماماً. لقد وصفتُ لك ذات مرة نوعاً جديداً من المدفعية البحرية، ولا بد أنك شعرت بالضجر القاتل، لكنك أصغيت إليّ بحيوية وحماسة وكأنه كان الشيء الذي تنتظرين سماعه طول حياتك.

- كما قلتَ لي الآن فأنا امرأة لبقة ومنصتة جيدة حتى وإن لم أكن شديدة الذكاء.

- إذن أريد أن أسمع قليلاً مما قاله روبي حول «المشروع ب».

- قال إنه... من الصعب جداً أن أتذكر الآن. لقد ذكره بعد أن تحدث عن عملية جراحية كانوا يُجرونها على أدمغة الناس، الناس الذين كانوا يشعرون بحالات اكتئاب كبيرة والذين كانوا يفكرون في الانتحار والذين كانوا يشعرون بالقلق الشديد... أمور كهذه مما اعتاد الناس الحديث عنه عندما يتحدثون عن فرويد. وقد قال إن الآثار الجانبية كانت لا تصدَّق؛ أقصد أن المرضى خرجوا سعداء هادئين طيّعين ولم يعودوا يشعرون بالقلق أو الرغبة في الانتحار، ولكنهم... أقصد أنهم أصبحوا لا يقلقون بما فيه الكفاية ولذلك أصبحوا يتعرضون لحوادث السيارات وغير ذلك من الأشياء المشابهة لأنهم لم يكونوا يفكرون بأي خطر ولم يكونوا ينتبهون له. لا أعرف كيف أعبّر لك لكنك تفهم ما أعنيه، وقال إن ذلك على أية حال سيكون مشكلة المشروع «ب».

- ألم يشرح لك بطريقة أكثر تفصيلاً من هذه؟

قالت ماتيلدا على نحو غير متوقع: لقد قال إنني أنا التي وضعت هذه الفكرة في رأسه.

- ماذا؟ هل تريدين أن تقولي بأن عالماً... عالماً يُشار له بالبنان مثل روبي قال لك فعلاً بأنك وضع فكرة في دماغه العلمي؟ أنت لا تعرفين ألف باء العلم.

- لا أعرف بالطبع، لكني كثيراً ما كنت أحاول وضع شيء من المنطق والتفكير السليم في رؤوس الناس. كلما كانوا أذكياء أكثر كلما ضعفت الفطرة السليمة والمنطق عندهم، أقصد أن الناس ذوي الأهمية هم أولئك الذين فكروا بأشياء بسيطة مثل اختراع الثقوب الصغيرة بين الطوابع البريدية أو كشخص مثل ذلك الذي وضع في أمريكا مادة سوداء على الطرقات حتى يتمكن المزارعون من نقل محاصيلهم كلها من المزارع إلى الساحل ويحققوا أرباحاً أفضل... أقصد أنهم يقدمون خيراً أكثر بكثير مما يقدمه العلماء العباقرة. العلماء لا يفكرون إلاّ بأشياء لتدميرك، وهذا ما قلته لروبي. لقد قلته برفق طبعاً وعلى سبيل المزاح فقط، وكان يقول لي وقتها بأن بعض الأشياء الرائعة ظهرت في مجال العلم بخصوص الحرب الجرثومية والتجارب البيولوجية وما يمكننا عمله للأجنّة في وقت مبكر من تكوّنها، كما كان يتكلم عن بعض الغازات الخطيرة والمؤذية ويقول كيف أن الناس حمقى عندما يتظاهرون ضد القنابل النووية لأنها في الحقيقة لا تُعَدّ شيئاً مقارنة ببعض الأسلحة الأخرى التي اختُرعت بعدها. ولذلك قلت له إن من المناسب جداً لو أن روبي أو شخصاً ذكياً مثله يفكر لنا بشيء معقول فعلاً.

عندها نظر إليّ وعيناه تطرفان وقال: حسناً، ما الذي تعتبرينه معقولاً؟ فقلت له: بدلاً من أن تخترع كل هذه الأسلحة الجرثومية وهذه الغازات البغيضة وغيرها لماذا لا تخترع شيئاً يجعل الناس يشعرون بالسعادة؟ وقلت له إنني لا أظن ذلك يكون أصعب من تلك الاختراعات الجهنمية. وقلت أيضاً: لقد تحدثت عن هذه العملية التي أظن أنك قلت إنها تجرى في الجهة الأمامية من الدماغ أو ربما الخلفية، لكنها على أية حال تحدث تغييراً كبيراً في أمزجة الناس وميولهم. إنه يصبحون مختلفين تماماً، إذ لا يشعرون بالقلق بعدها ولا يريدون الانتحار. ولكن إن كنت تستطيع تغيير الناس هكذا عن طريق نزع عظمة صغيرة أو عضلة أو عصب أو إصلاح غدة أو استئصالها أو زرعها... إن كنت تستطيع عمل كل هذا الاختلاف في أمزجة الناس فلمَ لا تخترع شيئاً يجعل الناس يسعدون أو ينامون مثلاً؟ افترض أنك اخترعت شيئاً ليس بالحبوب المنومة وإنما شيئاً يجعل الناس يجلسون على كرسي ويحلمون أحلاماً جميلة أربعاً وعشرين ساعة أو نحو ذلك ويستيقظون لتناول طعامهم فقط من وقت لآخر... وقلت له إن هذه الفكرة أفضل بكثير.

- وهل كان هذا هو «المشروع ب»؟

- لم يخبرني عنه بالضبط، ولكن إحدى الأفكار أثارت حماسته وقال إنني أنا التي وضعت هذه الفكرة في رأسه، ولذلك لا بد أنه شيء مفرح هذا الذي أقنعته به. أقصد أنني لم أقترح عليه أي أفكار شريرة أو وسائل لقتل الناس كما أنني لم أكن أريد حتى أن يبكي الناس... كما تفعل الغازات المسيلة للدموع. ربما كنت أريد إضحاكهم، نعم، أظن أنني ذكرت له الغازات المثيرة للضحك.

قلت له إنه بمثل هذا الغاز يمكن للمرء أن يخلع ضرسه وهو يضحك بعد أن يستنشق منه ثلاث مرات، وإنه قادر بالتأكيد على اختراع شيء مفيد كهذا على أن يكون مفعوله أطول، لأنني أعتقد أن الغاز المثير للضحك يستمر مفعوله خمسين ثانية فقط، أليس كذلك؟ لقد خلع أخي بعض أسنانه ذات يوم وكان كرسي طبيب الأسنان قريباً جداً من النافذة، وكان أخي يضحك كثيراً، أقصد عندما كان فاقداً وعيه ممّا جعله يمد ساقه ويركل بها نافذة العيادة، فسقط الزجاج المتكسر على الشارع. وقد غضب الطبيب من ذلك كثيراً.

قال الأدميرال: إن في قصصك دوماً مثل هذه التداعيات الغريبة. على أية حال ما الذي اختار روبي بورتمان القيام به من نصيحتك؟

- لا أعرف ما الذي اختاره بالضبط، أقصد أنني لا أظن أنها كانت للنوم أو للضحك. على أية حال كانت شيئاً ما، لم تكن في الحقيقة «المشروع ب» بل كان لها اسم آخر.

- وما هو؟

- لقد ذكره مرة أو مرتين، ذكر الاسم... وهو اسم يشبه طعام بينغر.

- هل هو عامل مهدئ لتسهيل الهضم؟

- لا أظن أن له علاقة بالهضم، بل أظن أنه شيء نستنشقه أو ربما كان غدة. لقد تحدثنا في أمور كثيرة جداً بحيث لا يعرف المرء عن أي شيء كان يتحدث في تلك اللحظة. طعام بينغر. بينـ... بينـ... كانت تبدأ بهذه الأحرف: «بين».

- هل هذا كل ما تتذكرينه حولها؟

- أظن ذلك. أقصد أن ذلك كان مجرد حديث تبادلناه مرة، وبعدها بوقت طويل قال لي إنني وضعت في رأسه فكرة المشروع (بينـ...) هذا. وبعد ذلك أتذكر أنني كنت أسأله من وقت لآخر إن كان ما يزال يعمل في هذا المشروع، وأحياناً كان يغضب ويقول: لا، لأن عقبة واجهت المشروع. ثم يقول إنه وضع المشروع كله جانباً لأنه كان في... لا أدري ما قال لأن الكلمات التي أعقبت ذلك كانت مجهولة تماماً لديّ ولا أذكرها، ولا أظنك تفهمها حتى لو قلتها لك. لكنه في النهاية، أعتقد... آه، يا إلهي! لقد حدث هذا كله قبل ثماني سنوات أو تسع.

وفي النهاية جاء ذات يوم وقال: هل تذكرين ذلك المشروع؟ فقلت له: بالطبع أتذكره، أما زلت تعمل فيه؟ فقال إنه عقد العزم على طرحه جانباً. قلت بأنني آسفة، آسفة لأنه تخلى عنه، فقال: المسألة ليست فقط أنني لا أستطيع الوصول إلى ما كنت أحاول الوصول إليه، أعرف الآن أنه يمكن الوصول إليه. أعرف أين أخطأت وأعرف ماذا كانت العقبة وأعرف كيف يمكن إزالة هذه العقبة، وقد أحضرت ليزا لتعمل في هذا المشروع معي. نعم، يمكن أن تنجح. قلت له: ما الذي يقلقك إذن؟ فقال: لأنني لا أعرف ما الذي سيحدث للناس حقاً نتيجة ذلك. وقلت شيئاً حول ما إذا كان يخشى أن ذلك سيقتل الناس أو يشوّههم مثلاً فأجابني: لا، الأمر ليس كذلك، إنه... آه، لقد تذكرت الآن، لقد سماه «المشروع بينفو». نعم، لقد سماه المشروع بينفو اشتقاقاً من كلمة «بينيفلنس» أي حُبّ الخير.

قال الأدميرال مدهوشاً: بينفو؟ هل تقصدين الإحسان والجمعيات الخيرية؟

- لا، لا. أظن أنه كان يقصد -ببساطة- أنك يمكن أن تجعل الناس يميلون إلى عمل الخير ويشعرون بأنهم يحبون الخير.

- تقصدين السلام وحب الخير للناس؟

- لم يقلها على هذا النحو، وقال إن الإنسان لا يعرف أبداً متى تكون الأشياء في مصلحة الناس ومتى لا تكون. تكون في مصلحته من أحد وجوهها بينما لا تكون كذلك من وجه آخر. وقد قال أشياء عن البنسلين والسلفوناميد وزراعة القلب وأشياء أخرى. إنك تعرف أن مثل هذه الأشياء تبدو أموراً حسنة، وهي أدوية رائعة ومفيدة، ثم يكون فيها أشياء تجعلها ضارة في نفس الوقت، وعندها نتمنى أنها لم تكن وأن لا تكون فكرت فيها من قبل.

هذا ما بدا أنه يحاول قوله لي، كان شيئاً يصعب فهمه. قلت له: هل هذا يعني بأنك لا تحب خوض هذه المجازفة؟ فأجابني: أنت مصيبة تماماً، فأنا لا أحب هذه المجازفة. وهذه هي المشكلة لأنني لا أعرف أبداً ماذا ستكون المجازفة. هذا ما يحدث لنا نحن العلماء المساكين الأشرار؛ إننا نجازف ولا تكون المجازفة فيما اكتشفناه، بل إنها فيما سيفعله بمكتشفاتنا أولئك الناس الذين سنضطر لإخبارهم بها.

قلت له: هل تتحدث عن الأسلحة الذرية وعن القنابل النووية؟ فقال: فلتذهب الأسلحة الذرية والقنابل النووية إلى الجحيم، لقد ذهبنا إلى أبعد من ذلك بكثير. قلت له: إذا كنت ستجعل أمزجة

الناس لطيفة هادئة وتجعلهم محبين للخير فلماذا القلق؟ فقال: أنت لا تفهمين يا ماتيلدا، لن تفهمي أبداً. وإن زملائي العلماء لن يفهموا هم أيضاً على الأغلب، كما أن أحداً من السياسيين لن يفهم أبداً. وهكذا ترين أنها مجازفة كبيرة نقوم بها، وعلى أية حال علينا أن نفكر فيها ملياً.

قلت له: لكنك تستطيع تخليص الناس من أثرها ثانية مثل الغاز المثير للضحك، أليس كذلك؟ أقصد أنك تستطيع تحويل الناس إلى حب الخير لوقت قصير ثم يعودون بعدها كأحسن ما يكون، أو كأسوأ ما يكون، اعتماداً على الطريقة التي تنظر بها إلى الأمر. فأجابني: لا، سيكون التأثير دائماً، دائماً تماماً لأنه يؤثر في...

ثم بدأ يخوض في رطانته العلمية غير المفهومة، كلمات طويلة وتغيرات في الجزيئات... أو شيء مشابه. أظن أنه شيء يشبه ما يفعلونه مع المختلّين عقلياً حتى تجعلهم غير مختلّين عن طريق إعطائهم مستحضر الخلاصة الدرقية أو نزعه منهم... نسيت أيهما الصحيح. كان شيئاً كهذا، وأظن أنه توجد غدة صغيرة في مكان ما من جسم الإنسان إذا ما انتزعتها أو أجريت لها عملية... ولكن الناس عندئذ يصبحون إلى الأبد...

قال الأدميرال: تقصدين أن نزعة الخير تصبح عندهم دائمة؟ هل أنت متأكدة من أن هذه هي الكلمة الصحيحة التي استخدمها؟ نزعة الخير؟

- نعم، لأن هذا ما جعله يختصرها بكلمة بينفو.

- ولكن ماذا كان رأي زملائه بتخليه عن المشروع؟

- لا أظن أن كثيراً منهم كان يعرف بالأمر. ليزا الفتاة النمساوية عملت معه في ذلك المشروع، وكان هناك شاب يدعى ليدينثال أو اسماً شبيهاً بهذا، لكنه مات بمرض السل. والواقع أنه تحدث وكأن الآخرين الذين عملوا معه كانوا مجرد مساعدين غير مطّلعين تماماً على ما كان يفعله أو يحاول فعله. لقد فهمت ما الذي تريد التوصل إليه، الحق أنني لا أظن أنه أخبر أحداً، أعني أنني أظن أنه أتلف معادلاته وملاحظاته وتخلى عن الفكرة كلها. ثم بعدها أصيب بسكتة دماغية وأصبح مريضاً، والمسكين الآن لا يستطيع أن يتكلم جيداً. إنه مشلول شللاً نصفياً، يستطيع أن يسمع جيداً، يسمع الموسيقى، هذه هي حياته كلها الآن.

- أتعتقدين أن حياته العملية قد انتهت؟

- إنه لا يرى حتى أصدقاءه. أعتقد أن رؤيته لهم تؤلمه، فهو يتعذر دائماً بأسباب حتى لا يستقبلهم.

قال الأدميرال بلانت: لكنه على قيد الحياة، ما زال على قيد الحياة. ألديك عنوانه؟

- إنه في دفتر عناويني. ما زال في مسكنه ذاته في شمال سكوتلاندا. ولكن... آه، أرجو أن تفهم أنه كان... كان رجلاً رائعاً. إنه ليس كذلك الآن، هو شبه ميت لا يصلح لأي غرض.

- هناك الأمل دائماً، والإيمان.

قالت الليدي ماتيلدا: ونزعة الخير أيضاً.

* * *

الفصل الحادي والعشرون
المشروع بينفو

جلس البروفسور جون غوتليب على كرسيه وهو ينظر بثبات إلى المرأة الشابة الأنيقة الجالسة مقابله. حكّ أذنه بحركة تشبه حركة القرود طالما كانت ميزة له، وكان يشبه القرود على أية حال! فك بارز ورأس عال هندسي الشكل وجسم ذاوٍ صغير.

قال البروفسور غوتليب: ليس كل يوم تُحضر لي سيدة شابة رسالة من رئيس الولايات المتحدة. ومع ذلك فالرؤساء لا يعرفون دائماً ما الذي يفعلونه بالضبط، ما سبب كل هذا؟ فهمت أنك محل ثقة في أعلى مستويات السلطة.

- لقد جئت إليك لأسألك عن الذي تعرفه أو عمّا يمكن أن تخبرني به عن شيء يدعى المشروع بينفو.

- هل أنت حقاً الكونتيسة ريناتا زيركوفسكي؟

- يمكنك أن تعتبرني كذلك من الناحية الفنية، لكنني معروفة أكثر بماري آن.

- نعم، هذا ما كتبوه لي في رسالة منفصلة. وقد جئت تريدين معرفة شيء عن المشروع بينفو. كان هناك مثل هذا المشروع لكنه الآن مات ودُفن، وأظن أن الرجل الذي فكر فيه مات هو الآخر.

- تقصد البروفسور بورتمان؟

- هذا صحيح، روبرت بورتمان. إنه أحد أعظم العباقرة في عصرنا لكنه لم يعمّر فترة كافية، إنه خسارة كبيرة للعلم.

قالت ماري آن: إنه لم يمت.

- آه، هل أنت واثقة من هذا؟ لم يسمع به أحدٌ منذ فترة طويلة.

- إنه مُعاق، وهو يعيش في شمال سكوتلاندا. إنه مشلول لا يستطيع الكلام بشكل طبيعي ولا يستطيع المشي مشياً طبيعياً، وهو يجلس معظم الوقت يستمع إلى الموسيقى.

- نعم، أستطيع تخيل هذا. أنا سعيد بهذا الخبر، إذا كان بوسعه الاستماع إلى الموسيقى فلن يكون حزيناً كثيراً، وإلاّ فإنه شيء لا يطاق لرجل ذكي لم يعد ذكياً وأصبح كالميت على كرسي العجزة.

- هل كان هناك حقاً شيء يدعى «المشروع بينفو»؟

- نعم، وقد كان متحمساً له جداً.

- وهل تحدث إليك بشأنه؟

- لقد تحدث مع البعض منّا بشأنه في الأيام الأولى. أظن أنك لست عالمة أيتها الشابة؟

- لا، إنني...

- أنت مجرد عميلة كما أظن. أرجو أن تكوني في الجانب الصحيح؛ فما زلنا مضطرين لأن نأمل بحدوث المعجزات هذه الأيام، لكني لا أعتقد أنك ستحصلين على شيء من المشروع بينفو.

- ولِمَ لا؟ لقد قلت إنه عَمِل على هذا المشروع. كان من شأنه أن يكون اختراعاً عظيماً جداً، أليس كذلك؟ أو اكتشافاً أو غيره؟

- نعم، كان من شأنه أن يكون أحد أعظم الاكتشافات في هذا العصر. لا أدري ما هو الخطأ الذي حصل. لقد حدث مثل ذلك من قبل، شيء يسير سيراً طبيعياً لكنه لا ينجح في المراحل الأخيرة، بل يفشل. لا يعطي النتائج المتوقعة منه ولذلك يستسلم صاحبه لليأس أو يفعل ما فعله بورتمان.

- وما الذي فعله؟

- أتلفه، أتلف كل شيء فيه. هو الذي أخبرني بذلك شخصياً. لقد أحرق كل المعادلات وكل الأوراق المتعلقة به وكل البيانات، وبعد ثلاثة أسابيع أصيب بسكتة دماغية. أشعر بالأسف لأنني لا أستطيع مساعدتك، لم أعرف أبداً أية تفاصيل حوله سوى فكرته العامة، حتى إنني لا أتذكرها الآن ما عدا شيئاً واحداً، وهو أن «بينفو» مختصَر لكلمة بينفولاس، أي «نزعة الخير».

* * *

الفصل الثاني والعشرون

خوانيتا

كان اللورد ألتاماونت يملي على سكرتيره. صوته الذي كان فيما مضى يصدح ويهيمن على من حوله أصبح الآن هادئاً لطيفاً وإن يكن ما يزال فيه شيء من الفتنة والجاذبية. بدا أن صوته يتسلل لطيفاً قادماً من ظلال الماضي، ولكن بدا أيضاً أن له تأثيراً عاطفياً ما كان للهجة آمرة أن تتركه.

كان سكرتيره جيمس كليك يسجل الكلمات كما يسمعها ويتوقف من وقت لآخر عندما تأتي لحظة من التردد من الذي يملي عليه فينتظر ريثما يبدأ من جديد.

قال اللورد ألتاماونت: إن المثالية يمكن أن تظهر وتنتشر (وهي في الحقيقة دائماً ما تظهر وتنتشر) عندما يحركها تناقض طبيعي مع الظلم، وما ذلك إلاّ ردة فعل طبيعية على المادية الفجة. وتتغذى المثالية الطبيعية للشباب أكثر فأكثر بالرغبة في تحطيم هذين الوجهين للحياة الحديثة: الظلم والمادية الفجة. إن هذه الرغبة في تحطيم كل ما هو شر تفضي أحياناً إلى حب التدمير من أجل التدمير فقط، وقد

تؤدي إلى الاستمتاع بالعنف وإيذاء الآخرين، ويمكن تعزيز كل ذلك وزيادته من الخارج على يد مَن وُهبوا قدرة طبيعية على القيادة. إن هذه المثالية الأصلية تظهر في مرحلة تسبق مرحلة النضج، ولا بد أن تؤدي أو يمكن أن تؤدي إلى رغبة في إنشاء عالم جديد، كما يجب أن تؤدي أيضاً إلى حب كل البشر وحب الخير لهم. ولكن أولئك الذين تعلموا حب العنف من أجل العنف لن يصبحوا ناضجين أبداً، بل سيظلون في مستواهم المتخلف طوال حياتهم.

رنّ الجرس الداخلي فأشار اللورد ألتاماونت، فرفع جيمس كليك السماعة وأصغى ثم قال: السيد روبنسن موجود هنا.

- آه، نعم، أدخله ويمكننا متابعة عملنا فيما بعد.

نهض جيمس كليك ووضع دفتر الملاحظات والقلم جانباً. ثم دخل السيد روبنسن فوضع جيمس كليك له كرسياً عريضاً يتناسب مع حجمه ليجلس عليه مرتاحاً. وابتسم السيد روبنسن شاكراً وقرّب كرسيه إلى جانب اللورد ألتاماونت.

قال اللورد ألتاماونت: حسناً، هل أحضرت أي شيء جديد؟ رسومات تخطيطية؟ دوائر؟ فقاعات؟

بدا مبتهجاً بعض الشيء. قال السيد روبنسن بهدوء: ليس ذلك بالضبط، الأمر أشبه بتحديد مسار نهر على خريطة.

- نهر؟ أي نهر؟

ردّ عليه السيد روبنسن بصوت فيه شيء من الاعتذار (وهي عادته عندما يشير إلى اختصاصه): نهر من المال، إنه حقاً كالنهر

تماماً. إن المال يأتي من مكان ما ويذهب إلى مكان آخر؛ إنه حقاً أمرٌ مثيرٌ جداً إن كنت مهتماً بهذه الأشياء. إنها تُحدّثُ عن نفسها.

بدا جيمس كليك وكأنه لم يفهم ما يسمعه لكن ألتاماونت قال: إنني أفهم ما تقوله، أكمل حديثك.

- إنه ينبع من الدول الإسكندنافية ومن بافاريا ومن الولايات المتحدة ومن جنوب شرق آسيا... وتغذيه روافد أقل شأناً خلال مسيرته.

- ثم إلى أين يذهب؟

- بشكل رئيسي إلى أمريكا الجنوبية، لتلبية مطالب قيادة الشبيبة المناضلة التي أصبحت مستقرة قوية الآن.

- وهل تمثل هذه أربعاً من الدوائر الخمس التي أوضحتها لنا سابقاً؟

- نعم؛ نعتقد أننا نعرف الآن جيداً وبدقة كبيرة مَن الذي يتحكم في هذه المجموعات المتعددة.

سأله جيمس كليك: ماذا عن الدائرة «خ»... خوانيتا؟

- لسنا متأكدين حتى الآن.

قال اللورد ألتاماونت: جيمس لديه أفكار معينة بهذا الخصوص. أرجو أن يكون مخطئاً، نعم، أرجو ذلك؛ فالحرف «خ» مثيرٌ للاهتمام. ما الذي يشير إليه هذا الحرف؟

قال جيمس: يشير إلى قاتله محترفة؛ إن نساء هذه الفصيلة أكثر فتكاً من الذكور.

اعترف ألتاماونت قائلاً: توجد سوابق تاريخية لذلك؛ فقد وضعت جاعيل الزبدة في طبق فخم أمام شيشرون وبعد ذلك غرست المسمار في رأسه، وجوديث التي قتلت هولوفيرنس ونالت استحسان أبناء شعبها على هذا العمل... نعم، ربما كان فيما تقوله نظر.

قال السيد روبنسن: إذن فأنت ترى أنك تعرف من تكون خوانيتا هذه؟ هذا مثير.

- قد أكون مخطئاً يا سيدي، ولكن حدثت بعض الأمور التي جعلتني أفكر.

قال السيد روبنسن: نعم، علينا جميعاً أن نفكر، أليس كذلك؟ من الأفضل أن تقول رأيك فيمن تكون هذه يا جيمس.

- الكونتيسة ريناتا زيركوفسكي.

- وما الذي جعلك تختارها؟

- الأماكن التي كانت فيها والناس الذين تتصل بهم. ثمة الكثير من المصادفات في الطريقة التي كانت تظهر فيها في أماكن مختلفة. لقد كانت في بافاريا حيث كانت تزور شارلوت الضخمة هناك، والأدهى من ذلك أنها أخذت معها ستافورد ناي. أظن أن لهذا الأمر دلالته.

سأله ألتاماونت: هل تعتقد أنهما متواطئان في هذا الأمر معاً؟

- ما كنت لأحب قول ذلك، كما أنني لا أعرف عنه بما فيه الكفاية ولكن...

ثم سكت، فقال اللورد ألتاماونت: نعم، كانت توجد شكوك حوله. لقد تم الاشتباه به من البداية.

- من قِبَل هنري هورشام؟

- قد يكون هنري هورشام واحداً من عدة أشخاص. أظن أن الكولونيل بايكواي ليس واثقاً، لقد وُضع تحت المراقبة، وربما يعرف هذا أيضاً فهو ليس بالأحمق.

قال جيمس كليك بفظاظة: واحدٌ آخر منهم! غريب كيف نربيهم وكيف نثق بهم ونكشف لهم أسرارنا ونظل نردد قائلين: إن كان ثمة شخص نثق فيه تماماً فهو ماكلين أو بيرجس أو فيلبي، أو أي من تلك العصبة... والآن لدينا ستافورد ناي. هناك موضوع مطار فرانكفورت الغريب وزيارة شارلوت، وأحسب أن ستافورد ناي كان معها في جنوب أمريكا منذ ذلك الحين. وبالنسبة لها شخصياً... هل نعرف أين هي الآن؟

قال اللورد ألتاماونت: أعتقد أن السير روبنسن يعرف. هل تعرف مكانها يا سيد روبنسن؟

- إنها في الولايات المتحدة. لقد سمعت أنها أقامت مع أصدقاء لها في واشنطن أو قريباً منها ثم ذهبت إلى شيكاغو ثم إلى كاليفورنيا، وأنها ذهبت لزيارة عالم مشهور. هذا آخر ما سمعته.

- وماذا تفعل هناك؟

قال السيد روبنسن بصوته الهادئ: أظن أنها كانت تحاول الحصول على معلومات.

- أي معلومات؟

تنهد السيد روبنسن وقال: هذا ما نتمنى أن نعرفه. أظن أنها نفس المعلومات التي كنّا نحن مهتمين بالحصول عليها وأنها تقوم بذلك نيابة عنّا، ولكن لا أحد يدري، فقد تكون تريد الحصول عليها لصالح الطرف الآخر.

ثم التفت لينظر إلى اللورد ألتاماونت وقال: علمت أنك مسافر الليلة إلى إسكتلندا، هل هذا صحيح؟

- صحيح.

قال جيمس كليك: لا أظن أن عليه القيام بهذه الرحلة.

ثم التفت إلى رئيسه بوجه قلق وقال: إن صحتك لم تكن على ما يرام في الفترة الأخيرة يا سيدي، وستكون رحلة متعبة جداً مهما كانت وسيلة السفر، طائرة أم قطاراً. ألا يمكنك ترك هذا الأمر إلى مونرو وهورشام؟

قال اللورد ألتاماونت: في مثل سني فإن الاعتناء بالصحة مضيعة للوقت. إذا كنت أستطيع أن أكون مفيداً فإنني أريد الموت في روتين العمل.

ثم ابتسم للسيد روبنسن وقال: من الأفضل أن تأتي معنا يا روبنسن.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

رحلة إلى إسكتلندا

تساءل قائد السرب قليلاً عن سبب هذا كله. كان معتاداً على أن يُترك غير مُطّلع على بعض حقائق الرحلات التي يقوم بها، وافترض أن هذه الرحلة تخص الأمن حيث لا يُسمح بالمجازفة. لقد قام بمثل هذا العمل من قبل أكثر من مرة؛ قيادة طائرة فيها أناس إلى مكان لا يتصوره أحد مع ركاب غير متوقعين والحذر من سؤالهم أي سؤال إلاّ إذا تعلق بمجريات الرحلة.

وكان يعرف بعض ركابه في هذه الرحلة وليس كلهم. كان يعرف اللورد ألتاماونت، وأحسّ أنه رجل عليل، مريض جداً لا يبقيه حياً إلاّ قوة إرادته. أما الرجل القوي صاحب الوجه الذي يشبه الصقر فقد افترض أنه حارسه الشخصي. إنه يقوم على صحته وراحته أكثر من قيامه على سلامته، إنه كلب وفيٌّ لا يترك سيده أبداً، وهو يحمل معه بالتأكيد المنشطات والمنبهات وكل الأدوية الأخرى ذات المفعول السحري. وتساءل قائد السرب عن سبب عدم وجود طبيب بين المجموعة، إذ إن وجود الطبيب من شأنه أن يكون احتياطاً إضافياً. كان الرجل العجوز يبدو هيكلاً عظيماً،

هيكلاً عظيماً جليلاً، كشيء مصنوع من رخام في أحد المتاحف. أما هنري هورشام فكان قائد السرب يعرفه جيداً، كان يعرف العديد من أفراد الأمن، والكولونيل مونرو كان يبدو أقل عنفاً وغلظة مما هي عادته ويلوح عليه شيء من القلق، ولم يكن -إجمالاً- سعيداً جداً. كان هناك أيضاً رجل ضخم الجسم أصفر الوجه. قد يكون أجنبياً، آسيوياً؟ ماذا يفعل في طائرة متجهة إلى شمال إسكتلندا؟

قال قائد السرب مخاطباً الكولونيل مونرو باحترام شديد: كل شيء جاهز يا سيدي؛ السيارة هنا في الانتظار.

- كم تبعد المسافة بالضبط؟

- سبعة عشر ميلاً يا سيدي، طريق وعرة لكنها ليست بالسيئة كثيراً، وتوجد في السيارة بطانيات إضافية.

- هل تلقيت التعليمات؟ أرجو أن تعيدها على مسامعي من فضلك يا كابتن أندروز.

كرّر قائد السرب التعليمات، وكان الكولونيل يهز رأسه راضياً. وبينما كانت السيارة تنطلق تابعها الكابتن بنظراته وهو يتساءل في نفسه: لماذا يأتي هؤلاء الناس في هذه الرحلة إلى منطقة سبخة منعزلة حيث توجد قلعة قديمة مهيبة يعيش فيها رجل مريض كناسك دون أصدقاء أو زوار بمعنى زوار؟ وافترضَ بأن هورشام يعرف ذلك؛ لا بد أن هورشام يعرف الكثير من الأشياء الغريبة. آه، من غير المحتمل أن يخبره هورشام بأي شيء.

سارت السيارة بتمهّل، وفي نهاية المطاف وصلت إلى طريق

يكثر فيه الحصى وتوقفت أمام مدخل مسقوف. كان المبنى ذا أبراج من حجارة ثقيلة، وكانت المصابيح معلقة على جانبَي الباب الضخم، وقد فُتح الباب قبل أن يحتاج الزوار إلى قرع الجرس أو طلب الدخول.

وقفت بالباب عجوز إسكتلندية في نحو الستين من عمرها ذات وجه عابس صارم الملامح، وساعد السائق ركاب السيارة في الخروج.

قام جيمس كليك وهورشام بمساعدة اللورد ألتاماونت في الترجّل من السيارة وصعود الدرجات، فيما وقفت العجوز الإسكتلندية جانباً وأومأت له باحترام وقالت: مساء الخير أيها اللورد، سيدي في انتظاركم. إنه يعلم عن وصولكم وقد أعددنا لكم غرفاً كما أعددنا النار للتدفئة لكم جميعاً.

كان في الصالة في تلك اللحظة امرأة أخرى، امرأة بين الخمسين والستين من عمرها طويلة القامة نحيفة الجسم، وما زالت الوسامة بادية عليها. كانت تفرق شعرها الأسود من منتصفه وكانت عالية الجبهة مقوسة الأنف. وقالت العجوز: هذه الآنسة نيومان التي ستعتني بك.

قالت الآنسة نيومان: شكراً لك يا جانيت، تأكدي من أن نار المواقد مشتعلة في غرف النوم.

- سأفعل.

حيّاها اللورد ألتاماونت قائلاً: مساء الخير يا آنسة نيومان.

- مساء الخير أيها اللورد، أرجو أن لا تكون قد تعبت من رحلتك.

- كانت رحلتنا في الطائرة جيدة. هذا هو الكولونيل مونرو، الآنسة نيومان. وهذا هو السيد روبنسن والسير جيمس كليك والسيد هورشام من دائرة الأمن.

- أظن أنني أتذكر السيد هورشام منذ سنوات.

قال هنري هورشام: لم أنسَ ذلك. كان لقاء في مؤسسة ليفسن، وأظن أنك كنت سكرتيرة البروفسور بورتمان في ذلك الوقت؟

- كنت أولاً مساعدته في المختبر ثم سكرتيرته بعد ذلك، وما زلت سكرتيرته عند الحاجة، كما أنه مضطر للاحتفاظ بممرضة تلازمه وتعيش هنا بصفة دائمة تقريباً. ولا بد من التغيير من وقت لآخر، فالآنسة إيليس الموجودة هنا الآن استلمت عملها من الآنسة بود منذ يومين فقط، وقد اقترحت عليها أن تبقى قريبة من الغرفة التي سنكون فيها. لقد فكرتُ أنكم ستفضلون البقاء بمفردكم دون تطفل، ولكنني فكرت أيضاً بأنه يجب أن تكون قريبة بحيث تلبي نداءكم إذا ما احتجتم إليها.

سألها الكولونيل مونرو: هل صحته سيئة جداً؟

قالت الآنسة نيومان: الواقع أنه لا يعاني من آلام، ولكن يجب أن تعدّ نفسك للقائه إن لم تكن قد رأيته منذ زمن طويل؛ لم تبقَ منه إلاّ بقية رجل.

- لحظة واحدة فقط قبل أن تأخذينا إليه. بالنسبة لقواه الذهنية، هل تضاءلت أم يمكنه أن يفهم ما نقوله له؟

- آه، نعم، يستطيع أن يفهم بشكل تام، ولكن بما أنه نصف مشلول فإنه لا يستطيع الكلام بوضوح كبير، على الرغم من أن هذا يختلف من وقت لآخر، كما أنه لا يستطيع المشي بلا مساعدة. إن عقله ما زال جيداً كما كان، الفرق الوحيد هو أنه يتعب الآن بسرعة. هل تودّون الراحة قليلاً قبل الدخول عليه؟

قال اللورد ألتاماونت: لا، لا أريد الانتظار. إن هذه مسألة عاجلة جئنا من أجلها، ولذلك أرجو أن تأخذينا إليه. علمت أنه ينتظر حضورنا؟

قالت ليزا نيومان: إنه ينتظر حضوركم، نعم.

ثم قادت الآنسة نيومان المجموعة صاعدة إلى الطابق العلوي ثم على طول الممر حتى وصلت أحد الأبواب وفتحته. كانت الغرفة متوسطة الحجم فيها سجاد مزخرف معلق على الجدار ورؤوس حيوانات الأيل تطل عليها من أعلى، فقد كان المنزل في وقت من الأوقات مأوى للصيادين ولم يتغير أثاثه وترتيبه العام إلاّ قليلاً. كان هناك في أحد جوانب الغرفة جهاز تسجيل كبير، وكان رجل طويل القامة جالساً على كرسي قرب النار. كان رأسه يرتعش قليلاً وكذلك يده اليسرى، وكان جلد وجهه مجعّداً على أحد الجوانب. وقصارى القول أنه لا يمكن للمرء وصفه إلاّ بأنه حطام رجل. رجل كان فيما مضى طويل القامة قوي البنية صلباً وله جبهة جميلة وعينان غائرتان وذقن بارز يوحي بالعزيمة، وكان الذكاء يشع من عينيه.

قال شيئاً ما. ولم يكن صوته ضعيفاً، فقد كان يصدر أصواتاً واضحة إلى حد بعيد ولكنها لم تكن مفهومة دائماً، ولم يكن قد فقد القدرة على الكلام إلاّ جزيئاً وبقي قادراً على الإفهام.

ذهبت ليزا نيومان لتقف إلى جانبه تراقب شفتيه حتى تستطيع تفسير ما يقوله إن لزم الأمر.

قالت: البروفسور بورتمان يرحب بكم. إنه سعيد جداً لرؤيتكم هنا يا لورد ألتاماونت وأيها السادة، ويريد مني أن أقول لكم إن حاسته السمعية جيدة إلى حد معقول. إنه سيسمع أي شيء تقولونه له، وإذا ما ظهرت أي صعوبة فبإمكاني المساعدة. إن ما يريد قوله لكم سينقله من خلالي، وإذا ما أحس بتعب لا يستطيع معه النطق فيمكنني قراءة حركة شفتيه، كما أننا نتحادث -إذا ظهرت أية صعوبة- بلغة إشارات أتقنّاها تماماً.

قال الكولونيل مونرو: سأحاول أن لا أتعبك قدر الإمكان يا بروفسور بورتمان.

أمال الرجل الجالس على الكرسي رأسه علامة على استيعابه للكلمات.

- بعض الأسئلة يمكنني توجيهها إلى الآنسة نيومان.

امتدت يد بورتمان بإشارة ضعيفة نحو السيدة الواقفة إلى جانبه، وخرجت الأصوات من شفتيه ومرة أخرى لم تكن مفهومة تماماً لهم، لكنها تُرجمت بسرعة.

- يقول إنه يستطيع الاعتماد عليّ في ترجمة أي شيء تودون قوله له أو منه إليكم.

قال الكولونيل مونرو: أظن أنك تلقيت رسالتي في وقت سابق؟

قالت الآنسة نيومان: هذا صحيح. لقد استلم البروفسور بورتمان رسالتك ويعرف مضمونها.

فتحت البابَ ممرضةٌ فتحة صغيرة لكنها لم تدخل، وتكلمت بصوت هامس: هل يوجد أي شيء يمكن إحضاره أو عمله لكم يا آنسة نيومان؟ لأي من الضيوف أو للبروفسور بورتمان؟

- لا أظن أن لذلك حاجة، شكراً لك يا آنسة إيليس، سأكون سعيدة لو جلست في غرفة جلوسك عبر الممر لتكوني قريبة إن احتجنا إليك.

- بالتأكيد، أفهم هذا جيداً.

ثم أغلقت الباب بهدوء وذهبت.

قال الكولونيل مونرو: لا نريد إضاعة الوقت؛ لا شك أن البروفسور بورتمان مواكب للشؤون الجارية.

قالت الآنسة نيومان: إنه على اطلاع تام بقدر ما يهمه ويعنيه.

- أما زال مواكباً للتطورات العلمية وغير ذلك؟

هز روبرت بورتمان رأسه من جانب إلى آخر بحركة خفيفة، وأجاب بنفسه: لقد انتهيت من هذا كله.

- لكن تعرف بشكل عام الحالة التي يعيشها العالم؟ نجاح ما يسمى بثورة الشباب واستيلاء قوى الشباب على السلطة.

قالت الآنسة نيومان: إنه على صلة تامة بكل ما يجري، أعني من الناحية السياسية.

- إن العالم الآن نهبٌ للعنف والألم والمعتقدات الثورية، فلسفة غريبة لا تصدق لحكم الأقلية الفوضوية.

بدت على وجه الرجل المريض ملامح باهتة من نفاد الصبر. ثم قال السيد روبنسن وقد تكلم على نحو غير متوقع: إنه يعرف كل هذا فلا حاجة لتكرار الكثير من الأشياء مرة أخرى، إنه رجل يعرف كل شيء.

قال: هل تعرف الأدميرال بلانت؟

مرة أخرى أحنى الرجل رأسه وظهر على شفتيه المزمومتين ما يشبه الابتسامة.

- الأدميرال بلانت يتذكر بعض الأعمال العلمية التي قمت بها بخصوص مشروع معين... أعتقد أنه المشروع الذي تسميه المشروع بينفو.

ظهرت في عين الرجل نظرات اليقظة والخوف، وقالت الآنسة نيومان: المشروع بينفو؟ إنك تعود إلى الوراء زمناً بعيداً يا سيد روبنسن.

قال السيد روبنسن: لقد كان المشروع مشروعك، أليس كذلك؟

قالت الآنسة نيومان نيابة عنه: نعم، كان مشروعه.

- نحن لا نستطيع استخدام الأسلحة النووية ولا المتفجرات أو الغازات أو المواد الكيماوية، ولكننا نستطيع استخدام مشروعك، المشروع بينفو.

ختم الصمت على الغرفة ولم يتكلم أحد، ثم خرجت من شفتَي البروفسور بورتمان الأصوات الغريبة المشوَّهة. قالت الآنسة نيومان: يقول إنه يمكن بالطبع استخدام بينفو بنجاح في الظروف التي نجد فيها أنفسنا...

كان الرجل الجالس على كرسيه قد التفت إليها وبدأ يقول لها شيئاً. قالت الآنسة نيومان: يريد مني شرح المسألة لكم. إن المشروع «ب» (الذي سُمي بالمشروع بينفو فيما بعد) قد عمل البروفسور على تنفيذه لسنوات عديدة، لكنه تخلى عنه في النهاية لأسباب خاصة به.

- ألأنه فشل في جعل مشروعه يتحقق؟

أجابت ليزا نيومان: لا، إنه لم يفشل، نحن لم نفشل. لقد عملت معه في هذا المشروع، ولقد تخلى عنه لأسباب معينة لكنه لم يفشل، بل نجح. كان يسير في الطريق الصحيح، وقد طوره وقام بتجربته في عدة مختبرات وأثبت نجاحه.

ثم التفتت إلى البروفسور بورتمان ثانية وقامت ببعض الحركات بيدها وكانت تلمس شفتيها وأذنها وفمها في إشارات رمزية غريبة. ثم قالت: كنت أسأله إن كان يريد مني توضيح ما يفعله بينفو.

- نرجو منك أن توضّحي لنا.

- لكنه يريد أن يعرف كيف علمتم به.

قال الكولونيل مونرو: لقد علمنا بشأنه -يا بروفسور بورتمان- من خلال صديق قديم لك. ليس الأدميرال بلانت فهو لا يستطيع أن يتذكر كثيراً، ولكن من شخص آخر تكلمت معه مرة حول هذا الموضوع، والواقع إنها الليدي ماتيلدا كليكهيتون.

التفتت الآنسة نيومان إليه مرة أخرى وراقبت حركة شفتيه، ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت: يقول إنه كان يعتقد أن ماتيلدا ماتت منذ سنوات طويلة.

- إنها أقوى من حصان، وهي التي أرادت منّا أن نعرف عن اكتشاف البروفسور بورتمان هذا.

- سيقول لكم البروفسور بورتمان النقاط الرئيسية لما تريدون معرفته، على الرغم من أنه يجد لزاماً عليه أن يحذّركم بأن هذه المعرفة ستكون عديمة الفائدة لكم؛ فقد تم إتلاف كل أوراق ومعادلات وحسابات وبراهين هذا الاكتشاف. ولكن بما أن الطريقة الوحيدة للرد على أسئلتكم هي أن تعلموا الخطوط العامة للمشروع بينفو فإنني أستطيع أن أخبركم بوضوح تام عن محتوياته: أنتم تعلمون استخدامات الغاز المسيل للدموع وهدفه، كما يستخدمه الشرطة للسيطرة على الجموع التي تسبب الشغب ومظاهرات العنف وغيرها. إنه يُحدث نوبة من البكاء والدموع المؤلمة والتهابات في الجيوب الأنفية.

- وهل هذا الاكتشاف من النوع نفسه؟

- لا، لا يوجد أي شبه بينهما، ولكن يمكن أن يكون له الغرض ذاته. لقد خطر لعقول العلماء أن الواحد منهم يستطيع ليس فقط تغيير ردود فعل الناس الرئيسية ومشاعرهم ولكن خصائصهم الذهنية أيضاً؛ يمكنك أن تغيّر شخصية الرجل. وهناك أدوية عديدة أو غازات عديدة أو عمليات في الغدد... إن أيّاً من هذه الأشياء يمكنه أن يؤدي إلى تغيير في نشاطك الذهني ويزيد من الطاقة عن طريق تغيرات في الغدة الدرقية. ويرغب البروفسور بورتمان في أن يقول لكم إن هناك عملية معينة... لن يقول لكم الآن إن كانت متعلقة بالغدد أم أنها غاز يمكن تصنيعه، ولكن هناك شيئاً يمكنه تغيير نظرة الرجل إلى الحياة وردود أفعاله إزاء الناس والحياة بشكل عام. قد يكون في حالة من الغضب المؤدي إلى القتل وقد يكون عنيفاً عنفاً مرضياً، ومع ذلك فإنه عن طريق تأثير المشروع بينفو يتحول إلى شيء أو بالأحرى إلى شخص مختلف تماماً. إنه يصبح ميالاً لعمل الخير وحبه، وهي الكلمة الوحيدة التي تجسّد هذا التأثير، وهي التي استمدّ المشروع منها اسمه. تصبح للإنسان الرغبة في إفادة الآخرين ونفعهم ويفيض حباً ووداً، إنه يرتعب من إحداث ألم للآخرين أو من استخدام العنف معهم. ويمكن إطلاق بينفو على منطقة كبيرة ويمكنه التأثير على المئات بل الآلاف من الناس إذا ما تم تصنيعه بكميات كبيرة كافية وإذا ما تم توزيعه بنجاح.

قال الكولونيل مونرو: وكم يطول مفعوله؟ أربعاً وعشرين ساعة؟ أطول من ذلك؟

قالت الآنسة نيومان: أنت لا تفهمني... إنه دائم.

- دائم؟! لقد غيّرتَ طبيعة إنسان واستبدلت أحد مكوناته، أحد مكوناته الفيزيائية طبعاً، مما أدى إلى إحداث اختلاف دائم في طبيعته، ثم لا يمكنك أن تعيده إلى حالته الأولى؟ لا يمكنك أن تعيده إلى ما كان عليه؟

- نعم، ربما كان ذلك اكتشافاً يهم الحقل الطبي أكثر من غيره في البداية، لكن البروفسور بورتمان رأى فيه رادعاً يمكن استخدامه في الحروب وفي الانتفاضات الجماهيرية وأعمال الشغب والثورات وأعمال الفوضى. إنه لم يفكر فيه باعتباره اكتشافاً طبياً فقط، فهو لا يُحدث سعادة لدى من يتعرض له، إنما يؤدي إلى إحداث رغبة لديه في جعل الآخرين يعيشون في سعادة. إنه يقول إنه مفعول يشعر به كل واحد في وقت معين من حياته؛ تتكوّن لديه رغبة عارمة في جعل شخص ما أو مجموعة أشخاص مرتاحين وسعداء وفي صحة جيدة... وبما أن الناس يمكنهم أن يشعروا بهذه الأشياء فقد كنا واثقين من أن في أجسامهم عنصراً يتحكم بتلك الرغبة، وإذا ما نشّطتَ ذلك العنصر مرة فإنه سيعمل إلى الأبد.

قال السيد روبنسن: رائع.

كان يتكلم متأملاً أكثر من كونه متحمساً.

- رائع، إنه اكتشاف رائع! يا له من اكتشاف يمكن تطبيقه لو... ولكن لماذا؟

التفت البروفسور الجالس على كرسيه إلى السيد روبنسن.

قالت الآنسة نيومان: إنه يقول إنك تفهم أكثر من الآخرين.

قال جيمس كليك: لكنه الحل؛ إنه الحل المثالي. هذا عظيم!

كان الانفعال ظاهراً على وجهه، وهزّت الآنسة نيومان رأسها وقالت: المشروع بينفو ليس للبيع وليس للإهداء، لقد تم التخلي عنه.

قال الكولونيل مونرو غيرَ مصدق: هل تريدين أن تقولي لنا إن الإجابة هي لا؟

- نعم، البروفسور بورتمان يقول إن الإجابة هي «لا». لقد قرّر أن ذلك مخالف لـ...

سكتت دقيقة والتفتت لتنظر إلى الرجل الجالس على كرسيه، قام بإيماءة برأسه ويده وصدرت عنه بعض الكلمات غير المفهومة، وانتظرت قليلاً ثم أضافت تقول: سيخبركم بنفسه. لقد كان خائفاً، خائفاً مما فعله العلم عندما تطور. الأشياء التي تم اكتشافها ومعرفتها وقُدّمت إلى العالم: العقاقير العجيبة الرائعة التي لم تكن رائعة دائماً، البنسلين الذي أنقذ حياة الناس والبنسلين الذي قضى على حياة الناس، عمليات زراعة القلب التي أحدثت خيبة أمل من وفيات غير متوقعة... لقد عاش في فترة الانشطار النووي والأسلحة الحديثة الفتاكة ولمس مآسي الإشعاعات والتلوثات التي أحدثتها الاكتشافات الصناعية الجديد. لقد كان خائفاً مما يمكن للعلم أن يفعله في حال استخدامه بلا تمييز.

صاح مونرو: لكن في هذا فائدة ومنفعة، منفعة للجميع.

- وكذلك كان الكثير من الأشياء، كلها يتم الترحيب بها كونها ذات منافع كبيرة للبشرية، ثم تأتي الآثار الجانبية. وأسوأ من هذا كله حقيقة أنها لا تُحدث منفعة في بعض الأحيان بل كارثة، ولذلك فقد قرر التخلي عن المشروع. إنه يقول...

بدأت تقرأ من ورقة كانت تحملها بينما جلس البروفسور إلى جانبها وهو يومئ برأسه علامة قبوله لما تقول. قالت وهي تقرأ: إنني راضٍ عن قيامي بما شرعت في عمله وتوصلي إلى اكتشافي، لكنني قررت عدم وضعه قيد التداول. لا بد من تحطيمه وإتلافه، ولذلك تم إتلافه بالفعل. ولذا فإن الرد عليكم هو: لا؛ ليس هناك نزعة خير تُعطى لكل وارد. كان يمكن لذلك أن يحدث ذات يوم، أما الآن فإن كل المعادلات والخبرات المكتسَبة ومذكراتي ووصفي للإجراءات الضرورية لهذا العمل قد ذهبت كلها. أحرقتها وأصبحت رماداً... لقد دمّرتُ كل أفكاري.

جاهد روبرت بورتمان نفسه وهو يتكلم بصعوبة وبصوت أجش: لقد دمّرتُ كل أفكاري، ولا أحد في هذا العالم يعرف كيف توصلت إلى اختراعي. رجل واحدٌ ساعدني لكنه مات، لقد مات بمرض السل بعد سنة من نجاحنا. يجب أن ترحلوا فلا أستطيع مساعدتكم.

- لكن هذه المعرفة التي عندك تعني أن باستطاعتك إنقاذ العالم!

أصدر الرجل الجالس على كرسيه صوتاً غريباً، هو صوت ضحكة، ضحكة رجل مقعد.

- أنقذ العالم؟ أنقذ العالم؟! يا لها من عبارة! هذا ما يرى شبابكم أنهم فاعلوه؛ إنهم يسيرون قُدماً في أعمال العنف والكراهية لكي ينقذوا العالم، لكنهم لا يعرفون كيف! سوف يتوجب عليهم أن يقوموا بذلك بأنفسهم، من كل قلوبهم وعقولهم. لا يمكننا إعطاؤهم طريقة صناعية لفعلها؛ لا، طيبة مصطنَعة؟ لطفٌ مصطنَع؟ لا شيء من هذا، لن يكون ذلك حقيقياً. لن يعني ذلك شيئاً، سيكون مخالفاً للطبيعة.

ثم قال ببطء: مخالفاً لإرادة الله.

خرجت الكلمتان الأخيرتان من غير توقع وقالهما بصوت واضح. ثم نظر إلى مستمعيه من حوله وكأنه يناشدهم أن يفهموه، دون أن يكون لديه -في الوقت نفسه- أي أمل حقيقي في فهمه.

- لقد كنت أملك الحق في إتلاف ما اخترعته.

قال السيد روبنسن: أشك في ذلك كثيراً؛ فالمعرفة هي المعرفة.

- لك الحق في أن ترى ما تشاء، ولكن عليك أن تقبل الحقيقة.

قال السيد روبنسن: لا.

كانت كلمة قالها بكل قوته، فالتفتت ليزا نيومان إليه غاضبة وسألته: ماذا تعني بقولك هذا؟

كانت عيناها تلتمعان، وأحسّ السيد روبنسن أنها ربما كانت تحب روبرت بورتمان طوال حياتها، ربما أحبته وعملت معه، والآن

تعيش بجانبه وتساعده بعقلها وتخلص له إخلاصاً نقياً لا يشوبه إحساسٌ بالشفقة.

قال السيد روبنسن: ثمة أشياء يعرفها المرء من خلال مسيرة حياته. لا أظن أن حياتي ستكون طويلة...

ثم تنهد وقال وهو ينظر إلى جسمه: إنني أحمل جسماً ثقيلاً، لكني أعرف بعض الأمور. أنا على حق يا بورتمان، وعليك أيضاً أن تعترف أنني على حق. أنت رجل أمين وشريف، ولذلك ما كنت لتتلف عملك، ما كنت لتحمل نفسك على هذا الفعل. إنك تحتفظ بمشروعك في مكان ما؛ لقد أقفلت عليه، خبّأته في مكان أمين. قد لا يكون في هذا البيت، ولسوف أخمّن (وهو مجرد تخمين) بأنك تحتفظ به في خزنة ودائع في أحد البنوك، وهي تعرف أنك تحتفظ به هناك، فأنت تثق بها. إنها الإنسانة الوحيدة التي تثق بها في هذا العالم.

قال بورتمان وكان صوته هذه المرة مميزاً واضحاً تقريباً: ومن تكون أنت؟ من تكون؟

قال السيد روبنسن: أنا مجرد رجل يعرف عن المال وعن الأشياء التي تتفرع عن المال؛ الناس وخصائصهم المزاجية وممارساتهم في الحياة. إن بوسعك -إن رغبت- أن تضع يدك على العمل الذي تخليت عنه، وأنا لا أقول إنك تستطيع القيام بنفس العمل الآن، لكني أعتقد أن عملك كله محفوظ في مكان ما. لقد قلتَ لنا آراءك، ولن أزعم بأنها خاطئة كلها، فقد تكون على حق. إن تقديم المنافع للبشرية مسألة مُضلّلة خادعة. مسكين

العجوز بيفيردج إذ كان يدعو إلى التحرر من الحاجة والفاقة والتحرر من الخوف. لقد ظن أنه كان يصنع جنة على الأرض بقوله هذا وبالتخطيط لهذا العمل وتنفيذه، لكن عمله لم يؤدّ إلى جنة على الأرض، كما لا أظن أن مشروعك بينفو (الذي يوحي اسمه بأنه براءة اختراع لطعام ما) سيحوّل الأرض إلى جنة. إن لنزعة الخير مخاطرَها هي الأخرى مثل أي شيء آخر. إن ما سيفعله هو توفير الكثير من المعاناة والألم والفوضى والعنف والعبودية للمخدرات. نعم؛ سوف يجنّبنا الكثير من الأشياء السيئة ويمنعها من الحدوث، وقد يوفّر لنا شيئاً كان مهماً، إذ ربما (وربما فقط) أدّى إلى تغيير في حياة الناس وفي حياة الشباب. إن مشروعك هذا سيجعل الناس نزّاعين إلى الخير، وربما أعترفُ لك بأنه سيجعلهم أيضاً عاطفين على من هم دونهم وراضين عن أنفسهم وسعداء بها، ولكن هناك احتمالاً آخر أيضاً بأنك إذا غيّرتَ طبائع الناس بالقوة واضطروا إلى الاستمرار في استخدام هذه الخاصية المستحدَثة حتى وفاتهم فقد يكتشف واحدٌ أو اثنان منهم (وليس الكثير) إن بداخله نداء طبيعياً للقيام بما كانوا أساساً مرغمين على فعله، والقيام به بتواضع وليس بتكبّر. أعني أنهم يغيرون أنفسهم حقاً قبل موتهم، إذ لا يكون بوسعهم التحرر من عادة جديدة تعلموها.

قال الكولونيل مونرو: إنني لا أفهم شيئاً مما تتحدثون عنه.

قالت الآنسة نيومان: إنه يتكلم كلاماً لا معنى له. عليك أن تتقبل ردّ البروفسور بورتمان؛ إنه سيفعل ما يشاء باكتشافاته ولا يمكنك إجباره على شيء.

قال اللورد ألتاماونت: نحن لن نجبرك أو نعذبك أو نكرهك على كشف مخابئك يا روبرت، بإمكانك أن تفعل ما تراه صواباً، هذه مسألة متفق عليها.

قال روبرت بورتمان: إدوارد؟

ثم خانه كلامه مرة أخرى، وتحركت يداه ليشير بهما فأسرعت الآنسة نيومان إلى الترجمة.

- إدوارد؟ إنه يسأل: هل أنت إدوارد ألتاماونت؟

تكلم بورتمان ثانية فأخذت الحديث عنه: إنه يسألك -يا لورد ألتاماونت- إن كنت تطلب منه بشكل قاطع ومن كل قلبك وعقلك أن يضع المشروع بينفو تحت تصرفك. إنه يقول...

سكتت وهي ترقبه وتصغي إليه، ثم قالت: يقول إنك الرجل الوحيد في الحياة العامة الذي يثق فيه، فإذا كانت رغبتك أنت...

فجأة وقف جيمس كليك على قدميه، وبسرعة البرق صار بجانب كرسي اللورد ألتاماونت وقال: دعني أساعدك في الوقوف يا سيدي؛ فأنت مريض ولست في صحة جيدة. أرجو أن ترجعي إلى الوراء قليلاً يا آنسة نيومان. يجب... يجب أن أصل إليه. إنني أحمل علاجاً معي وأعرف ما ينبغي عليّ عمله.

أدخل يده في جيبه وأخرجها ثانية ممسكاً بحقنة، وقال: ما لم يأخذ هذه فوراً فسيكون الوقت قد فات.

كان قد أمسك بذراع اللورد ألتاماونت ورفع كُمَّه وأمسك

بجلده بين أصابعه، ثم رفع الإبرة يريد حقنها في جلده. لكن شخصاً آخر تحرك؛ كان هورشام قد اجتاز الغرفة ودفع الكولونيل مونرو جانباً وقبض بيده على يد جيمس كليك وأبعد الإبرة. وقاومه كليك لكن هورشام كان أقوى من مقاومة كليك، ثم وصل مونرو هناك أيضاً.

قال: إذن فهو أنت يا جيمس كليك؟ أنت هو الخائن، التابع الوفي الذي لم يكن تابعاً وفياً.

كانت الآنسة نيومان قد ذهبت إلى الباب، ففتحته ونادت: أيتها الممرضة، تعالي بسرعة، تعالي.

جاءت الممرضة ونظرت إلى البروفسور بورتمان نظرة سريعة، لكنه هزّ رأسه وأشار إلى حيث كان هورشام ومونرو يمسكان بكليك الذي يحاول التخلص منهما.

أدخلت يدها في جيبها، وهتف هورشام متلعثماً: إنه ألتاماونت... نوبة قلبية.

صاح مونرو: أي نوبة قلبية هذه؟ إنها محاولة قتل.

ثم قال يخاطب هورشام: "أمسك الرجل"، وقفز إلى الناحية الأخرى من الغرفة.

- سيدة كورتمان؟ منذ متى بدأت العمل بالتمريض؟ لقد فقدنا أثرك منذ أن هربت منّا في بالتيمور.

كانت ميلي جين ما تزال تعالج جيبها وكأن شيئاً قد علق فيه،

ثم أخرجت يدها أخيراً وفيها مسدس صغير. نظرت إلى بورتمان لكن مونرو وقف حاجزاً بينها وبينه، وكانت ليزا نيومان تقف أمام كرسي بورتمان.

صاح جيمس كليك: اقتلي ألتاماونت يا خوانيتا... بسرعة، اقتلي ألتاماونت.

رفعت يدها وأطلقت النار، وقال جيمس كليك: طلقة ممتازة.

كان اللورد ألتاماونت قد حصل على تعليم كلاسيكي؛ قال بكلمات ضعيفة وهو ينظر إلى جيمس كليك: جيمي؟ «حتى أنت يا بروتس»؟

ثم انهار على كرسيه.

* * *

نظر الدكتور ماكولوتش حوله لا يدري ماذا يفعل أو يقول؛ فقد كان الموقف في ذلك المساء غير عادي بالنسبة له. ثم جاءت ليزا نيومان إليه ووضعت كأساً بجانبه وقالت: شراب حار.

قال: أعرف أنك دائماً امرأة نادرة المثال يا ليزا.

ثم رشف منه رشفة وقال: أريد أن أعرف ما سبب كل هذا... ولكني فهمت بأنه أمر سري وأن أحداً لن يقول لي شيئاً.

- البروفسور... إنه على ما يرام، أليس كذلك؟

نظر بلطف إلى وجهها المتلهف وقال: البروفسور؟ إنه بخير، وبرأيي أن هذا الحادث قد أثّر عليه تأثيراً إيجابياً عظيماً.

- ظننت أن الصدمة ربما...

قال بورتمان: أنا بخير تماماً؛ العلاج بالصدمة هو ما كنت أحتاجه. أشعر... أشعر أنني عدت إلى الحياة من جديد.

بدا مدهوشاً، وقال ماكولوتش لليزا: هل تلاحظين كيف أصبح صوته قوياً الآن؟ إن البرودة واللامبالاة هما حقاً العدو في مثل هذه الحالات. إن ما يريده هو العمل من جديد، تحفيز بعض العمل الدماغي. الموسيقى جيدة بالنسبة له، فهي تبقيه هادئاً وقادراً على الاستمتاع بالحياة بطريقة هادئة. ولكنه حقاً رجل ذو قدرات عقلية كبيرة، وهو مشتاق للنشاط العقلي الذي كان بالنسبة له جوهر الحياة. اجعليه يبدأ عمله من جديد إن كنت تستطيعين ذلك.

ثم أومأ برأسه مشجّعاً بينما كانت تنظر إليه نظرات ارتياب.

قال الكولونيل مونرو للطبيب: أعتقد أننا ندين لك ببعض التوضيحات بالنسبة لما حدث هذا المساء، على الرغم من أن السلطات تريد سياسة السرية في هذا الأمر كما توقعتَ. إن وفاة اللورد ألتاماونت...

ثم تردد ولم يكمل، فقال الطبيب: إن الطلقة لم تقتله عملياً، فالوفاة حدثت بسبب الصدمة. وكان من شأن الحقنة أن تؤدي إلى نفس النتيجة، فهي حقنة ستراكنين.

قال هورشام: لقد أمسكت به في الوقت المناسب.

سأله الطبيب: هل كان ذلك الشاب هو السبب الخفي للمتاعب طوال الفترة الماضية؟

- نعم؛ فقد كان يُعامَل بثقة وحب منذ أكثر من سبع سنوات. إنه ابن أحد أقدم أصدقاء اللورد ألتاماونت.

- هذا يحدث. والسيدة، أهي معه في هذا الأمر كما فهمت؟

- نعم؛ لقد حصلت على وظيفة ممرضة هنا عن طرق تقديم أوراق ومستندات زائفة، وهي أيضاً مطلوبة للشرطة بتهمة القتل.

- القتل؟

- نعم، فقد قتلت زوجها، السفير الأمريكي سام كورتمان. لقد قتلته على عتبات السفارة ثم ابتدعت حكاية جيدة الحَبْك عن شباب مقنّعين هاجموه وقتلوه.

- ولماذا قتلته؟ أهي دوافع سياسية أم شخصية؟

- نعتقد أنه اكتشف بعض أنشطتها.

قال هورشام: أعتقد أنه شك في خيانتها له، لكنه اكتشف -بدلاً من ذلك- عُشّ زنابير يعجّ بالتجسس والتآمر، وكانت زوجته تدير الأمر كله. لم يعرف تماماً كيف يتعامل مع الموقف، فقد كان رجلاً لطيفاً طيباً لكنه كان بطيء التفكير، وكان لديها من الذكاء ما جعلها تتصرف بسرعة. رائع كيف أظهرت حزنها وأساها في الجنازة.

هتف البروفسور بورتمان: الجنازة!

التفت إليه الجميع بشيء من الدهشة. قال: إنها كلمة ثقيلة على اللسان. ليزا، علينا أنا وأنت أن نبدأ العمل من جديد.

- ولكن يا روبرت...

- أنا حيٌّ من جديد. اسألي الطبيب إن كان لزاماً عليّ أن أخفف من اندفاعي للعمل.

التفتت ليزا إلى الطبيب متسائلة فقال: إن فعلت هذا فإنك ستختصر حياتك وتغرق في لجّة اللامبالاة من جديد.

قال بورتمان: أسمعتِ؟ إنها الموضة الطبية هذه الأيام؛ إنها تجعل الجميع يواصلون العمل حتى لو كانوا على أعتاب الموت!

ضحك الدكتور ماكولوتش ووقف على قدميه ثم قال: لم تجاوز الحقيقة كثيراً. سأرسل إليك بعض الأقراص لمساعدتك.

- لن أتناولها.

- بل ستفعل.

وقف الطبيب عند الباب وقال: أريد أن أعرف فقط، كيف استدعيتم الشرطة بهذه السرعة؟

قال مونرو: قائد السرب أندروز هو مَن قام بهذا العمل كله. لقد وصل في الوقت المناسب، فقد كنا نعرف أن المرأة كانت موجودة في منطقة قريبة، لكنّا لم نعلم أنها موجودة داخل هذا البيت بالذات.

- حسناً، سأذهب الآن. هل كل ما أخبرتموني به صحيح؟ أشعر أنني سأستيقظ من نومي في أية لحظة وكأنما غلبني النوم وأنا في وسط رواية مثيرة؛ جواسيس، جرائم قتل، خونة، علماء...

ثم خرج فيما بقي الجميع صامتين، وأخيراً قال البروفسور بورتمان ببطء وحذر: عودة إلى العمل!

قالت ليزا كما تقول النساء دائماً: عليك أن تنتبه لنفسك يا روبرت.

- لا، لن أنتبه. قد يكون الوقت قصيراً.

ثم قال ثانية: جنازة...

- ماذا تقصد؟ لقد قلتها من قبل.

- جنازة؟ نعم، لإدوارد، جنازته!

استغرق بورتمان في التفكير ثم قال: أريد العثور على غوتليب إن لم يكن قد مات. إن العمل معه ممتع، معه ومعك يا ليزا... أخرجي المواد من البنك.

قال السيد روبنسن: البروفسور غوتليب ما يزال حياً، وهو في مؤسسة بيكر في مدينة أوستين في تكساس.

قالت ليزا: ماذا ستفعل؟

- بينفو بالطبع؛ إحياء لذكرى إدوارد ألتاماونت. لقد مات من أجله، أليس كذلك؟ لا ينبغي لأحد أن يموت عبثاً.

* * *

خاتمة

كتب السير ستافورد ناي البرقية للمرة الثالثة:

لقد رتبت لإقامة حفل الزواج يوم الخميس من الأسبوع القادم في كنيسة سينت كريستوفر في الوادي الأسفل من ستونتون، الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. أين أنت؟ وبأي اسم تريدين عقد الزواج؟ ابنة أخ لي عمرها خمس سنوات.(وهي فتاة متمردة) تريد الحضور وصيفةً للعروس، واسمها سيبيل. سنقضي شهر العسل في الوطن لأننا سافرنا بما فيه الكفاية مؤخراً.

التوقيع: مسافر إلى فرانكفورت

برقية جوابية إلى ستافورد ناي:

أوافق على عرض الزواج رغم أنه لم يُقدَّم رسمياً. ترتيبات الزواج مناسبة تماماً، وكذلك ترتيبات شهر العسل. أقبلُ سيبيل وصيفة، وأقترحُ أن تكون العمة ماتيلدا ضيفة الشرف. أصرّ على أن تكون الباندا حاضرة أيضاً. لا فائدة من إخبارك عن مكان وجودي لأنني لن أكون في المكان ذاته عندما تصلك هذه البرقية.

التوقيع: ماري آن

قال ستافورد ناي بارتباك وهو يدير رأسه لينظر إلى مظهره في المرآة: هل يبدو مظهري جيداً؟

كان يجرب بدلة الزفاف، وقالت الليدي ماتيلدا: لستَ أسوأ من أي عريس آخر؛ كلهم عصبيو المزاج وليس مثل العرائس اللائي يكنّ في العادة فَرِحات متهللات.

- افترضي أنها لم تأتِ؟

- سوف تأتي.

- أشعر... أشعر بشيء غريب في داخلي.

- هذا لأنك تناولت قطعة لحم إضافية. أنت لا تعاني إلاّ من ارتباك العرسان. لا تنزعج كثيراً يا ستافي، ستكون بخير عندما تصل إلى الكنسية.

- هذا يذكّرني...

- ألم تنسَ شراء خاتم الزواج؟

- لا، لا. لكني نسيت أن أقول لك إنني أحضرت لك هدية يا عمتي.

- هذا جميل منك يا ولدي.

- قلتِ إن عازف الأورغ قد ذهب؟

- نعم، والحمد لله.

- لقد أحضرت لكم عازفاً جديداً.

- حقاً يا ستافي؟ يا لها من فكرة غريبة! من أين حصلت عليه؟

- من بافاريا، وهو يغني مثل الملاك.

- لا نريده أن يغني، عليه أن يعزف على الأورغ فقط.

- يمكنه العزف أيضاً، فهو موسيقي موهوب.

- ولماذا يريد ترك بافاريا والمجيء إلى إنكلترا؟

- لقد ماتت والدته.

- آه، هذا ما حدث لعازف الأورغ عندنا. يبدو أن أمهات عازفي الأورغ بالغات الهشاشة! وهل سيطلب أمومة؟ أنا لست جيدة في هذا الأمر.

- يمكن لمقام الجدّة أن يفي بالغرض.

فُتح الباب فجأة ودخلت طفلة جميلة وقد وضعت المساحيق الحمراء على خديها. كان دخولها مسرحياً، وقالت بنبرة عذبة وكأنها تتوقع ترحاباً حاراً: ها أنذا.

- سيبيل؟ لماذا لم تذهبي إلى النوم؟

- الأمور ليست جيدة في غرفة نومي.

- هذا يعني أنك كنت فتاة غير مطيعة والمربية غير راضية عنك. ماذا فعلت؟

رفعت سيبيل بصرها إلى السقف وبدأت تقهقه قائلة: مجرد يرقة زاحفة ذات فرو... رميتها على المربية فوقعت هنا.

وأشارت سيبيل بإصبعها إلى وسط صدرها، فقالت الليدي ماتيلدا: لا عجب أن تغضب ناني إذن.

في تلك اللحظة دخلت المربية وقالت إن الآنسة سيبيل كانت منفعلة جداً ولم تذهب إلى النوم، فذهبت سيبيل باتجاه الليدي ماتيلدا وقالت: أريد أن أدعو بالخير لكل من أعرف.

- حسناً، ولكن يجب أن تذهبي إلى النوم بعد ذلك فوراً.

- آه، نعم.

وقفت سيبيل وتبادلت النظرات مع المربية وكأنها قد حققت عليها نصراً، ثم ودّعت الجميع وذهبت.

قالت الليدي ماتيلدا: لا بد أن شخصاً قد أخبرها عن بينفو. بالمناسبة يا ستافي، من سيكون شاهدك في العرس؟

- لقد نسيت ذلك تماماً. وهل يجب أن يكون لي شاهد عرس؟

- إنها العادة.

أمسك السير ستافورد بدمية حيوان صغير من الفراء وقال: الباندا هذه ستكون شاهدي. ولِمَ لا؟ لقد كانت الباندا شريكةً في الأمر منذ البداية... منذ فرانكفورت!

* * *

Agatha
Christie



Passenger
to Frankfurt

مُسَافِر إلى فرانْكفُورْت

اقتربت منه المرأة بحذر ثم طلبت منه أن يعطيها رداءه وجوازه وتذكرة السفر لكي تسافر باسمه من فرانكفورت إلى لندن!

كان ستافورد ناي يحسّ بالسأم ويسعى إلى التغيير، ولذلك لم يتردد في الموافقة على هذا الطلب الغريب. لكنه -بعمله هذا- علق في بيت العنكبوت؛ فلم تعد حياته آمنة كما كانت من قبل.

أحداثٌ متشابكة تقوده إلى قلعة قديمة في بافاريا، فهل سيتجرّأ على الدخول إلى الفخ برجليه؟ وماذا سيجد هناك؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!





٧١ رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم

الأجيال للترجمة والنشر

AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-2705-5

9782195727O5

US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً